جامعة القاهرة
كلية الاقتصاد والعلوم السياسية

دراسات فى تاريخ مصر الاقتصادى

الدراسة الأولى

حضارات ما قبل التاريخ وحضارة مصر الفرعونية

أحمد رشاد موسى

جامعة القاهرة
كلية الاقتصاد والعلوم السياسية

دراسات فى تاريخ مصر الاقتصادى

الدراسة الأولى

حضارات ما قبل التاريخ وحضارة مصر الفرعونية

أحمد رشاد موسى





إلى الأميرة فاطمة اسماعيل ...

وإلى أعيان مصر الأفاضل ...

تقديراً و وفاءاً لعطاءهم النبيل ، وجهدهم المخلص ،

فى سبيل إنشاء الجامعة المصرية فى عام ١٩٠٨ ،

التى كانت و لازالت وستظل رائدة التنوير والاشعاع الحضارى .

أ.ر.م.

مقدمـــة :

بدأت التفكير في مشروع هذه الدراسة خلال عقد السبعينيات، عندما كنت أحاضر طلبة السنة الأولى بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، فى تاريخ مصر الاقتصادى . وكان اختيارى لموضوع هذه الدراسة، وهو تاريخ مصر الاقتصادى فى عصور ما قبل التاريخ والعصر الفرعونى ، لأسباب عديدة، كان من بينها :

١- كان من بين اسباب أختيارنا لدراسة تاريخ مصر الاقتصادى ، خلال تلك الحقبة المبكرة من فجر تاريخها ، أن هذه الحقبة قد أهملت ولم تلق ما تستحقه من اهتمام . إذ ركز جمهور الدارسين والباحثين فى علم التاريخ الاقتصادى ، اهتمامهم على تاريخ مصر الاقتصادى فى العصر الحديث ، أى منذ حملة بونابرت على مصر ، ثم بداية عصر " محمد على الكبير " ، الذى وضع اللبنات الأولى فى صرح الدولة الحديثة .

ثم كيف ، ولماذا انهار ذلك الصرح الشامخ من الخلق والإبداع الحضارى، وإن ظل رغم كل هذا ، يثير فضول عقول البشر حتى اليوم.

٢- كذلك ، كان من بين هذه الأسباب، محاولة الكشف عن القوى التى تشكل تاريخ الإنسان وتحكم تطور حضاراته ، وهل كان تاريخ الإنسان هو فى الحقيقة تاريخ الصراع بين طبقات المجتمع التى تنتج ولا تملك وتلك التى تملك ، دون أن تنتج، وهل يخضع تطور تاريخ الإنسانية لقانون جبرى، حتمى، لا يمكن أن يحيد هذا التطور عن المسار الذى يحدده ، أو يهرب من إساره. وهل هذا القانون الحتمى فى حقيقة الأمر، قانون مادى اقتصادى .

بعبارة أخرى، لقد أردت أن أثبت فقر التفسير المادى للتاريخ، تلك "الأسطورة" التى ألبسها كارل ماركس ، "رداء علمياً ، وتلقفها من بعده أتباعه ومريديه، ليؤكدوا صحة ما ادعاه، رائدهم أو" رسولهم " ، من أن تاريخ الإنسانية هو تاريخ صراع دموى بين طبقات المجتمع.

وقد تبين لنا، أن أهم العوامل التـى شكلت تـاريخ مصر الحضـارى خـلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن ، تمثلت فيما يأتى :

٢/١- لعبت العقيدة الدينية، دوراً حاسماً فى تشكيل تاريخ مصر القديمة ، وما حققته من إنجازات حضارية. لقد كانت العقيدة الدينية أعظم دافع ، وراء تلك الصـروح المعمارية الخالدة، التى تمثل منظومة من الإبداع والخلق الحضارى، خير شاهد عليها، تلك المقابر ومعابد الآلهة ، والتى بلغت قمة الإعجاز الهندسى فـى مجموعـة أهرامـات ملوك الدولة القديمة، " خوفو " " وخفرع " " ومنكاورع " .

بل ويمكن القـول أن العقيـدة الدينيـة، أثـرت فـى كـل مظـاهر الحيـاة فـى مصـر بطريقة فريدة أو متفردة، يندر أن تجد مثيلاً لها فى تاريخ أى شعب من الشـعوب. لقد عرف المصريين، منذ عهود موغلة فى القدم تكـاد لا تعيهـا الذاكـرة، بـأنهم أكـثر أهل الأرض تمسكاً بـأهداب الديـن، وبحكـم الفطـرة. ولازالـت هـذه الحقيقـة، والتــى أكدهـا "هيرودوت" منذ أكثر من ألفى عام، غير خافية عنا حتى اليوم.

٢/٢- كذلك كان " لعظمــاء الرجـال " ، دوراً بـارزاً لا يقـل أهميـة عـن العقيـدة الدينية ، فى تشـكيل تـاريخ مصـر السياسـى والاقتصـادى وفـى تطـور حضـارتهـا. ومـا اعتراها من ازدهار أو اضمحلال وركود وتدهور.

وكان من بيـن هـؤلاء " الملـك سنفرو " " والملـك خوفـو " مـن عظمـاء عصـر الدولة القديمة، ذلك العصر الذى يمثل فى رأى البعض، قمة الخلق والإبداع الحضـارى فى كل تاريخ مصر الفرعونية. " والملك منتوحتب الثـانى " " والملـك امنمحـات الأول " "والملـك سنوسـرت الثـالث " مـن ملـوك عصـر الدولــة الوسـطى ، أو عصـر الرخــاء الاقتصادى والحكم العادل، والذين مكنوا مصر من النهوض مـن كبـوة العصـر الوسـيط الأول ، واعـادوا اليهـا وحدتهـا التـى تمزقـت فـى ذلـك العصـر . كمـا كـان مـن عظمـاء الرجال ، تلك النخبة الفذة من ملوك عصر الدولـة الحديثـة او العصـر الامـبراطـورى ، الذين شيدوا صرح الامبراطورية ، التى امتدت حتى مشـارف الخرطـوم فـى الجنـوب ، وحتى بلاد النـهرين شرقاً , وكان أهم هؤلاء " الملك أحمس الأول " ، " والملك تحتمس

الثالث " " والملك امنحتب الرابع " ، الذى عرف فى تاريخ الانسانية باخناتون ، أول من بشر بوحدانية الخالق الواحد الأحد ، ثم " الملك رمسيس الثانى " صاحب معجزة معبد " ابى سمبل " .

وقد تمثلت مقومات العظمة عند هؤلاء ، فى قوة العقيدة والشخصية ، وفى الالتزام الصارم فى فلسفة الحكم وادارة شئون مصر ، وفى معاملة ابناءها ، وفى حياتهم الخاصة، بمجموعة من القيود الصارمة، التى تجد اصل وجودها فى منظومة مقدور أحد، غير ملوك عظماء الالتزام بها طواعيه لا جبراً. وكان من بين هذه القيم الحرص على اكتساب رضاء الآلهة يوم الحساب طمعاً فى الخلود، والصدق والعدالة ، فى القيم الدينية والأخلاقية ، لم يكن احترام القانون وتقاليد البلاط الملكى الموروثة. لقد عاشت هذه القيم فى ضمير ووجدان هؤلاء الرجال العظماء، حتى قدسوها وجعلوا منها آلهة تعبد .

وخلال فترات حكم هؤلاء العظماء، عرفت مصر أعظم وأبهى وأزهى عصورها، وارتقت انجازاتها الحضارية إلى عنان السماء .

وإلى جانب هؤلاء الرجال ، عرفت مصر سيدات عظيمات ، عرفن بقوة الشكيمة والشعور الوطنى ، ساندن ملوك مصر القديمة فى الدفاع عنها وتطهير أرضها من دنس الاحتلال الأجنبى. وكان من بين هؤلاء السيدات العظيمات ، بعض ملكات الأسرة الثامنة عشر، اللاتى وقفن فى صلابة لمساندة وتشجيع الرعيل الأول من ملوك الدولة الحديثة، الذين وضعوا اللبنات الأولى فى صرح الامبراطورية المصرية. وكان اشهرهن " الملكة تتى شرى " ، جدة " أحمس الأول " ، والملكة " إع حوتب " أمه، "والملكة أحمس نفرتارى " ، أخت وزوجة كل من " كامس " "وأحمس الأول" .

وعندما اعتلى عرش مصر، ملوك ضعفاء، تقاعسوا عن تحمل مسئولية الحكم، وعاشوا على أمجاد من سبقوهم، مقلدين لا مبدعين، شهدت مصر أسوء عصورها وضاعت وحدتها، وبدأت عوامل الفناء تخرب حضارتها، حتى توارت فى

نهاية الأمر من على مسرح الأحداث. وكان من بين هؤلاء، آخر ملوك الدولة القديمة، وآخر ملوك الدولة الوسطى ، ثم آخر ملوك عصر الدولة الحديثة، ذلك العصر الذى شهد بداية انحدار شمس الحضارة نحو المغيب. فعم الظلام !!!

وعلى الرغم من تسليمنا بأن العوامل الاقتصادية ، لعبت دوراً فى تاريخ مصر الاقتصادى ، إلا أن احوال مصر الاقتصادية وما اعتراها من تغير ، انما كانت ، إلى حد كبير ، انعكاساً لظروفها السياسية ، وما اعترى الحكم من قوة أو ضعف ، أو نتيجة عوامل طبيعية مثل قصور ماء النيل فى بعض السنوات .

٣- رغبة ملحة لا تقاوم، فى الكشف عن بعض أحاجى تاريخ مصر القديمة : كيف استطاع الإنسان خلال تلك الحقبة الموغلة فى القدم من تاريخ الإنسانية، أن يبدع على ضفاف النيل المقدس، واحدة من أعظم وأخلد الحضارات التى عرفها عبر تاريخه الطويل، كيف استطاع أن يضع اللبنات الأولى فى صرح أولى مدارس الحضارة والمدنية ، تلك المدرسة التى علمت الإنسان كيف يزرعَ نبتاً، ويستأنس طيراً أو حيواناً، ويهتدى إلى لغة يتخاطب بها، ويسطر بها تاريخه وعواطفه وذكرياته. كما علمته كيف يحسب ويعد ويجمع ويطرح، ويهتدى فى لحظة حاسمة من تاريخه إلى أول تقويم للزمن، ويقيم أول بناء من الحجر، ثم يشيد بعد ذلك منظومة الخلود المتمثلة فى أهرامات الجيزة ، التى لازالت أسرارها تتحدى العقل حتى يومنا هذا . ثم كيف هداه فيض من الإشراق والحدس الإلهى ، إلى تمهيد الطريقة لمَعرفة حقيقة الأزل: الله الواحد الأحد .

٤- وأخيراً وليس آخراً ، اعتقادى فى صحة ما قاله "جوزيف شومبير" Josephe Schompeter أحد كبار رواد الفكر الاقتصادى ، بأن التاريخ الاقتصادى ، هو أفضل أدوات التحليل الاقتصادى، سواء كان هذا التاريخ حديثاً أو موغلا فى القدم .

وعندما انتهيت من هذه " الدراسة " فى صيف عام ١٩٩٧ ، وبعد عدة سنوات من القراءة ، والتفكير ومحاورة النفس ، قدمتها للزميل الأستاذ الدكتور عبد الحليم نور الدين الأستاذ بكلية الآثار بجامعة القاهرة ، فتفضل مشكوراً بقراءتها قراءة

متأنية، كما تفضل بتصويب بعض الأخطاء التى وردت بها . وكانت تعليقاته المشجعة حافزا قويا على نشرها . وهذا فضل وجميل سأظل مديناً به للزميل الكريم .

وبمناسبة ظهور الطبعة الأولى من هذه الدراسة أقدم خالص شكرى للمجلس الأعلى للثقافة لموافقته على أن تكون هذه الدراسة ، ضمن إصداراته . كما أتقدم بالشكر للأستاذ الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة وللزملاء الكرام أعضاء لجنة الاقتصاد بهذا المجلس ، الذين أوصوا المجلس بنشرها .

كما أتقدم بخالص شكرى ، للأستاذة خيريه أدهم ، والأستاذة إيمان بدر ، والأستاذة هديل هدايه ، ولإبنى الأستاذ أحمد حلمى عبداللطيف ، والأستاذ حافظ صلاح النجار . فقد بذلوا جميعاً جهداً صادقاً فى مراجعة هذه الدراسة (أثناء عملية الطبع) .

الفيوم : شتاء عامى ١٩٩٧ ، ١٩٩٨ .

أ.ر.م.

نص المرسوم الملكى ، الذى اصدره " الملك تحتمس الثالث " ، والذى أعلى صرح الإمبراطورية المصرية حتى اصبحت حقيقة ملموسة فى عصره ، بتكليف " رخميرع " بتحمل اعباء مسئولية الوزارة :

" يأبى الرب التحيز، وهذه تعاليم نرجو أن تتبع سبيلها. ثم يضيف "
" الملك : تطلع إلى منصب الوزير هذا وكن يقظاً لكل ما يحدث "
"فيه، فهو عماد الأرض كلها، ولاحظ أنه ليس بالمنصب الهين ولكنه"
"مر المذاق ... وهو لا يعنى (مجرد) تقدير الذات واحترام الرؤساء"
"ورجال البلاط . وليس الغرض منه أن يستعبد الوزير أفرادالشعب... "
"فإذا قصدك شأك من الصعيد أو من الدلتا أو من أى بقعة فى الأرض "
"فعليك أن تتأكد من أن كل شئ يجرى وفقاً للقانون والعرف. وامنح كل"
"ذى حق حقه ...،ولاحظ أن من يلى منصباً كبيراً يردد الهواء والماء"
"كل ما يفعله،ولايمكن أن تستمرتصرفاته خافية ...، تصرف وفقاً للعدل،"
"فالمحاباة يمقتها الرب ، وإليك نصيحة تخلق بها : عامل من تعرفه كما"
"تعامل من لا تعرفه ، وانظر إلى المقرب إليك نظرك إلى البعيد عنك ..."
"لا تشح بوجهك عن صاحب شكوى،ولا تؤمن سريعاً على صدق من"
"يحادثك ...، لا تغضب على فرد بغير حق واقصر غضبك على من"
"ينبغى الغضب منه . كن مهيباً يهابك الناس. والنبيل هو من يجله"
"الناس وتتأتى مهابته إذا أحق الحق .... ولكنه إذا أخاف الناس"
"وأسرف فى ترويعهم وكانت به نقيصه، نزلوا به "من مصاف الرجال."
"ولسوف تنجح فى تحقيق الهدف من منصبك إذا نصرت الحق."
"فالناس يتوقعون العدل فى كل تصرفات الوزير . وتلك سنة القضاء"
"منذ حكم الرب على الأرض .....،كن عنيفاً مع المتكبر، فالفرعون "
"يفضل من يستحى على من يتكبر..."

المحتويـــــات

الفصـــل الأول

موضوع ومنهـــج الدراســـــة

مقدمـة

نشأة علم التاريخ الاقتصادى :

ظل المؤرخون عموماً ، ولحقبة طويلة من الزمان ، يسيرون فى خطى الفيلسوف الانجليزى "سيلى " " Seelcy"[1] الذى اعتقد فى إصرار، أن التاريخ ليس سوى "علم السياسة الماضى". وكان سيلى يعكس فى قوله هذا، الاتجاه السائد بين جمهرة المؤرخين، بأن العوامل السياسية، هى أكثر العوامل تأثيراً فى أحداث التاريخ، ومن ثم فهى الأجدر بالاهتمام والدراسة. أن العامل السياسى، فى رأى أنصار هذا الاتجاه، يمثل الجانب الإنسانى فى حركة التاريخ، كما يوضح دور الفرد فى تشكيل وتوجيه الأحداث. وما القضايا الاقتصادية والعسكرية، إلا تابعة للقضايا السياسية.

وخلال القرنين الثامن والتاسع عشر، بدأت تتوالى الدراسات، التى تؤكد أهمية العوامل الاقتصادية فى تشكيل الأحداث التاريخية وتطور المجتمعات الإنسانية. وقد مهد هذا لظهور "التاريخ الاقتصادى" كفرع مستقل من فروع المعرفة العلمية، "ومدرسة التاريخ الاقتصادى"، كأحد الاتجاهات الرئيسية فى الدراسات التاريخية المعاصرة.

ونفصل فيما يلى ما سبق إجماله .

أكد " سان سيمون " Saint Simon " (١٧٦٠ - ١٨٢٥)، أهمية دراسة الحوادث المتعلقة بحياة الإنسان الماضية. لكى نستكشف قوانين تقدمها ، ونرصد حركتها . ذلك لأننا لا نستطيع التنبؤ بمستقبل الأحداث، إلا إذا فحصنا الماضى الجماعى للإنسان. ولكى يؤكد "سان سيمون" نظريته ، درس تاريخ أوروبا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية ، وانتهى إلى أن صراع المصالح الاجتماعية الكبرى ، هو الذى يشكل حركة التاريخ . وأن حركة التاريخ ما هى إلا صراع متصل ، بين طبقة رجال الكنيسة والتى أسماها الطبقة الأولى وطبقة رجال الإقطاع أو الطبقة الثانية من ناحية والطبقة العاملة من فلاحين وصناع أو الطبقة الثالثة من ناحية أخرى .

---

١ - يقول " سيلى " فى تعريفة للتاريخ :

" History is school of states - manship "

وقد استعرض "سان سيمون" معالم هذا الصراع الاجتماعى، وكيف أن ملوك دول أوربا فى العصور الوسطى، قد انحازوا إلى الطبقة الثالثة، ضد أمراء الإقطاع، ومنحوا سكان المدن من أعضاء هذه الطبقة، حقوقاً خاصة مما أدى إلى ازدهار المدن الصناعية Les bourges، وأصبح سكانها الأثرياء بورجوازيين. وقد قاد هؤلاء، الطبقة الثالثة ضد أمراء الإقطاع، ثم بعد ذلك قادوا طبقتهم، للثورة ضد الملكية التى كانت تحميها.

هذا، وقد أثرت أفكار "سان سيمون" التاريخية، تأثيراً كبيراً على بعض مفكرى عصره، ومنهم تلميذه "اوجستان تيرى"Ugustin Thierry"(١٧٩٥-١٨٥٦). كان "تيرى" من أشد أنصار الثورة الفرنسية، وخاصة حكومة"الكوميون الباريسى"، التى أقامها الثوار اليعاقبة والتى عرفت بعدائها الدموى للملكية والأرستقراطية. وقد انتهى "تيرى"فى كتابة" مجموعة من الآثار غير المنشورة الخاصة بتاريخ الطبقة الثالثة"، إلى أن مصدر الثروة والإنتاج هم رجال الطبقة الثالثة، وأن ما من بطل عظيم، إلا وكان وراءه رجال هذه الطبقة، كقوة دافعة، وبدونهم ما كان فى مقدور البطل أن يفعل شيئاً[١].

هذا ، وقد دعم الاتجاه السابق ، وأكد خطورة العوامل الاقتصادية ، ظهور " كارل ماركس" " Karl Marx " (١٨١٨ - ١٨٨٣)، الذى ذهب فى تفسيره المادى الاقتصادى للتاريخ إلى حد التطرف ، عندما انتهى إلى القول بأن تاريخ الإنسانية ، تحكمه قوانين حتمية . وأن هذه القوانين هى قوانين اقتصادية بحتة . وأن حضارة المجتمع وثقافته، ونظمه الاجتماعية والسياسية والقانونية ، وعقائده وفنونه وقيمه الجمالية ، ما هى إلا انعكاسات للبنية الأساسية الاقتصادية المادية للمجتمع . وأن تاريخ العالم ، ما هو إلا تاريخ الأشكال المختلفة للصراع بين الطبقات الاقتصادية، أى الطبقة التى تملك ولا تنتج من ناحية ، والطبقة التى تنتج ولا تملك من ناحية أخرى[٢] .

(١) سيد الناصرى، فن كتابة التاريخ وطرق البحث فيه، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٢، ص٣٥-٣٨و٤٤٥.

(٢) لمزيد من التفصيل أنظر: أحمد رشاد موسى، فلسفة ماركس فى التاريخ: دراسة نقدية، مجلة القانون والاقتصاد، كلية الحقوق، جامعة القاهرة، ١٩٧٧ .

كذلك كان من الضرورى ، لظهور " تاريخ الاقتصاد " كعلم مستقل ولظهور "مدرسة التاريخ الاقتصادى " . كأحد الاتجاهات الأساسية ، فى الفكر التاريخى المعاصر، ان يصل علم الاقتصاد نفسه ، إلى درجة من التقدم والنضوج ، تمد المؤرخ الاقتصادى ، بنظام متكامل من الأفكار الاقتصادية وأدوات التحليل الاقتصادى ، وتبين دور العوامل الاقتصادية فى تشكيل الأحداث التاريخية . إن هدف المؤرخ الاقتصادى، كهدف غيره من المؤرخين، أن يعيد الحياة إلى واقع اقتصادى انقضى مع مسيرة الزمن . بعبارة أخرى، إن هدف المؤرخ هو كيف يبعث الحياة فى ماض ولى . ولكى يحقق هذا الهدف ، كان لابد له ، بالإضافة إلى متطلبات كثيرة أخرى ، من منظومة هذه الأفكار وهذه الأدوات . وقد تحقق لعلم الاقتصاد هذه الدرجة من التقدم والنضوج ، بظهور العمل الخالد " لأدم سميث ""Adam Smith" بحث فى أسباب ثروة الأمم "Wealth of Nations" فى عام ١٧٧٦.

لهذا ليس غريباً ، والأمر كما سبق أن ذكرنا ، أن يعتبر الفصل الثالث من "ثروة الأمم" أول مؤلف فى التاريخ الاقتصادى ، كما كان المؤرخون الإنجليز أول من اهتم بدراسة التاريخ الاقتصادى. ومن الأمثلة على ذلك المؤرخ " اشتون " "Ashton" ، الذى خصص خمسة مجلدات لدراسة تاريخ بريطانيا الاقتصادى . كما تناول آخرون تاريخ بريطانيا الاجتماعى وتاريخها الأدبى والفنى .

وعموماً ، لم يعد التاريخ ، علم " السياسة الماضى "، " بل أصبح علم "الاقتصاد الماضى " و " علم الأديان الماضى " و" علم الحضارات الماضى" . بإيجاز أصبح موضوع الدراسات التاريخية ، كل ما يتعلق بالإنسان وحضارته فى الماضى . بعبارة أخرى ، يجب أن يكون التاريخ شاملاً لكل جوانب الظاهرة الإنسانية : الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية، والثقافية ، والحضارية ، وكيف تطورت هذه الجوانب عبر الزمن [١] .

---

(١) يرى بعض المؤرخين ان دراسة التاريخ السياسى ، ونظم الحكم والقهر ، وتاريخ الحروب والمعارك ، ومؤامرات القصور ، والحياة الخاصة للملوك والحكام ، لاجدوى من وراءها . بل لقد رفض كارل بوبر Karl Popper ، الفيلسوف البريطانى، الألمانى المولد ، دراسة التاريخ السياسى ، لأنه فى نظره يمثل تاريخ السلطة وتاريخ الزعماء ، الذين فرضوا على شعوبهم أشياء بالقهر ، لأنهم يمتلكون السلطة . ان التاريخ السياسى فى نظره ، وليد الخوف والرهبة وعبادة السلطة، أنظر : سيد الناصرى ، المرجع السابق ، ص ٤١.

فائدة دراسة التاريخ :

ولكن لماذا ندرس التاريخ ، وهل هناك فائدة ترجى من دراسة ماض ولى ؟ أليس من الأجدر بنا أن نكف عن النظر إلى الوراء ، ونهتم فقط بدراسة الحاضر ومآله، خاصة فى عصر يلهث الإنسان ، وهو يحاول تتبع ما يحدث فيه من يوم لآخر. بل لقد ذهب البعض إلى القول بأن الأمة السعيدة ، هى التى ليس لها تاريخ !!

تمثل الرغبة فى المعرفة ، ظاهرة غريزية فى الإنسان ، خاصة إذا ما تعلق الأمر بتاريخه وماضيه وتراثه وذكرياته . أن الإنسان يتوق بالفطرة إلى معرفة تاريخه، حتى قيل إذا صح القول بأن " الإنسان حيوان اجتماعى ، فهو أيضاً " حيوان تاريخىّ "، بل أنه الوحيد بين الكائنات الحية ، الذى يسعى إلى معرفة وتسجيل تاريخه.

وعلى هذا ، فإن الدراسات التاريخية ، تشبع حاجة غريزية فى الإنسان ، كما أن ثقافته التاريخية ، تعتبر من خير الوسائل ، للارتقاء بوعيه الحضارى ، وتعمق شعوره بقوميته ووطنه ، ومدى ارتباطه بأرضه وانتمائه له .

أما دراستنا للتاريخ الاقتصادى، فتقوم على اعتقادنا بأن دراسة التاريخ الاقتصادى لعصر من العصور، إنما تعتبر واحدة من أهم أدوات التحليل الاقتصادى، التى تساعدنا على فهم واستيعاب الظواهر والأحداث والأفكار والنظم الاقتصادية، ومعرفة العوامل التى شكلت كل هذا [1] . ومن المؤكد أن فهم الماضى ، يمهد السبيل لفهم الحاضر ، كما قد يساعد على التنبؤ بمسار المستقبل وأنماطه . كتب أستاذى الأستاذ الدكتور رفعت المحجوب عام ١٩٦٠ فى كتابه " النظم الاقتصادية " يقول :

---

(١) نذكر القارئ بأوجه الشبه فى هذا الخصوص بين تاريخ الإنسان من ناحية ، وأهمية تاريخ الأرض فى فهم التكوينات الجيولوجية المعاصرة فى علم الجيولوجيا ، وكذلك أهمية عوامل الوراثة فى فهم التكوين البيولوجى للفرد ، وما قد يصيبه من نقائص خلقية أو أمراض .

" مع تتابع التاريخ أدلى الماضى ببعضه إلى الحاضر ، وسيدلى الحاضر ببعضه إلى المستقبل . ولكن الحاضر لا يمكن أن يكون قد انحدر كله من الأزل، كما لايمكن أن يخلق كله إلى ما لا نهاية ، فلن يقف التاريخ عن أن يحمل للإنسانية ألواناً جديدة من الفكر والمنظمات."

حقاً لايمكن أن يكون الحاضر نسيجاً وحده ، إذ لايمكن فصل حاضر الإنسانية عن تراثها وماضيها . فكثير من الظواهر والأحداث والنظم التى تشكل حاضرها ، تمد جذورها فى ماضيها . ومن ثم ، فإن فهم الحاضر فهماً عميقاً ، غالباً ما يفرض على الباحث ، النظر إلى الماضى وتاريخه . هذا ، وان كنا نؤمن إيمانا عميقا بأن الماضى والحاضر يؤثران فى نمط الحياة فى المستقبل ، إلا أننا نؤمن أيضاً بأن التاريخ لا يسير وفقاً لقوانين حتمية ، تمكن من التنبؤ الكامل بصورة المستقبل [1] . فكثيراً ما يخبئ المستقبل الكثير ، وهناك من القوى التى لا نراها ، ولايمكن أن نراها ، والتى تلعب دورها وتغير من مسيرة التاريخ التى توقعناها .

هناك دائماً إرادة الخالق جل شأنه . إذا أراد شيئاً قال كن فيكون، وليس فى مقدور البشر معرفة ما يريد الخالق لنا فى غدنا . من كان فى مقدوره أن يتنبأ برسالات السماء، كما أتى بها موسى والمسيح ومحمد ، ومن كان فى مقدوره أن يتنبأ بآثارها ، وكيف أعادت تشكيل مسيرة الإنسانية، ودفعتها لبعث النور والأمل والعدل والحق بين البشر....!

وهناك دائماً مفاجآت الطبيعة ، وما قد تخبئه من خير أو شر أو كوارث . من كان يتصور كل ما ترتب على فيض الأرض بنفطها ، من تغيرات فى تاريخ العالم المعاصر . ومن كان فى مقدوره ان يتنبأ بكوارثها !

---

(١)أحمد رشاد موسى ، المرجع السابق ذكره.

وهناك دائماً اكتشافات العلم وكيف غيرت صورة الحياة على سطح هذا الكوكب. وإذا سلمنا بدور العلم وتطبيقاته فى تشكيل أحداث التاريخ ، وإذا سلمنا باستحالة ان نعرف اليوم، ما قد تسفر عنه جهود العلماء من اكتشافات ومفاجآت بل وثورات علمية فى الغد، فإن هذا يعتبر سبباً منطقياً لإنكار فكرة الحتمية التاريخية ، والقول بأن التاريخ يعمل وفقاً لقوانين جبرية ، إذا عرفناها ، أصبح فى مقدورنا ان نعرف ، على سبيل اليقين ، مسيرة تاريخ الإنسانية فى المستقبل[1] !!

نخلص من كل ما سبق ، أننا ندرس التاريخ الاقتصادى ، لأنه قبل أى شئ آخر، وعلى حد قول " جوزيف شومبيتر " " J.Schumpeter "، أحد أعلام الفكر الاقتصادى المعاصر، من أهم أدوات التحليل الاقتصادى [2] .

ولكن لكى يكون التاريخ الاقتصادى أداة تحليل نافعة ، يجب أن يكون قد كتب، وفقاً لمنهج علمى، يجعل منه تاريخاً جيداً. ولاشك أن هذا أمر جد عسير ، يتطلب الكثير، خاصة :

١- المؤرخ المحترف ، ذو المعرفة والثقافة الواسعة ، الذى وهب مقدرة الإحساس بالتاريخ ، أو "الحاسة التاريخية " .

٢- المصادر الموثوق بها ، وتوافر القدرة على فهم وتفسير هذه المصادر بطريقة صائبة، حتى يكون هذا التفسير موضوعياً وصادقاً .

1- Action , H.B. ,The Ilusion of the Epock , Marxism - Leninism as A philosophical Creed Cohen and West Ltd . 2 nd ., Imprission , London 1961 , and Tukker , R ., Philosophy and Myth in Karl Marx , 1961, Popper K. R . The open society and Its Enemies Vol .II, the High Tide of Prophecy : Hegel Marx and the After Math , Routledge and Kagen Paul ltd., 3rd. (revised), London 1957 and Poverty of Historicism , the Previouscly mentioned Publisher , London , 1961 .

2- J. Schunpeter, History of Economic Analysis, Oxford University, New york, 3rd prenting, 1959, pp.4-6.

المبحث الأول
موضوع الدراسة فى التاريخ الاقتصادى

يتمثل موضوع الدراسة فى التاريخ الاقتصادى من وجهة نظرنا، فى محاولة التعرف على محاولات الإنسان والجماعات البشرية الدائبة ، منذ فجر تاريخه وحتى اليوم، للفكاك من اسار وقيود المشكلة ، التى تواضع الدارسون فى علم الاقتصاد ، على تسميتها بمشكلة الندرة Problem of Scarcity ، أو المشكلة الاقتصادية Economic Problem . وما يبذله من جهد أو نشاط وما صاغه من علاقات ونظم ، للتصدى لهذه المشكلة .

وتجد مشكلة الندرة ، كما هو معروف ، أصل وجودها فى محاولة الفرد أو المجتمع إشباع حاجاته غير المحدودة ، والتى تتفاوت فى أهميتها ، وذلك باستخدام ما لديه من موارد تتسم بكونها محدودة ، وتصلح لاستخدامات متعددة. وخلال تاريخ الإنسان الطويل للتصدى لهذه المشكلة الأزلية ، تنشأ علاقات متنوعة بين أفراد الجماعات البشرية ، ويبتدع الإنسان أو يصوغ نظماً تحتوى نشاط أفراد الجماعة وما ينشأ بينها من علاقات [1] . وتؤكد حقائق التاريخ اتسام هذه الحاجات ، وهذه الموارد وهذه العلاقات وهذه النظم ، بالتغير والتطور عبر الزمن .

١- انظر عرضاً ممتعاً لكفاح الإنسان من أجل إشباع حاجاته فى فجر تاريخه ، وكيف اهتدى إلى وسائل إشباع هذه الحاجات فى العمل الخالد لأبن طفيل ، أحد عظماء الفلسفة الإسلامية ، والمعروف " بحى بن يقظان ". وقد ولد بن طفيل ، ببلدة وأدى آش قرب غرناطه فى أوائل القرن السادس الهجرى ومات عام ٥٨١ من الهجرة . عبدالحليم محمود، فلسفة بن طفيل ورسالة حى بن يقظان ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة دون تاريخ ، وكذلك أحمد رشاد موسى، بن طفيل : أفكاره الاقتصادية والاجتماعية ودوره فى نشأة نظرية المنهج العلمى فى الفكر الأوربى الحديث، مصر المعاصرة، القاهرة، ١٩٩٦ . وكذلك : مصطفى السعيد وأحمد رشاد موسى ، مقدمة فى علم الاقتصاد، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٩ وما بعدها . طبعات متعددة .

المبحث الثانى
طبيعة المعرفة التاريخية

يقوم منهج دراستنا للتاريخ الاقتصادى، على الاعتقاد بوجود اختلاف جوهرى فى درجة الموضوعية والحياد العلمى فى الدراسات التى تهتم بالظواهر الإنسانية، بما فى ذلك الدراسات التاريخية من ناحية ، والدراسات التى تهتم بدراسة الطبيعة من ناحية أخرى . ويقوم هذا الاعتقاد على ما يأتى :-

١- وجود اختلاف جوهرى فى طبيعة محل البحث فى كل من هذين الفرعين من فروع المعرفة الإنسانية .

٢- إن هذا الاختلاف العميق فى طبيعة محل البحث، يستلزم اختلافاً فى المنهج العلمى الذى يمكن الأخذ به فى كل منهما .

ونفصل فيما يلى ما سبق إجماله .

فعلى حين يتميز الكثير من الظواهر الطبيعية التى تشكل محل البحث فى العلوم الطبيعية، بقدر من الاستقلال والثبات والاستقرار النسبى، الأمر الذى يمكن من عزل محل الدراسة عن المؤشرات الخارجية ، التى يرغب الباحث فى استبعاد تأثيرها عن محل البحث. كما أن طبيعة محل الدراسة فى هذه العلوم ، تمكن من إعطاء محل البحث والعناصر التى تشكله مضموناً كمياً .هذا فى حين نجد أن وجود العنصر الانسانى ، كعنصر مميز للظاهرة الإنسانية، سواء كانت هذه الظاهرة اقتصادية أو تاريخية أو غيرهما ، يلعب دوراً أساسياً فى تشكيلها ، يؤدى إلى نتائج خطيرة . فمن ناحية نجد أن وجود هذا العنصر ، وما يرتبط به من دوافع إنسانية وحرية إرادة ، يؤدى إلى صعوبة تحديد الظاهرة الإنسانية ، وجوانبها المختلفة ، وصعوبة عزلها والسيطرة عليها ، وإجراء تجارب عليها فى معمل اختبار . فضلاً عما سبق، فإن موضوع الدراسة فى العلوم الإنسانية عموماً ، هو عادة جانب من جوانب الظاهرة الإنسانية ، التى تتسم بالتعقيد والتشابك والتأثير المتبادل ، وليس شيئاً مستقلاً فى

وجوده المادى، كما هو الحال فى العلوم الطبيعية . كذلك نلاحظ أن العلاقات التى ترتبط بالظواهر الإنسانية ، لا تتسم بنفس القدر من الثبات أو البساطة ، التى تتسم بها العلاقات المرتبطة بالظواهر الطبيعية .

ويترتب على ما سبق ، أن أى محاولة لمعرفة أى العناصر يشكل سبباً وأيها يعتبر نتيجة، عند دراسة هذه العلاقات ، يعتبر أمراً سهلاً نسبياً عند دراسة الظواهر الطبيعية ، بالمقارنة بالعلاقات التى ترتبط بالظواهر الإنسانية ، حيث يتعذر تحديد طبيعة وأثر كل من المتغيرات، التى تشكل هذه العلاقات بطريقة موضوعية ومجدية . ولعل هذا يفسر لماذا نلجا عند دراسة العلاقة بين المتغيرات الاقتصادية، إلى افتراض بقاء الأشياء الأخرى على حالها. على الرغم من مجافاة هذا الشرط للحقيقة، لأن الأشياء الأخرى يندر أن تبقى على حالها .

ويتبع هذا الاختلاف فى طبيعة محل البحث فى هذين الفرعين من فروع المعرفة الإنسانية، اختلاف فى طبيعة منهج البحث. ففى حين يسمح محل البحث فى العلوم الطبيعية، بتطبيق الطريقة أو المنهج الكمى **Quantitaive method** ، بصفة أساسية . كذلك تمكن البساطة النسبية واستقلال أجزاء الوجود الطبيعى الباحث من عزل موضوع البحث وإجراء الدراسة عليه ، فى ظل ظروف منضبطة فى معمل اختبار. وقد كانت التجربة وإمكانية القياس الكمى، هما الأداة الرئيسية التى مكنت من تحقيق ما تتسم به العلوم الطبيعية من موضوعية وحياد علمى وعالمية القبول . ومن الواضح أنه قد تعذر حتى الآن تطبيق المنهج الكمى أو التجريبى فى دراسة الظواهر الإنسانية ، بنفس القدر من النجاح الذى أمكن تحقيقه فى مجال الدراسات الطبيعية. ويمكن أن نرجع ذلك لأسباب عديدة من أهمها ما يأتى :-

١-أهمية العنصر الإنسانى وفكرتى الدافع وحرية الإرادة الإنسانية ، والاعتبارات الكيفية فى دراسة الظواهر الإنسانية وجوانبها المختلفة .

٢-الكثرة النسبية للعوامل التى تشكل الظواهر الإنسانية ، واتسام هذه العوامل بالميل للتغير وارتباط كل منها بالآخر، مع صعوبة أو استحالة عزل وتقدير أثر كل

واحد من هذه العوامل على حدة ، أو معرفة أيها يعتبر سبباً وأيها يعتبر نتيجة فى كثير من الأحوال .

٣-عدم توافر الكثير من المعلومات والبيانات الموثوق بها والضرورية لدراسة الظواهر الإنسانية والعوامل التى تشكلها ، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالماضى ، كما هو الحال فى الدراسات التاريخية . وسوف يتضح ذلك جلياً عند دراسة تاريخ مصر الاقتصادى.

هذا، ويمدنا الخلاف الشهير بين الدارسين فى علم الاقتصاد ، حول طبيعة المنفعة **Utility** وقابليتها للقياس الكمى **Cardinal Measurement**، بدليل واضح على تعذر الأخذ بالمنهج الكمى فى دراسة الظواهر الاقتصادية. كذلك نصادف نفس الصعوبة فى نظرية الإنتاج ، عند محاولة دراسة سلوك المنظم وأهدافه، بسبب تأثر هذا السلوك باعتبارات غير نقدية ، منها مالا يقبل القياس الكمى . كذلك تأثر سلوك المنظم وسياسته ، بتقديراته لمنحنى الطلب والنفقة ، وكلاهما كثيراً ما يتأثر بتوقعات أو تخمينات المنظم الذاتية، لما يحتمل أن تكون عليه هذه المتغيرات فى المستقبل . ونضيف إلى ما سبق أهمية العوامل النفسية فى تفسير الدورات أو الأزمات الاقتصادية، كانهيار سوق الأوراق المالية فى "وول ستريت" **Wall Street**، والكساد الكبير **the Great Depression** الذى تبع هذا الانهيار فى عام ١٩٢٩ ، وفى تفسير مستوى العمالة والطلب على أموال الاستهلاك وأموال الاستثمار ، ... الخ .

٤-ولعل من بين أهم الأسباب التى تؤكد ضرورة الاختلاف فى المنهج وفى درجة الموضوعية والحياد العلمى فى كل من العلوم الطبيعية من ناحية، والعلوم الإنسانية من ناحية أخرى، أن دراسة الظواهر الإنسانية يتطلب الاستعانة بمقولات فكرية ، أو بهيكل من الأفكار التى نشأت وتوطنت فى المجتمع الانسانى الذى يحتوى الظاهرة محل الدراسة . ويتعين على الباحث أن يعرف مضمون هذه الأفكار ، طبقاً للمفهوم الذى اكتسبته فى المجتمع أو البيئة التى نشأت واستقرت فيها . ومن المسلم به أنه ليس هناك ما يحتم أن يكون لهذه الأفكار مدلول واحد ، فى كل المجتمعات

الانسانية ، وبغض النظر عما قد يوجد من اختلافات بين هذه المجتمعات . بل ليس هناك ما يضمن حتى مجرد وجود هذه المقولات الفكرية ، وإن اختلف مضمونها إلى حد ما من مجتمع لآخر. ومثال ذلك أن الاشتراكيين والرأسماليين يتكلمون عن الديمقراطية، ولكن ما أشد الاختلاف بين مفهوم هذه المقولة الفكرية عند كل منهما. ومثال آخر : أن " الله " يعنى بالنسبة للمسلم أمراً مختلفاً تماماً، عما يقصده البوذى أو الهندوسى عند الكلام عن إلهه. وبالنسبة لعلم الاقتصاد، يتعين لكى نفهم ظاهرة السوق فى بلد متخلف، أن نعتمد على مقولات فكرية، تختلف اختلافاً جوهرياً عن أفكار ومقولات قد تحمل نفس الاسم فى مجتمع أوربى صناعى. بل إن هذه المقولات قد توجد فى مجتمع دون آخر !

٥- يترتب على اختلاف طبيعة موضوع أو محل البحث، واختلاف طرقه ومناهجه فى هذين الفرعين من فروع المعرفة العلمية، اختلافاً فى درجة الموضوعية المتحققة فى كل منهما. من الواضح أن الموضوعية المطلقة للمعرفة العلمية، وإن كانت مثلا أعلى قد يرغب الباحث فى الارتقاء إليه، تعتبر أمراً بعيد المنال، حتى فى العلوم الطبيعية. فما دام الباحث هو الإنسان، فهناك دائماً احتمال الإخلال بالموضوعية والحياد العلمى، بسبب احتمال خداع الحواس ووجود العنصر الانسانى. ولكن فيما عدا ذلك، فهناك اختلاف لا يمكن إنكاره فى درجة الموضوعية المتيسرة فى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية. ويمكن القول بصفة عامة فى حين يتسم التاريخ الفكرى للإنسان بالموضوعية والحياد العلمى فى العلوم الطبيعية ، يلاحظ وجود قدر هام من الذاتية والأحكام التقديرية Value judgment والتحيز فى العلوم الاجتماعية، بما فى ذلك دون شك علم الاقتصاد . ويمكن ان نفسر هذا الاختلاف بالعوامل الآتية :-

٥/١- يذهب الرأى الغالب فى " النظرة الاجتماعية فى المعرفة " " Sociology of Knowledge " وهو العلم الذى يهتم ضمن أشياء أخرى ، بدراسة مدى تأثر المعرفة الإنسانية بالوجود الاجتماعى ، إلى أن النظريات السياسية وعلم التاريخ والعلوم الاجتماعية ، وكذلك أسس نظرية المعرفة نفسها، تعتبر من حيث الشكل

والمضمون ثمرة الوجود الاجتماعى . ويترتب على هذا اتسام هذا الفرع من فروع المعرفة الإنسانية بقدر كبير من الاختلاف فى الزمان والمكان . وعلى العكس من ذلك يقرر أصحاب هذا الرأى، أن العلوم الطبيعية لا تتأثر بالوجود الاجتماعى إلى حد كبير(١).

٥/٢- يترتب على إمكان التجارب المنضبطة فى مجال العلوم الطبيعية، سهولة اختبار النظريات العلمية ونتائجها بطريقة موضوعية، وهو الأمر غير المتيسر عموماً فى دراسة الظواهر الاجتماعية .

٥/٣- تخلو العلوم الطبيعية بشكل واضح من الأحكام التقديرية للباحث (٢) وعلى العكس نجد أن الدراسات الاقتصادية والعلوم الاجتماعية الأخرى ، قد تأثرت بشكل ملحوظ ، وبصفة مستمرة ، بالأحكام التقديرية للباحث ، وما تعكسه هذه الأحكام من معتقدات دينية أو فلسفية، أو أخلاقية أو سياسية (٣) .

ومن أوضح الأمثلة على ذلك، تأثير "فلسفة القانون الطبيعى" "وفلسفة المنفعيين"، على النظرية الاقتصادية التقليدية، وتأثر الطبيعيين أو "الفيزيوقراط" وخاصة رائدهم كيناى "Quney"، وكذلك "آدم سميث" فى تعريف العمل المنتج بتعصبهم الريفى للزراعة. كما عارض"ريكاردو" "Ricardo" "رجل الصناعة والأعمال، فكرة حماية الزراعة فى بريطانيا. ومن أهم الأمثلة أيضاً الخلاف التقليدى بين اتباع "ماركس" وأنصار" المدرسة التقليدية الحديثة"، حول تفسير ظاهرة القيمة. وتأثر النظرية التقليدية فى التجارة الدولية وغيرها من أفكار انصار مذهب الحرية الاقتصادية، بمصالح بريطانيا كدولة صناعية. إذ لم يتردد كثير منهم فى التنكر لفكرة الحرية، عند مناقشة موضوع الحماية الجمركية للزراعة فى بريطانيا. وبالمثل نجد أن

(١) Kaufmann , Methodology of Social Sciences .

(٢) من الاستثناءات النادرة لهذه القاعدة ، رفض بعض علماء النازى أفكار بعض العلماء اليهود فى علم الطبيعية ، بما فى ذلك نظرية النسبية ، ورفض بعض اتباع ماركس نظريات علم الوراثة لتعارضها مع الفلسفة الماركسية . .

(٣) يعتقد شومبيتر ان التحليل الاقتصادى Economic Analystis لا يتأثر بالأفكار الفلسفية للباحثين ، وأن كان قد تأثر بأفكارهم السياسية .

Robinson, J . Economic Philosophy, 1-25 . Schompeter, J. op. cit . p.4-6.

أفكار الاقتصادى الألمانى "ليست" "List " عن "الصناعة الوليدة" " Infant Industry " تعبر تعبيراً أميناً عن مصلحة بلاده فى التنمية الصناعية ... الخ .. ولعل هذا يفسر ما يسمعه الإنسان كثيراً من "علم الاقتصاد الرأسمالى"، "وعلم الاقتصاد الاشتراكى" أو "الشيوعى" ، ولكن لا يسمع الإنسان عادة بوجود نظريات رأسمالية فى الطبيعة أو الكيمياء أو الأحياء . وأخرى اشتراكية أو شيوعية ، أو نظرية أمريكية وأخرى روسية وثالثة صينية فى الذرة .

نختتم هذا البحث بتساؤل لشومبيتر : هل كان تاريخ علم الاقتصاد هو تاريخ عقائد وأيدلوجيات ، وهل هناك من وسيلة لتحديد موطن هذه العقائد فى هذا العلم للتخلص من أثرها المفسد له .. ؟

يقول شومبيتر : فى حين يعتقد "كارل منهايم" "Karl Manheim" ، بالرغم من تسليمه بأن " الازدواج الأيدلوجى " " Ideological delusion " هو قدر لا يمكن الهروب منه ، تذهب ضحيته البشرية جمعاء ، إلا أنه يعتقد أن هناك من العقول الذكية التى تمكن أصحابها من أن يهربوا من هذا المصير. وهذا ما يرفضه شومبيتر ، لأن " الازدواج الأيديولوجى "غير معروف للباحث نفسه . فهو يوجد دائماً فى عقله الباطن ، ومن ثم لا يكون على بينة منه ، حتى يكون فى مقدوره ان يحرر نفسه من تأثيره ، أى أنه قد يستحيل على الباحث أن يعرف أنه ضحية الأيدولوجية التى يدين بها [1] .

---

(١) لمزيد من التفصيل فى هذا الصدد أنظر :

Schumpeter, op.cit., pp-33-47.
Manheim, K. Essay on The Sociology of Knowledge, ed. by Koeskemeti , 1952.
Toynbee, op.cit., Introduction, A., The Relativity of Historical Thought, P1-16.

وأنظر أيضاً سعيد النجار ، مقدمة فى الفكر الاقتصادى ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٦٩- ١٩٧٠ ص ١ وما بعدها .

المبحث الثالث
تفسير التاريخ : نظرية التحدى والاستجابة

رأينا فيما سبق أنه من الصعب إن لم يكن من المستحيل تحقيق نفس القدر من الموضوعية المتحققة فى العلوم الطبَيعية ، عند دراسة الظواهر الإنسانية ، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالدراسات التاريخية. فما حدث قد حدث، والماضى قد يكون بعيداً أو سحقياً ، وبالتالى لا يمكن للباحث أن يعاين وقائع التاريخ معاينة مباشرة ، كما أن التجربة والاختبار مستحيلان فى الدراسات التاريخية ، إذ لا يمكن لحدث تاريخى أن يعيد نفسه مرة أخرى[1]. وبالتالى يتعين لكى نعرف حقيقة ما حدث ، أن نرجع إلى مخلفات الماضى وأثاره وسجلاته ووثائقه ، للبحث عن حقائق التاريخ . ومن المسلم به أنه كثيراً مالا يتوافر لدينا عن الماضى ، القدر الضرورى من الحقائق والمعلومات التى يمكن أن نثق بها . فضلاً عن هذا، فقد نقع عند دراسة أحداث الماضى فريسة للتفسيرات الذاتية للماضى وأحداثه ، اعتماداً على مقولات ونظم فكرية ، قد تتضمن مفاهيم تغاير تلك التى سادت فى الماضى . وكما سبق أن ذكرنا قد يكون هذا الماضى موغلاً فى القدم . ولما كان الأمر كذلك أصبح من اللازم فى تصورنا، أن نكشف ونميط اللثام عن الفلسفة أو النظرية ، التى نرى من خلالها الحدث التاريخى وظاهرة الحضارة، حتى يكون القارئ على بينة من هذه الفلسفة ، التى قد تكون سبباً يحيد بنا عن الموضوعية ويفسد الحياد العلمى الذى نسعى إلى تحقيقه . بالإضافة إلى ما سبق، فإن انحيازنا لهذه الفلسفة ، وما هى إلا واحدة من فلسفات عديدة ، لا يعنى ادعاؤنا أنها بالضرورة الفلسفة الصحيحة .

وقبل أن نعرض لدراسة هذه النظرية ، ونعنى بها نظرية "التحدى والاستجابة" "Challange and Response" للمؤرخ الفيلسوف "أرنولد توينبى" "Arnold Toynbee"[2].

١- سيد الناصرى ، ص٧، وكذلك:

Toynbee A.J A Study of History, London, 1935. 1961, Vol .I,II,III,. p.49 l, p. 49 .

٢- تمثل نظرية توينبى فى اعتقادنا، صياغة متطورة وأكثر نضوجا، لفلسفة بن خلدون فى التاريخ، وهذا ما سنوضحه فى دراسة مستقلة نرجو أن تنشر قريباً . أنظر أيضاً :

Toynbee op. cit .,Annex III to vol III , c(ii)(b), the Relativity of Ibn Khaldun's Historical Thought, pp. 473-476.

قد يكون مفيداً أن نشير بإيجاز شديد ، إلى المقصود بفلسفات التاريخ والاتجاهات الرئيسية المختلفة التى سادت هذا الفرع من فروع المعرفة الإنسانية .

أولا: مفهوم فلسفة التاريخ :

انصرف اصطلاح فلسفة التاريخ حتى نهاية القرن التاسع عشر تقريباً ، إلى تلك المحاولات التى قام بها بعض المفكرين ، كالمؤرخين والفلاسفة وعلماء الاجتماع، لتفسير التاريخ بقصد استخلاص المعنى الذى قيل أنه يتضمنه ، أو بقصد معرفة الرسالة الخفية التى قيل أنه يحملها إلى الانسانية . بعبارة اخرى ، كانت فلسفات التاريخ تهدف بالدرجةالأولى ، إلى معرفة الخطة العاقلة ، التى ادعى هؤلاء أن التاريخ يسير وفقاً لها ، سعياً وراء تحقيق هدف معين ، أو محاولة اكتشاف القوانين التى تحكم تطور المجتمع الانسانى ، والتى سلم فلاسفة التاريخ بوجودها ، ثم محاولة التنبؤ بعد اكتشاف هذه القوانين، واعتماداً عليها ، بالغاية التى يسعى التاريخ إلى بلوغها .

وقد بدأ هذه المحاولات الفكرية عبدالرحمن بن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦ من الميلاد) فى عمله الخالد " المقدمة، " أى مقدمة كتابه المعروف " بتاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر " وإن بقيت/محاولته وحيدة ومجهولة حتى نهاية القرن التاسع عشر ، حتى بدأ "فيكو " "Vico" (١٦٦٨ – ١٧٧٤) الفيلسوف الايطالى التيار المعاصر فى فلسفة التاريخ.

وبناء على ما سبق يمكن القول أن اصطلاح فلسفة التاريخ كان يعنى :

١- تفسير الأحداث التاريخية لمعرفة القوى الأساسية التى تشكلها ، أو القوانين التى قيل إنها تحكم تطور المجتمع الإنسانى .

٢- محاولة التنبؤ بمسيرةالتاريخ ، لمعرفة الهدف الذى يسعى إلى تحقيقه، وذلك اعتماداً على هذه القوانين .

ويلاحظ أن فلسفات التاريخ عموماً لم تتبع الترتيب السابق ، أى لم يكن التنبؤ بهدف التاريخ ، محصلة ما تمليه على المفكر الذى تنبأ بهذا الهدف، القوانين التى

سبق له أن اكتشفها . بل غالباً ما سبقت رؤيا Vision الفيلسوف للهدف أو غاية التاريخ ، اكتشافه لأى قانون للتطور التاريخى .

فضلاً عن هذا . لقد قامت هذه المحاولات عموماً على أساس الاعتقاد المطلق بوجود قوانين حتمية تحكم تطور المجتمع الإنسانى ، وأن مسئولية المفكر هى فى الكشف عنها . وكانت الحجة التى تساق لتبرير هذا الاعتقاد، وبعبارة أدق هذا الادعاء، أنه لا فارق من حيث المبدأ بين المجتمع الانسانى والوجود الطبيعى، وأن كليهما يخضع لقوانين حتمية ، وإن كان اكتشاف القوانين التى تحكم تطور المجتمع الإنسانى أكثر صعوبة ، بسبب تعقد الظاهرة الإنسانية. باختصار : أن الفارق بين المجتمع الإنسانى والوجود الطبيعى فى رأى الكثيرين من فلاسفة التاريخ ، هو فارق من حيث الدرجة وليس اختلافاً فى طبيعة الأشياء .

وقد ترتب على هذا الاتجاه الذى ساد الدراسات التاريخية حتى عهد قريب ، أن سلم انصاره بأن :

١- ان ما حدث كان لابد أن يحدث ، وأن ما يحدث اليوم هو نتيجة أحداث أو مقدمات سبق وجودها فى الماضى . بعبارة أخرى : أن الحاضر محكوم بالماضى ، وهما معاً يحددان صورة المستقبل .

٢- إذا أمكن الكشف عن القوانين التى تحكم تطور المجتمع الإنسانى ، أمكن معرفة ما سيكون عليه هذا المجتمع فى المستقبل .

٣- إذا كان التاريخ يسير وفقاً لخطة حتمية ، وإذا كان ما حدث لابد أن يحدث، إذن فلا محل للمسئولية الاخلاقية فى جانب البشر . ذلك لأن التسليم بحتمية الحدث ، يعنى انعدام حرية الإرادة الانسانية ، وبالتالى انعدام المسئولية . هذا إذا سلمنا بأن المسئولية الاخلاقية تدور وجودا وعدماً مع حرية الإرادة الانسانية .

الاتجاهات الأساسية فى فلسفة التاريخ :

يمكن أن نميز بالنسبة للاتجاهات الفكرية الأساسية التى حاولت أن تقدم تفسيراً للتاريخ ، بين ما يمكن وصفه بمرحلة التفسير الدينى والاخلاقى للتاريخ، والاتجاه الفلسفى فى تفسير التاريخ .

١- مرحلة التفسير الدينى والأخلاقى :

يقصد بالتفسير الدينى والأخلاقى للتاريخ ، اتجاه الإنسان إلى رد ما يحدث حوله من أحداث ووقائع إلى إرادة قوية عليا خارجة عن إرادته ، وأن هذه القوى العليا هى التى دفعت بالأحداث إلى ما انتهت إليه .

وقد حاول الإنسان فى فجر حياته اكتشاف هذه القوى العليا ، أو القدرة الخلاقة التى نظمت الكون على النحو الذى هو عليه . ولما كانت قدرات الإنسان الذهنية فى فجر تاريخه محدودة ، فقد لجأ إلى الأساطير لتفسير ما يحدث حوله من أحداث وظواهر طبيعية .

ولما ظهرت الديانات السماوية : اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام ، قدمت تفسيرات جديدة لخلق العالم وتطوره ، تقوم على أن عين الله الساهرة التى لا تنام تعاقب الطالح وتكافئ الصالح ، وأن النفوس الشريرة لن تهرب من نقمة الله وقصاصه. ومن أمثلة ذلك ما ذهب إليه "القديس أوغسطين" (٣٥٤-٤٣٠ من الميلاد)، وهو من أشهر آباء الكنيسة الأوائل ، إلى أن إرادة الله وعنايته ، هى التى تشكل الأحداث التاريخية فجأة، ودون أن يكون فى الإمكان توقعها . وقد ذهب "القديس أوغسطين" إلى أن إرادة الله هى التى جعلت من الإمبراطورية الرومانية أعظم الامبراطوريات ، وذلك حتى تكون أداة الله فى إنزال العقاب بالأمم الجاحدة الكافرة بنعمته . ولهذا جعل الله "الإمبراطور قسطنطين "، أول إمبراطور مسيحى، يؤمن بأنه عبد نقى يلفظ عبادة الأوثان ، ويقود الإمبراطورية نحو إشراقة الدين الجديد أى "دعوة السيد المسيح " [١] .

١- سيد الناصرى ، المرجع السابق ذكره ، ص ٢-٢٧، راشد البراوى، التفسير القرآنى للتاريخ، سلسلة القرآن والفكر الحديث، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٣، ص ١٩٧ وما بعدها، حسن حنفى حسنين، نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط، دار الكتب الجامعية . القاهرة ١٩٦٩ ، ص ١ وما بعدها وكذلك :

Grant, M., Ancient History , Methuen and Co. Ltd., London, p. 14 et. seq.

ومن بين أنصار التفسير الدينى أو الأخلاقى "فولتير" "Voltaire"، الذى أرجع سقوط الإمبراطورية الرومانية، إلى عاملين تمثل أولهما فى هجوم البرابرة الجرمان عليها، وتمثل ثانيهما فى اعتناق الإمبراطورية الدين المسيحى. إذ يرى " فولتير " أن الإمبرطورية عجزت عن التصدى لهذه الهجمات الجرمانية، لعدم وجود رجال عظام من عينة " ماريوس " يتصدون لانقاذ الإمبراطورية، ولأن الإمبراطورية الرومانية، أصبح لديها من الرهبان أكثر مما كان لها من الجنود والزعماء.

وينتمى إلى نفس الاتجاه، المؤرخ العظيم، " ادوارد جيبون " Edward Gibbon ، الذى أرجع انهيار الإمبراطورية الرومانية، إلى انحطاط طبائع الرومان بسبب ضياع القيم والفضائل القديمة، ولأن المسيحية، فى اعتقاده، قد تسببت فى تدهور الروح المعنوية لهذا الشعب المحارب، وقضت على الطموح القومى، وحولتهم إلى شعب مسالم سلبى. ويضيف إلى ما سبق، أن المسيحية حولت آلافاً من الرجال الأقوياء إلى قساوسة ورهبان، يعيشون فى الأديرة. بعبارة أخرى، لقد حرمت الرهبنة ، الإمبراطورية الرومانية من قوى بشرية كانت فى أشد الحاجة إليها [١] .

٢- الاتجاه الفلسفى :

يقوم هذا الاتجاه عموماً على الاعتقاد بوجود خطة حتمية يسير التاريخ وفقاً لها ، وبوجود هدف يسعى التاريخ لبلوغه ولابد حتماً أن يبلغه . ولكن عند التساؤل عما هى هذه الخطة ، وما هى القوانين التى تسير وفقاً لها ، وما هى العوامل التى تشكل تاريخ الإنسانية وتحدد مسار التطور الاجتماعى . وعند التساؤل عما هى الرسالة الخفية التى يحملها التاريخ للإنسانية ، فإننا نجد خلافاً عميقاً حول إجابة كل هذه التساؤلات . ونوجز فيما يلى الاتجاهات الرئيسية فى هذا الشأن .

١- سيد الناصرى، المرجع السابق ص ٣٢ - ٣٣ وكذلك:

Pones, Thoughts on the Decline and Fall of the Roman Empire, Bulletin of Faculty of Arts, Cairo University, vol. xx111, part 1, may 1961.

وأنظر أيضاً . عبدالرحمن بن خلدون، مقدمة العلامة ابن خلدون، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٦، ص ١١٨ وما بعدها.

الاتجاه الأول : نظرية تعاقب الدورات التاريخية :

جوهر هذه الفكرة أن تاريخ الانسانية يتكون من مجموعة من الدورات التاريخية المتعاقبة . وأن المجتمعات الإنسانية شأنها شأن الكائنات الحية تولد وتكبر وتنضج ، ثم يبلغها الهرم فتموت . وربما كان تعاقب الحضارات ، ومرور كل منها بدورة تكاد تكون واحدة : مولد أو نشأة الحضارة ثم نموها ، هو السند الأساسى لهذه النظرية .

ومن أشهر محبذى فكرة الدورة التاريخية ، "ابن خلدون " الذى قال إن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص[1] وكذلك الفيلسوف الإيطالى "فيكو "، الذى قال فى كتابه " علم جديد New Science "، إن الأمم لابد أن تمر فى تاريخها بمراحل معينة. وفى كل مرحلة من هذه المراحل تضيف جديداً إلى التراث الإنسانى. ومن المفكرين المحدثين الذين أخذوا بفكرة الدورة الفيلسوف الألمانى " شبنجلر" "Spengler"، الذى انتهى فى كتابه انهيار الغرب The Decline of the West إلى التنبؤ بانهيار الحضارة الغربية المعاصرة.

الاتجاه الثانى : فكرة التقدم الإنسانى :

يقول بهذه الفكرة فلاسفة التاريخ الذين يؤمنون باتجاه المجتمع الإنسانى إلى التقدم والارتقاء نحو حياة أفضل .وقد ذهب بعض أنصار هذا الاتجاه ، إلى أن تقدم الإنسانية هو تقدم مطلق لا نهائى، بينما ذهب آخرون إلى أن التقدم الإنسانى محدود ببلوغ التاريخ هدفه، ومتى تحقق هذا الهدف توقف التقدم، أو أصبح غير متصور الحدوث .

ويمثل الفيلسوف الألمانى " كانط Kant " فكرة التقدم اللانهائى . فقد ذهب فى كتابة " فكرة التاريخ العالمى " "The Idea of Ůnivesal History" إلى أن الطبيعة قد وضعت فى الجنس البشرى ، قدرات معينة تمكنه من التقدم والارتقاء إلى مالا نهاية [٢].

١- عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٦، ص

٢- أنظر لمزيد من التفصيل : أحمد رشاد موسى ، فلسفة ماركس فى التاريخ : دراسة نقدية ، سبق ذكره.

أما فكرة التقدم الانسانى المحدود ببلوغ التاريخ هدفه ، فيمثلها فى صورتها المثالية، الفيلسوف الألمانى " هيجل " " Hegel "، وفى صورتها المادية الفيلسوف الألمانى 'كارل ماركس " " Karl Marx ". إن جوهر فلسفة هيجل، كما يظهر من كتابه "فلسفة الحق" " Philosophy of Right "، أن تاريخ العالم ما هو إلا انعكاس أو سجل لتطور الفكر الإنسانى. كما يرى هيجل أن تطور الفكر مرده الصراع أو التنازع بين الأفكار.

فكل فكرة لابد أن تجد فكرة مناقضة لها، ويؤدى التناقض أو الصراع بين الفكرتين إلى ظهور فكرة ثالثة جديدة ، هى بالضرورة أرقى من الفكرتين السابقتين عليها ، لأنها تتضمن محاسن كل منهما . وهذه الفكرة الجديدة لابد أن تجد نقيضاً لها، لأنها ليست فكرة مطلقة . ويؤدى الصراع الجديد إلى ظهور فكرة رابعة ..... ، وهكذا يتطور الفكر الإنسانى طبقاً "لجدلية هيجل " أو " ثلاثيته المقدسة "، حتى يصل الفكر الإنسانى إلى الفكرة المطلقة ، أو المعرفة المطلقة، وعندئذ يتوقف تقدم الفكر وتقدم الإنسانية .

وقد حل صراع الطبقات عند " ماركس" ، محل صراع الفكر عند " هيجل" . أى صراع الطبقات التى تملك ولا تنتج وتلك التى تنتج ولا تملك ، أى الصراع بين طبقة أصحاب رأس المال من ناحية وطبقة العمال أو " البروليتاريا " من ناحية أخرى . وهذا الصراع لابد أن ينتهى ، فى رأى "ماركس" عندما تصل النظم الرأسمالية إلى قمة نضجها ، إلى انتصار "البروليتاريا " وانهيار المجتمع الطبقى . ومتى تحقق ذلك توقفت مسيرة التاريخ ، لأن هدف التاريخ هو الوصول بالإنسانية إلى مجتمع لا طبقي!!!

القوى التى تشكل الأحداث التاريخية :

رأينا فيما سبق كيف أرجع أصحاب الاتجاه الدينى كل شئ إلى إرادة الخالق جل شأنه. أما الفلاسفة المعاصرون ، فقد اختلفوا فيما بينهم فى تحديد القوى التى تلعب الدور الرئيسى فى تشكيل تاريخ الإنسانية .

ذهب "عبدالرحمن بن خلدون" ، فى المقدمة ، إلى أن هناك ارتباطاً بين ازدهارالدولة أو الحضارة أو المدنية وقوة رابطة العصبية "[1] . فى حين قال آخرون، إن هناك اختلافات عنصرية بين الاجناس ، وإن التفاوت الحضارى بين الشعوب ، ما هو إلا نتيجة هذه الاختلافات فى الخصائص العنصرية لها . وذهب فريق آخر إلى أن التفاوت الحضارى ، إنما يرجع إلى اختلاف خصائص البيئة الطبيعية والجغرافية والمناخية ، أو ما يعرف بنظرية " الحتم الجغرافى " . وقد رأينا أن " هيجل" اعتبر تاريخ العالم ما هو إلا انعكاس لتطور الفكر ، فى حين أصر " ماركس " على أن تطور المجتمعات البشرية ، إنما يحكمه قانون اقتصادى بحت ، وأن تاريخ العالم ما هو إلا تاريخ الصراع بين الطبقات ، أو تاريخ الاشكال المختلفة لتقسيم العمل . وقال كثيرون بأن عظماء الرجال يلعبون دوراً فذاً فى تشكيل تاريخ أممهم .

وحديثاً أخذت تتضح خطورة الآثار التى تلعبها الغرائز الجنسية وعواطف البشر فى هذا النطاق . وقال " برتراند رسل " " Russel " " وكارل بوبر" Popper " إن الفكر وحده أو الفكر الذى تسنده الدعاية ، وكذلك القوى السياسية والعسكرية ، تؤثر تأثيراً خطيراً فى تاريخ الشعوب . هذا فى حين يعتقد ابن خلدون و"توينبى" ان العقائد الدينية تقوم بدور خطير فى تطور حضارة الإنسان . بل لقد ذهب " توينبى " إلى حد القول بأن سبب وجود الأديان reason d'etre هو حاجة الإنسانية إلى حضارات جديدة .

عرضنا فيما سبق وبصفة عامة المفهوم التقليدى لفلسفة التاريخ . ولكن منذ بداية هذا القرن ، أخذ يقوى اتجاه جديد يقصد بفلسفة التاريخ : دراسة التاريخ دراسة نقدية على أسس موضوعية ، بغية فهم اتجاه ماض ، وتحديد أهم القوى التى تشكل الحدث التاريخى، وبيان الاتجاهات Trends العامة لتطور الإنسانية. ولكن هذا الاتجاه لا يذهب إلى حد القول بوجود قوانين حتمية تحكم تطور المجتمع، أو هدف حتمى يسعى التاريخ إلى تحقيقه. ولا شك أن هذا الاتجاه يختلف اختلافاً

١- عبدالرحمن بن خلدون، المرجع السابق، ص ١٠٧-١١٢ وكذلك : صلاح الدين بسيونى رسلان، السياسة والاقتصاد عند ابن خلدون، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٠، ص ٥-٨٤، خاصة ٢١-٢٥.

جوهرياً عن المفهوم التقليدى لفلسفة التاريخ، كما لابد أن لاحظ القارئ. ويمثل "ارنولد توينبى" الاتجاه الجديد فى كتابة دراسة للتاريخ **Study of History** الذى ظهر الجزء الأول منه فى عام ١٩٣٤. ومن أهم أسباب هذا التطور فى معنى فلسفة التاريخ، تخاذل المثالية أو فلسفة العقل المجرد، فضلاً عن سيطرة الفلسفة التجريبية والفلسفة الوضعية المنطقية **Logical Positivism** على الفكر الغربى والعالمى. ثم الأخذ بهذه الفلسفة كأساس لنظرية المنهج العلمى، وخاصة فيما يتعلق بالمعرفة الإنسانية عن العالم الخارج عن الذات، وكمعيار لتحديد مفهوم المعرفة العلمية. **scientific knowledge** ، والشروط التى نقرر بالرجوع إليها ما إذا كنا سنقبل أو نرفض نظرية ما .

نظرية التحدى والاستجابة :

لقد عاش الإنسان منذ ظهوره على أرض هذا الكوكب دهوراً طويلة ، قدرها البعض بما لا يقل عن ثلاثمائة ألف عام، فى حالة من البدائية والانحطاط الحضارى تجعله أقرب إلى الوحشية منه إلى الإنسانية. وحوالى الألف الخامس والعشرين قبل الميلاد المجيد ، بدأ الإنسان، فى لحظة حاسمة فى تاريخه، مسيرته الطويلة نحو الحضارة والمدنية.

ما هى الأسباب التى جعلت الإنسان يقف وقفته الطويلة عند مستوى الإنسانية البدائية ، وما هى الأسباب التى دفعته إلى محاولة الفكاك من إسار بدائيته ليضع أسس حضارات ومدنيات ؟

بعبارة أهم : كيف ترتب هذا على ذلك ؟

تلك كانت مشكلة " توينبى " الأساسية . ويمثل اهتمامه بها اعتقاده بأن المؤرخ يستجيب فى دراسته إلى نداء الله له كى يتتبع خلقه ، بالسعى إلى معرفته تعالى . وأن أقصى ما يتميز به دور المؤرخ فى بناء التراث الإنسانى ، أنه يقدم لنا فى هذا التراث صورة لإبداع الخالق جل شأنه، كما يتمثل فى اعتقاده فى أن الأعمال

العقلية لكبار المؤرخين، ما هى إلا نوع من الاستجابة لحدث خطير ، وأن هذه الاستجابة قد اتخذت شكل محاولة التشخيص التاريخى لهذا الحدث .

ويرى " توينبى " أن كوارث التاريخ ، تثير فى أكثر الحالات أعظم جهود المؤرخ كما تظهر أحسن ما فيه من قدرات . ذلك لأن الكوارث تتحدى نزعة التفاؤل الغريزية فى الإنسان. وهذا ما حدث له، ولعبد الرحمن بن خلدون من قبله بعدة قرون، عندما اعتزل فى قلعة بنى سلامة بتلمسان بالجزائر، هرباً من حياة حافلة بالكوارث والمآسى والمؤامرات، لينجز عملاً عبقرياً، يمثل أحد انتصارات الإنسانية الفكرية [١] .

لقد ولد " توينبى " عام ١٨٨٩ ، وعاش ليرى آمال الجيل الذى سبق جيله وقد تبددت فى غلظة. لقد بدا لهذا الجيل أن الحضارة الغربية تسير بالبشرية نحو "الفردوس الموعود"، فكيف تبددت أحلامه هكذا على نحو مفجع ؟ عاش " توينبى " ليسمع أصداء السؤال الذى شغله طيلة حياته كيف ترتب هذا على ذلك ؟ واندفع وراء رغبته الصارمة فى كشف اللثام عن أحاجى التاريخ ، متأثراً بعاملين كان لهما فى اعتقاده ابعد الأثر فى تكوينه الفكرى :

١-أن دراسته للتاريخ الإنسانى واتصال الحضارة الغربية بحضارات أخرى، جعل من المستحيل عليه أن يتجاهل ، كما فعل بعض المؤرخين ، حضارات الإنسانية الأخرى.

٢-كما أن ثقافته الهيلينية أو الإغريقية ، قد أكسبته مناعة ضد التعصب القومى . إذ يشق على من تلقى مثل هذه الثقافة فى اعتقاده، أن يقع بسهولة فى خطأ النظر إلى الحضارة المسيحية الغربية ، على أنها أعظم حضارة ظهرت إلى الوجود .

ومن ثم فقد وجد أن عليه أن يكشف، بقصد المقارنة، عن أكبر عدد من الظواهر التى تتصل بأنواع المدنيات أو المجتمعات Societies المتماثلة، التى لم تكن

١ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، ابن خلدون، دار الكتاب ، الدار البيضاء، ١٩٦٢، ص ٥٣-٧٧.

المدنية أو المجتمع الهيلينى أو الغربى سوى اثنين منها. وعندما وجد أن أغلبية هذه المجتمعات أو الحضارات قد أصابها الفناء، بدا له أنه لابد من أن يستنتج، أن الفناء هو "احتمال" يواجه أى حضارة، بما فى ذلك الحضارة الغربية المعاصرة !

أثارته كارثة الفناء، وأراد أن يكشف عن الباب الذى اختفت وراءه مدنيات وحضارات عديدة، بعد أن ازدهرت وأينعت حقبة من الزمن . ودفعه ذلك إلى دراسة ظاهرة انهيار المدنية ثم دراسة نشأتها وارتقاءها .

بدأ دراسته بتحديد حقل الدراسة التاريخية ، وانتهى إلى أن هذا الحقل ليس الدولة أو الأمة ، لأنه لن يتأتى لتاريخ أى أمة بمفردها أن يفسر نفسه بنفسه ، لهذا رأى أن حقل الدراسة التاريخية هو "مجتمع " Society "، تعتبر الأمم أو الدول أعضاء فيه أو أجزاء منه أو على حد قوله :

> **The intelligible field of historical study, in fact, appears to be society containing a number of communities .**

ولهذا فإن العوامل المؤثرة فى تاريخ أى أمة من الأمم ، ليست قومية الطابع ، إنما تنبثق عن نطاق أوسع يتخطى الحدود الإقليمية للأمة. ولا يمكن فهم هذه العوامل ، إلا من خلال النظرة الشاملة إلى تأثيرها على المجتمع بأسره . ولكن هذا لا يعنى أن العامل أو السبب العام الواحد ، يؤثر فى أجزاء أو أعضاء المجتمع بطريقة واحدة لا تختلف من جزء لآخر . كما اعتقد توينبى أن كل عضو من أعضاء المجتمع ، إنما يؤثر فى هذا العامل أو السبب بطريقته الخاصة .

ويواجه المجتمع وكل عضو من أعضائه فى حياته مشكلات متتابعة . وعلى كل عضو من أعضاء هذا المجتمع أن يحلها لنفسه على خير ما يستطيع . وتمثل كل مشكلة من هذه المشكلات ، تحدياً لكل عضو من أعضاء المجتمع ، يفرض عليه محنة أو معاناة يتعين عليه اجتيازها [١] .

---

(١) اعتمد " توينبى" فى تصنيف المجتمعات على معيار وحدة الكنيسة أو العقيدة العالمية كمعيار اساسى للتمييز بين المجتمعات.

وقد خلص " توينبى " من دراسته إلى تحديد واحد وعشرين مجتمعاً أو مدنية ، تشترك فيما بينهاً بخصائص أو ظواهر مشتركة . وقد انقرض معظم هذه المدنيات عدا خمس هى : المجتمع الغربى المسيحى ، المجتمع البيزنطى أو المسيحى الارثوذكسى وموطنه روسيا وجنوب شرق أوروبا، والمجتمع الاسلامى والمجتمع الهندى، ومجتمع أو مدنية الشرق الأقصى .

ومـــن بين المجتمعات التى انقرضت ، المجتمع المصرى القديم والمجتمع السومرى ، اللذان يمثلان أولى المدنيات التى عرفتها الإنسانية . وقد ظهر المصرى ، فى رأى " توينبى " حوالى الألف السادس قبل الميلاد [(١)،(٢)] . وإلى جانب هذه المجتمعات توجد مجتمعات غير متميزة الشخصية مثل اليهود . وبعض هذه المجتمعات أو المدنيات لا ينتمى إلى غيره، مثل المدنية المصرية القديمة ، التى لم تتولد عن مدنية سابقة عليها ، كما لا يجوز ، فى رأى "توينبى"، لأحد ادعاء الانتساب إليها . أما المدنيات الأخرى ، فتوجد بين بعضها علاقة قوية، أطلق عليها توينبى "علاقة التلمذة" أو "التبعية" **Apparentation and Affiliation**. وتتمثل هذه أساساً فى بعض الظواهر الاجتماعية التى تربط مدنية وأخرى . ويمكن أن نوضح هذه التبعية بالرجوع إلى العلاقة بين "المجتمع الغربى" و"المجتمع الهيلينى". ذلك لأن الامبراطورية الرومانية هى الدولة العالمية **Universal State** ، التى احتوت كل المجتمع الهيلينى وجعلته جماعة سياسية واحدة . وخلال الحقبة الأخيرة من حياته ، انقسم المجتمع الهيلينى إلى عدد من الدويلات، انبثق المجتمع الغربى الهيلينى، من بين الأطلال التى استحال إليها المجتمع الهيلينى، بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية.

(١) عاشت المدنية المصرية أطول حقبة عاشتها أى مدنية حتى الآن . ويرى " توينبى " أن المجتمع المصرى لم يكن له أباً ولا يجوز لأحد حق ادعاء الانتساب إليه . وهذا مما يزيد من شأن فكرة الخلود التى رنت إليها مصر منذ الأزل، وحققتها فى شكل أهرام من الحجر تمثل الدليل الصامت على وجود منشئيها . ولا يستبعد " توينبى ان تبقى حتى بعد فناء الإنسان ذاته ، وحيث لن يبقى على وجه البسيطة ، عقل بشرى واحد يطالع رسالتها .

Toynbee , op, cit, pp. 44 - 146.

(٢) أنظر فيما بعد حول تاريخ نشأت الحضارة على أرض مصر .

بعبارة أخرى، لقد سبق ظهور الدولة العالمية، عصر أو زمن المتاعب Time of Troubles، وخلاله كان المجتمع الهيلينى قد فقد قدرته على الخلق والإبداع، كما كان قد بدأ فى الانهيار. وقد ساعد ظهور الدولة العالمية، على إيقاف هذا الانهيار إلى حين . ذلك لأن "زمن المتاعب" لم يكن فى الحقيقة إلا أعراض مرض مميت، دفع "المجتمع الهيلينى" فى نهاية الأمر إلى الدمار.

وفى ذلك الجزء من الإمبراطورية الرومانية، الذى اصبح فيما بعد مهد المدنية الغربية، وخلال "الفراغ الزمنى" " the vacum in time-dimension " الذى يمثله عصر الانتقال من الحضارة الهيلينية إلى المسيحية الغربية ، ظهرت بعض المؤسسات ذات الطبيعة المرحلية أو الانتقالية Transitional Institutions هى "الكنيسة أو العقيدة العالمية " Universal Church" وبعض الدويلات المحلية، وإن كان هناك اختلافا جوهرياً فى طبيعة وأهمية كل من هاتين المؤسستين .

لقد نشأت " الكنيسة " أو " الدين العالمى " خلال "زمن المتاعب" فى تاريخ المجتمع الهيلينى ، نتيجة انتشار رسالة السيد المسيح عليه السلام، بين المغلوبين على أمرهم فى الإمبراطورية الرومانية ، أى بين غالبية أفراد المجتمع الهيلينى، والذين أسماهم "ارنولد توينبى" البروليتاريا الداخلية " Internal Proletariat " . وتمثل "العقيدة العالمية" الملجأ الروحى الذى خلقه المغلوبون على أمرهم من مواردهم الروحية والمادية، بعد أن تحولوا إلى غرباء داخل وطنهم ، وعندما تحول "ورثة الملك الهيلينى" إلى أقلية مسيطرة "Dominant Minority" تفرض بالبطش والقوة سلطتها على المغلوبين على أمرهم، بعد أن فقدت قدرتها على الخلق والإبداع الحضارى. كما أنها عجزت عن حمل الرسالة، التى حملها من قبل رواد تجربة من أعظم التجارب فى تاريخ الحضارة الإنسانية، وأصبحت هذه الاقلية تعيش حياة هى الموت Life-in-death. حياة تمثل عبئا على من يحياها وعبأ على من يضحى ليجعل حياة هذه الأقلية ممكنة. ومن ثم لم يكن من المتصور إلا أن ينكر

المغلوب على أمره ولاءه على حاكمه الظالم ، وأن يعيش غريبـاً فـى وطنـه فـى عزلـه عن حاكمه.

وإلى جانب كون الكنيسة أو العقيدة هى الوسيلة التى يجد المغلوب علـى أمره فيها خلاصة، فإنها تمثل أيضا مصدر الخلـق والإبداع، أو شـرارة الحيـاة Spark of Life أو بذرة الغرس الحضـارى الجديد، الذى تـولـدت عنـه الحضـارة الغربية فيمـا بعد. فعندما انهارت الإمبراطورية، أو الشجرة القديمة التى تآكلت جذورهـا، بـدأ الديـن الجديد يستنشق نسيم الحياة، ويهيأ الفرصة لخلق مجتمع جديد، على أنقـاض المجتمـع الذى انـهار ثم اختفى وراء باب الفناء.

أما الدويلات المحلية، فقد أسسها على انقاض الإمبراطوريـة الرومانيـة بعض القبائل البربرية، التى بدأت تغير على الإمبراطورية خلال فترة زمن المتاعب فى حيـاة المجتمع الهيلينى، عندما أصبح هذا المجتمع غـير قـادر علـى الدفـاع عن نفسـه. وقـد اطلق توينبى على هؤلاء الغزاة " البروليتاريا الخارجية " External proletariat".

ويلاحظ أن هذه الدويلات المحلية التى ورثت الإمبراطورية، لـم يكـن لوجودهـا أهمية تذكر فى تاريخ المجتمع الذى انبثق منـه المجتمـع الهيلينـى، بـل أنهـا انقرضت حتى قبل تمام انهيار الإمبراطورية.

وهكذا يتضح لنا أن "زمن المتاعب" فى تاريخ المجتمع الهيلينـى يتسم بوجـود ظواهر ثلاث :

" الدولـة العالميـة " Universal State التـى تمثـل محاولـة أخـيرة لإيقـاف تدهور الحضارة القديمة دون جدوى، ولكنها فى الحقيقـة لـم تكن أكـثر مـن بيت بنـى على الرمال، انهار فى يسر تحـت أقدام غزاة الإمبراطوريـة مـن القبـائل البربريـة. أو على حد تعبير توينبى إن الدولة العالمية تمثل ظاهرة تنتمـى انتمـاء مطلقـاً إلـى مـاض ولى، وأن "البروليتاريا الخارجية" التى أتت من وراء حدود الإمبراطورية، إنمـا جـاءت لتجهز أو تعجل بفناء حضـارة، فقدت قدرتها على الخلق أو حتى علـى الحيـاة. وينتمـى هؤلاء الغزاة كما هو حال الدولة العالمية ، إلى الماضى وحـده. أمـا " الديـن العالمـى "

فهو ظاهرة الماضى والمستقبل، هو صرح قام على جبل صخرى، هو وميض الحياة الذى تحول إلى شعلة حملها إلى المجتمع الهيلينى، مواطنون من الشرق، وعلى نورها غرس المغلوبون على أمرهم شجرة الحضارة الجديدة على أرض وطن، أصبح خلال زمن المتاعب، غريباً عليهم لم يكن لهم فيه شأن، لأنه أنكر عليهم كل شئ عدا وجودهم المادى .

وهكذا أنهار المجتمع الهيلينى ، لأنه فقد قدرة الخلق ، وانبثق منه وعلى انقاضه مجتمع ومدنية جديدة، هى المدنية الغربية .

وبعد أن خلص " توينبى " من دراسته لأصل المدنيات **Genses of Civilization**، بدأ فى البحث عن الأسباب التى جعلت البشرية تظل أحقاباً طويلة فى إسار البدائية أو الوحشية، والأسباب التى جعلتها فى لحظة حاسمة تخطو خطوتها الفذة نحو الحضارة والمدنية.

وقدم تفسيراً لوقفة البشرية طويلاً عند مستوى الإنسانية البدائية **Primitive Humanity**، عندما كان الإنسان أقرب إلى الوحشية منه إلى الإنسانية، فكرة القصور الذاتى **Vis inertiae** أو التكامل **Integration** أو مكان الراحة **Resting** . وخلاصة هذه الفكرة، أن وقفة الإنسانية طويلاً عند مستوى البدائية، إنما ترجع إلى أن الراحة أسهل من الحركة خلال كل مراحل الحياة ، كما أن فى الراحة وفر فى الطاقة والجهد. وهذا الوفر فى الطاقة، على فرض بقاء الأشياء الأخرى على حالها ، يمكن الإنسان من البقاء **Survival** . وهذا يفسر بقاء الكائن العضوى فى حالة تكامل أو راحة. وطالما أن الكائن قد نجح فى التلاؤم مع البيئة ، فقد يبقى دون تغير عصور جيولوجية بأكملها **Geological periods** . ولعل هذا يفسر لنا بقاء بعض الجماعات حتى اليوم فى عصورها الحجرية ، ووجود بعض أشكال الحياة البسيطة حتى اليوم **Archaic forms of life** . وقد أطلق توينبى على هذه المرحلة من تاريخ الإنسان، مرحلة " الين" " **Yin-phase** " أو تكامل العادات أو التقاليد **Integration of customs**، وهى المرحلة التى لم يكن الانسان

قد وصل خلالها إلى اكتمال انسانيته. كما رأى أن هذه المرحلة تمثل عقبة فى سبيل التغير أو التميز Defferentiation بشكل ملحوظ ، لأنها تمكن من البقاء دون حاجة إلى الإقدام على جديد . بعبارة أخرى، أن قوة المرحلة الحضارية التى اسماها " توينبى أيضاً " "عادات القبيلة" أو "العشيرة " " Customs of the tribe "، إنما تكمن فى أن الميل إلى الراحة، متى تحقق للانسان أمنه وسلامته ، إنما هو أقوى من الدافع الغريزى نحو الجديد أو المجهول [1].

وهكذا فسر" توينبى" المشكلة التى تتحدى دائماً فكر الباحثين وهى : لماذا عاشت البشرية كل هذه الدهور الطويلة فى أصفاد وأغلال البدائية .

وبعد ذلك حاول أن يقدم تفسيراً لمشكلته الأخرى وهى : "لماذا بعد هذه الوقفة الطويلة عند الانسانية البدائية ، بدأ الانسان فى لحظة حاسمة فى تاريخه ، يترك " مرحلة الين " إلى "مرحلة الخلق الحضارى " ، أو ما اسماه توينبى" مرحلة اليانج " " Yang Phase ". أو بعبارة أخرى، لماذا ترك سكون القصور الذاتى ، ومرحلة تكامل التقاليد ، إلى الحركة الديناميكية التى يمثلها الخلق والابداع الحضارى . أى لماذا ظهرت كل هذه المدنيات التى كشف عنها ؟ بعبارة أخرى . ما هو سبب نشأة المدنية ؟

ونوجز فيما يلى آراءه فى هذا الصدد :

(١) نظرية السمو أو التميز العنصرى :

بدأت اوروبا فى القرن الخامس بعد الميلاد ، محاولتها السيطرة على العالم وفرض حضارتها على الدنيا بأسرها . وبعد قرون قدر لها أن تنجح فى محاولتها الظالمة . وكان لبريطانيا الدور الأول فى استعمار العالم غير الأوروبى . ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت الشمس لا تغرب عن امبراطوريتها .

وشعر البريطانيون ، عند احتكاكهم بالشعوب غير الأوروبية المغلوبة على أمرها ، وتحت تأثير أفكار ومعتقدات ورثوها عن اليهود والعهد القديم ، أنهم أيضاً

---

(١) لمزيد من التفصيل : انظر المرجع السابق ذكره ، ص ٥١ وما بعدها .

شعب الله المختار، وأن بريطانيا هى " اسرائيل الجديدة " التى حملها الله رسالة الارتقاء بالجنس البشرى ، وأنهم يمثلون السلالات الممتازة من هذا الجنس . تلك السلالات التى وهبها الله سموا فى الصفات نسيج وحده ، وقدرات فريدة فى ذاتها ، فتعالوا على العالمين الذين لم يكونوا سوى مجموعة من الحشرات البشرية ، التى لايمكن أن تقارن بشعب الله المختار الجديد .

وخلال هذه الحقبة ، بدأ الفكر الأوروبى وفى وجدانه كل هذه المعتقدات ، يحاول أن يجد تفسيراً لظاهرة التفاوت الحضارى ، وخاصة التفوق الواضح للمجتمع الغربى والحضارة الغربية ، على المجتمعات والحضارات الإنسانية الأخرى . وكان من بين النظريات التى لاقت رواجاً وظهرت فى صياغات عديدة " النظرية العرقية أو العنصرية " Race theory [1] .

تذهب هذه النظرية إلى أن مولد أو نشأة الحضارة أو المدنية إنما يرجع إلى وجود صفات عرقية أو عنصرية روحية وبدنية Distinctive spirtual and physical موروثة، فى الجماعات التى نجحت فى الانتقال من حالة السكون إلى الحركة ، لكى تصنع حضارة . ويربط بعض أنصار هذه الفكرة بين السمات الطبيعية التى يتميز بها الإنسان، وما يتسم به من صفات ذهنية وروحية . ولكن أنصار هذه النظرية يختلفون عند تحديد السلالات البشرية التى تتسم بهذه الصفات الفريدة ، وهل هى الجنس الأبيض كله ، أو النورديين فقط ، أو الآريين فقط . على كل فإن الشئ المهم أن يكون الداعى لفكرة السمو العنصرى ، واحداً من الجماعة البشرية التى تتسم بهذه القدرات الفذة !!!

وخلاصة الصياغة الأوروبية لهذه " النظرية " أن الجنس الأبيض أو بعض سلالاته، إنما يحتكر صفات عنصرية فريدة ، هى التى مكنته وحده ، من تحقيق أغلب ما حققته الإنسانية جمعاء من منجزات حضارية !!!

---

(١) انظر على سبيل المثال

De Gobineau, Le Comte J. A. Essai sur L'inegalite des Races Humaines, Paris , 1853-5 . vol .I,P.293

وقد ظهرت هذه النظرية ، كرد فعل للصراع بين العامة والطبقة الارستقراطية فى فرنسا ، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وكذلك:

Toynbee , op. cit . , pp .307 - 249.

وهكذا عادت إلى الوجود فكرة " شعب الله المختار " التى سيطرت على العقلية اليهودية قروناً طويلة ، فى صورة نظرية يقال إنها علمية . وإن كانت فى صياغتها الحديثة تعكس الغرور والتعالى الذى عرف به بناة الامبراطورية البريطانية أو "اسرائيل الجديدة ".

وقد رفض أرنولد توينبي هذه النظرية وأنكر عليها أى سمة علمية. واستند فى رأيه على المبررات التالية :

١/١- من الثابت علمياً أنه ليس هناك خلاف يذكر فى التكوين الفسيولوجى بين الأجناس أو السلالات البشرية المختلفة .

٢/١-لا يمكن القول علمياً بأن هناك ارتباطا بين الصفات الفسيولوجية والبدنية للإنسان ، وما يتسم به من صفات نفسية وروحية .

٣/١- جميع الأجناس البشرية قد ساهمت فى بناء المدنية الإنسانية . وأنه يندر وجود مدنية لم يساهم فى بنائها أكثر من جنس واحد عدا الجنس الأسود .

٤/١- يمكن أن نفسر عدم قيام الجنس الأسود. فيالماضى، بدور يذكر فى بناء المدنية الإنسانية ، بالظروف غير الملائمة التى عاش أفراد هذا الجنس فى ظلها. ولكن ليس هناك ما يحول دون قيام هذا الجنس بدور فعال فى بناء المدنية الانسانية، وخاصة إذا ما أخذنا فى الاعتبار ، أن ما مضى من عمر المدنية الانسانية أى حوالى عشرة آلاف عام ، إنما يمثل نسبة تافهة . من العمر المتوقع of life expectation لحضارة الإنسان .

٥/١-أن الكثير من الجماعات البشرية ، التى تنتمى إلى الأجناس التى يدعى أنها وحدها قادرة على الخلق والتميز الحضارى فى بناءالمدنية الانسانية، لا زالت تعيش حتى الآن فى عصر بدائيتها ووحشيتها أو فى دهورها الحجرية . ومثال ذلك القبائل البدائية، التى تنتمى إلى الجنس الأبيض فى الهند وافغانستان وعلى جبال شمال غربى افريقيا. وهناك جماعات بدائية أخرى ، تنتمى إلى الأجناس الأخرى ، فى كثير

من المناطق فى العالم، مثل استراليا وشمال امريكا الشمالية وغابات الآمزون وفى الصين والهند الصينية، وفى الهند، وسومطرة... الخ[١] .

(٢) نظرية البيئة أو الحتم الجغرافى :

تجد هذه النظرية أساساً لها فى الفكر الهيلينى أو الاغريقى . فعندما بدأت الحضارة الهيلينية فى الانتشار إلى أرض جديدة قرب نهاية القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، لاحظ الاغريق ان هناك اختلافاً بيناً بينهم وبين جيرانهم . وقد أرجع الفكر الاغريقى هذا الاختلاف، إلى التباين فى ظروف البيئة الطبيعية ، وأثر ذلك على الطبيعة الإنسانية المتجانسة . وعلى الرغم من أن الحل الاغريقى للمشكلة ، قد سبق الحل الذى قدمه الفكر الغربى المعاصر بعدة قرون، إلا أنه كان أكثر انسانية وأقرب إلى الحل العلمى الرشيد . وقد حاول بعض المفكرين الاغريق ، اثبات صحة نظرية البيئة ، بإعطاء أمثلة تبين أثر الحياة فى وادى النيل الأدنى ، على الخصائص الطبيعية والمعنوية للمصريين وما أقاموه من مؤسسات حضارية [٢].

وعلى الرغم من خلو نظرية البيئة من الاعتراضات الاخلاقية التى ترد على نظرية السمو العنصرى ، فقد رفضها " توينبى " هى الأخرى كتفسير لأصل الحضارة .

يرى " توينبى " أنه من الضرورى لقبول نظرية البيئة كنظرية علمية أن توجد علاقة حتمية بين السبب والنتيجة . أى بين خصائص البيئة وأصل الحضارة ، فى أى حالة من حالات التحول من حالة السكون إلى حالة الحركة ، وفى ظل جميع الظروف . بعبارة أخرى، إذا كانت خصائص بيئية معينة قد أدت إلى نشأة حضارة معينة ، فلابد أن تنشأ حضارة أخرى، تتفق فى سماتها مع هذه الحضارة ، فى كل بيئة تتسم بنفس الخصائص . وقد انتهى توينبى من دراساته إلى عدم توافر مثل هذه العلاقة السببية فى جميع الحالات .

---

(١) أنظر Toynbee, A. op. cit, vol. 1, pp. 207 et seq.

(٢) انظر للمقارنة : عبدالرحمن ابن خلدون، سبق ذكره، ص ٦٠ وما بعدها . وفى هذا سبق ابن خلدون الفكر الغربى المعاصر بعدة قرون .

إذا كانت خصائص البيئة الطبيعية في وادى النيل الأدنى ، هى سبب نشأة مدنية مصر الفرعونية، فقد كان ضرورياً حتى نسلم بنظرية البيئة أو الحتم الجغرافى ، أن تنشأ حضارة مشابهة للحضارة المصرية، فى كل بيئة تتوافر فيها خصائص وادى النيل الأدنى . وهذا ما لم يحدث فى رأى " توينبى " .

حقا لقد ظهرت حضارة فذة فى وادى دجلة والفرات حيث تتوافر السمات الجوهرية لبيئة وادى النيل الأدنى ، وكانت هذه الحضارة مستقلة عن حضارة وادى النيل ، ولكن هناك أمثلة كثيرة لأودية أنهار تسود بها ظروف ، تشبه الظروف التى وجدت فى "وادى النيل الأدنى " ، خلال هذه الحقبة من تاريخ الانسانية ، ولكن لم تنشأ بها حضارات فى نفس وقت ظهور حضارة مصر القديمة . وقدم "توينبى" أمثلة على ذلك "وادى الأردن" . فرغم توافر خصائص بيئية تشبه خصائص "وادى دجلة والفرات"، وعلى الرغم من أن الأردن أقرب إلى مصر من الفرات ، لم تظهر حضارة مشابهة فى "وادى الأردن" . وكذلك تتوافر نفس خصائص بيئة النيل الاردنى فى أودية الأندلس ، ونهر كلورادو ونهر بيوجراندى فى جنوب غرب الولايات المتحدة الأمريكية ، ورغم ذلك لم تظهر بها حضارات معاصرة لحضارات مصر القديمة . وقد انتهى توينبى إلى أن حضارتى النيل والفرات تمثل استثناءات لا قاعدة عامة .

وقد حاول " توينبى" بيان صحة النتيجة التى وصل إليها بإعطاء أمثلة كثيرة لظهور الحضارة فى منطقة وعدم ظهورها فى مناطق كثيرة أخرى ، رغم توافر نفس الخصائص البيئية فى جميع الحالات .

فضلاً عما سبق ، فعلى الرغم من تشابه البيئة الانسانية فى أمريكا الشمالية وغرب أوروبا وروسيا ، فهناك اختلاف واضح فى ظروف البيئة الطبيعية بين هذه الدول .

(٣) نظرية التحدى والاستجابة :

نخلص مما سبق إلى أن توينبى يرفض قبول نظرية السمو العنصرى كما يرفض "نظرية البيئة " أو " الحتم الجغرافى " ، كتفسير لانطلاقة البشرية من حالة

السكون إلى حالة الحركة، ، خلال الفترة التى انقضت منذ ان بدأت الانسانية محاولة الفكاك من إسار البدائية إلى الحضارة . بعبارة أخرى لقد رفض توينبى هذه النظريات كتفسير أو كسبب لأصل المدنية.

وبعد أن فرغ من ذلك ، قدم لنا تفسيره لظاهرة الحضارة ، وأعنى بذلك "نظرية التحدى والاستجابة " " Challenge and Response " . تلك النظرية التى تجد أصل الحضارة فى نوع من رد الفعل Reaction أو الحوار Encounter بين البيئة والإنسان. وقد ذهب "توينبى " إلى أن هذه المحاورة بين الانسان والبيئة تمثل عقدة أو مؤامرة Plot التاريخ ، وإلى أن عملية الخلق ما هى إلا نتيجة هذا الحوار ، أى أن الخلق الحضارى ما هو إلا نتيجة رد فعل أو على حد قوله :

> " Creation is the out come of an encounter or-to re-translate the imaginaty myth into terminology of science, that genesis is an outcome of interaction "

وقد حاول "توينبى" معرفة إلى أى مدى يمكن أن تقبل نظرية التحدى والاستجابة كتفسيرلأصل الحضارة ، من خلال مراجعة أسباب نشأة الحضارات أو المدنيات التى كشف عنها دراسته لتاريخ الحضارة الإنسانية ، بقصد بيان إلى أى مدى يمكن أن تفسر هذه النظرية نشأة الحضارة أو المدنية .

ويمكن بيان الأفكار الجوهرية فى نظرية التحدى، من خلال عرض موجز لتفسير "توينبى" لنشأة حضارة مصر الفرعونية . يرى " توينبى" أن هذه الحضارة كانت وليدة استجابة بعض سكان منطقة شمال افريقيا ، لنوع من التحدى المادى ، الذى تمثل فى التغير الذى طرأ على الظروف المناخية ، التى كانت سائدة فى هذه المنطقة فى العصر الحجرى القديم .

فبعد نهاية العصر الجليدى The Ice age ، أخذت المنطقة العشبية الممتدة من شمال افريقيا وجزيرة العرب وحتى الهند من ناحية ، وجنوب أسبانيا من ناحية أخرى ، تتعرض لتغيرات خطيرة فى مناخها .وقد أعقب ذلك ظهور مدنيتين أو أكثر

فى المنطقة ، التى كان يعيش فيها من قبل بعض الجماعات البدائية فى العصر الحجرى القديم . وقد اعتقد "توينبى" ان نشأة هذه المدنيات إنما يشكل استجابة الانسان للتحدى المادى الذى فرضته البيئة، والذى تمثل فى تقلص الجليد نحو شمال اوروبا ، وما ترتب على ذلك من تحول رياح الاطلنطى المطيرة من حوض جنوب البحر الأبيض ، إلى مسارها الحالى وسط أوروبا[1]. وكان على سكان المناطق العشبية، الذين عاشوا على جمع القوت والصيد خلال أحقاب طويلة، ونتيجة لهذا التغير الخطير فى ظروف البيئة الطبيعية، الاختيار بين البدائل الآتية:

١-أما الهجرة إلى الشمال أو نحو الجنوب، لكى يعيشوا فى ظروف مناخية تشبه الظروف التى اعتادوها .

٢-البقاء حيث عاشوا من قبل ، يلتقطون ما قد تجود به عليهم البيئة التى أجدبت بعد أن عمها الجفاف .

٣-البقاء حيث عاشوا من قبل ، مع محاولة الخلاص من أصفاد الاعتماد المطلق على البيئة ، باستئناس الحيوان وزراعة الأرض .

وقد كان الفناء هو المصير المحتوم لتلك الجماعات البشرية التى عاشت على جمع القوت والصيد، والتى عجزت تماماً عن الاستجابة للتحدى الذى مثله تغير المناخ، بتغير موطنها أو أسلوب حياتها . أما الذين تمسكوا بموطنهم الأصلى ، ولكنهم غيروا أسلوب حياتهم وتحولوا من جامعى قوت وصيادين إلى رعاة فقد أصبحوا رعاة المنطقة. أما الذين اختاروا تغيير موطنهم من أجل الابقاء على نمط الحياة التى اعتادوه ، واتجهوا نحو الجنوب، رغبة فى الابقاء على نمط حياتهم ، فكان عليهم مواجهة تأثير الظروف المناخية الرتيبة فى المناطق الحارة . أما الجماعات البشرية التى اتجهت إلى الشمال ، فقابلت تحدياً قاسياً أيقظ فيهم قدرات خلاقة . أما الجماعات البشرية التى قابلت التحدى ، بأن غيرت موطنها الاصلى واسلوب حياتها ، فقد كانت استجابتهم المزدوجة النادرة هى التصرف "الديناميكى" **Dynamic act** او العمل

1- Toynbee,A.op.cit.pp.249et seq, especially, pp.302-315 and the Uniformity Theory and the Deffusion Theory, annex to 1. C(iii) (b), pp.424-440, and Vol.1,pp 128-129, and 136-146.

المبدع ، الذى خلق حضارتين رائعتين هما المصرية والسومارية ، وكان التغير الذى طرأ على أسلوب حياة هذه الجماعات الخلاقة ، هو التحول من جمع القوت ، إلى زراعة وادى النهر الذى كانت تغطيه المستنقعات واحراش الغابات والبردى ، وهى بيئة لم تكن قد وطأتها قدم انسان من قبل . وكانوا فيما اقدموا عليه افذاذاً مبدعين . إذ جعلوا من الأرض الموحشة التى استعصت على الإنسان فردوساً على اخصب ارض عرفتها الدنيا ، وافضل مكان لحياة الانسان [١][٢] .

وهكذا خلقت حضارة مصر وأرض مصر ، من خلال الاستجابة للتحدى المادى الذى فرضته الطبيعة ، على جماعات خلاقة من جامعى القوت والصيادين . وأن مصر التى عرفها اليوم هى " هبة الإنسان " بقدر ما هى " هبة النيل " .

وإذا كانت فكرة التحدى والاستجابة تفسر لنا نشأة المدنية المصرية ومدنيات غيرها مثل مدنية سومر ، وهى مدنيات منبتة الصلة بغيرها من المدنيات ، فإن نفس الفكرة تصلح لتفسير نشأة المدنية فى حالة المدنيات التى على صلة بمدنيات سبقتها. وفى هذه الحالة الأخيرة قد يكون مصدر التحدى البيئة الطبيعية، كما قد يكون مصدر التحدى هو البيئة الإنسانية[٣]. ونشير فيما يلى فى شئ من التفصيل إلى نشأة المدنية كاستجابة لتحد فرضته البيئة الإنسانية .

يبدأ التحدى الإنسانى فى الظهور ، عندما تبدأ المدنية تفقد قدرتها على الخلق. تلك القدرة التى خلقت خلال فترة النمو، فى قلوب أفراد المجتمع وأناس خارج حدوده،

(١) لمزيد من التفصيل عن البيئة الحيوانية والنباتية فى مصر فى عصور ما قبل التاريخ انظر مثلاً :

Anderson, Jeology of Egypt; Newberry P. E. Egypt as a field for Antropological Research, British Association for the Advanecment of Science , Report of the 91 meeting, Liverpool, 1923; Leyons, H. O. Physiograghy of the River Nile and its Basin, Cairo. 1906, National Prenting Department; and Toynbee op. cit., pp 302-315.

(٢) الراجح ان الهجرة كانت أولاً نحو مناطق مصادر المياه الاكثر ملاءمة من الناحية الطبيعية للاستيطان . وكانت شواطئ بحيرة الفيوم هى انسب هذه الأماكن، كما سنرى فيما بعد .

(٣) وجد " توينبى " ان التحدى فى حالة المدنيات المستقلة كان مادياً ، أما فى حالة المدنيات المرتبطة بغيرها من المدنيات ، فقد يكون مادياً أو انسانياً .

رغبة فى الولاء والانتماء إلى هذه المدنية . وعندما تفقد المدنية قدرتها على الابداع والخلق ، فعليها أن تدفع ثمن ذلك أو تتحمل عقاب فقدانها لحيويتها . وهذا العقاب هو انقسام أو تفكك Disintegration مجتمع هذه المدنية إلى أقلية مسيطرةMinority Dominant من ناحية ، تحاول جاهدة أن تجد فى نظام يقوم على القوة والبطش Regime of power ، بديلاً عن القيادة أو الزعامة Leadership ، التى ضاعت . ومن ناحية أخرى إلى "بروليتاريا داخلية " وأخرى خارجية ، تستجيب لهذا التحدى بأن تحس وتعى Becoming consious ، بأن لها روحاً ذاتية ، تعمل عقلها وفكرها لانقاذها وابقائها حية [١] .

وتخلق إرادة القهر فى "البروليتاريا " إرادة أو "رغبة الاعتزال" " Will to secede " . ويستمر النزاع بين الإرادتين : إرادة القاهرين وإرادة المقهورين ، فى حين تقترب المدنية من لحظة سقوطها. وعندما تقدم على لحظة موتها، تحرر البروليتاريا نفسها من مجتمعها القديم، الذى تحول أولاً إلى سجن وأخيراً إلى مدينة خراب ودمار City of distruction .

ومن خلال متابعة الصراع بين "البروليتاريا" والأقلية المسيطرة منذ بدايته حتى نهايته، يمكن أن نتعرف على إحدى أنواع ذلك الحوار أو المحاورة الروحية الدرامية Dramatic spiritual encounter ، التى تشكل عملية الخلق، من خلال نقل الوجود من ركود أو سكون الخريف، عبر آلام الشتاء، إلى حركة أو ديناميكية الربيع . فاعتزال البروليتاريا هو الفعل الديناميكى الذى يمثل الاستجابة للتحدى . ومن خلال هذا الاعتزال يتم الانتقال من "حالة السكون،" إلى "حالة الحركة". وهكذا تبدأ الإنسانية مسيرتها الحضارية مرة أخرى. ومن خلال انفصال "البروليتاريا" عن الأقلية المسيطرة ، تولد مدنية فتية من أخرى دخلت فى عداد التاريخ .

(١) يستعمل توينبى اصطلاح البروليتاريا Proletaria بمفهوم يختلف عن المفهوم الماركسى فهو يعرفها بأنها:

Any Social element or group which " is in " but not "of" any given society at any given stage of such society's history ... (s) it is an element or group in a community which has no stage in the community which has no stage in the community beyond the fact of its physical existance, Toynbee, op. cit., pp.41-63, especially F.N. 3, p.41.

ويقدم "توينبى" مثلا أخر لتحد مصدره البيئة الإنسانية، من دراسته لنشأة الحضارة المصرية القديمة . إذ يرى أن التحدى المادى الذى تمثل فى تغيير الظروف المناخية وانتشار الأحوال الصحراوية، قد اقترن بتحد إنسانى أو معنوى .

وقد تمثل هذا التحدى المعنوى ، فى رغبة الرواد الأوائل من بناة الحضارة ، فى التحرر من أصفاد الماضى ، المتمثلة فى الاعتماد المطلق على ما تجود به الطبيعة، تلك الاصفاد التى فرضت على أسلافهم نوعاً من الحياة الراكدة الساكنة .

رأينا أن التحدى قد يكون مادياً أو إنسانياً ، وذكرنا مثلا لكل منهما . ويمكن أن نذكر القارئ بنوع آخر من التحدى المعنوى، الذى يمكن أن تخلق الحضارة خلال عملية الاستجابة له. ويقصد بهذا التحدى الروحى الذى مثلته الرسالة المباركة التى حملها إلى البشرية السيد المسيح عليه السلام ، والتى من خلال استجابة المغلوبين على أمرهم فى المجتمع الهيلينى، لهذه الرسالة ولدت الكنسية أو الديانة العالمية، بعد أن اختفى المجتمع الهيلينى وراء باب الفناء. كما يمكن أن نمثل التحدى المعنوى باستجابة الجزيرة العربية ومجتمعها الجاهلى، لدعوة النبى الكريم محمد بن عبد الله عليه صلوات الله وسلامه .

الفصل الثانى

فجر الحضارة : مصر فى عصور ما قبل التاريخ

الفصل الثانى

فجر الحضارة : مصر فى عصور ما قبل التاريخ

يهدف هذا الفصل أساسا إلى عرض الملامح الأساسية للحياة الاقتصادية فى مصر خلال عصور ما قبل التاريخ . والفترة التى تعنينا من هذه الأحقاب الطويلة، هى المرحلة الحضارية التى تبدأ بظهور الإنسان صانع الأدوات فى مصر، حوالى الألف الثانى عشر أو العاشر قبل الميلاد [1] . ونقصد " بالإنسان صانع الأدوات "، تلك السلالات البشرية التى عرفت كيف تستخدم عقلها ويديها فى صناعة بعض الأدوات ، التى مكنتها من الدفاع عن ذاتها وساعدتها على استغلال الطبيعة فى تحقيق أغراضها. وتنتهى هذه المرحلة ، بالنسبة لمصر ، باكتشاف الكتابة على أرضها حوالى عام ٤٢٤١ أو عام ٥٧٠١ قبل ميلاد السيد المسيح [2] .

وينقسم هذا الفصل إلى المباحث الآتية :

المبحث الأول : حضارات العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى المتوسط[3].

المبحث الثانى : حضارات العصر الحجرى الحديث .

المبحث الثالث : حضارة عصر ما قبل الأسرات .

---

(١) هذه مسألة محل خلاف ، إذ يشير البعض إلى احتمال ظهور الإنسان صانع الأدوات فى مصر قبل الزمن الجيولوجى الرابع، أى منذ حوالى مائة ألف عام ، اعتمادا على وجود بعض الأدوات الحجرية التى ترجع إلى هذا الزمن ، والتى يعتقد أنها من صنع الإنسان . وتعرف هذه بالأدوات الأيوليتية ، أى فجر الأدوات الحجرية . أنظر ، مصطفى عامر ، حضارات عصر ما قبل التاريخ ، تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعونى ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، د . ت . ص ٣٨ : ٤٠ وكذلك :
Redman , Charles I . The Rise of Civilization , From Early Farmers to Urban Society in the Ancient Near East , Freeman and Co., San Francisco 1978, pp.46-49, and Heicht , Herman , History of the World Art , op. cit.,p.7-25.

(٢) هناك خلاف حول تاريخ نشأة الكتابة وبداية تدوين التاريخ فى مصر . أنظر فى ذلك عبد الحميد سماحة ، الفلك عند المصريين القدماء ، المرجع السابق ص ٥٧٦-٥٧٧ ، أحمد فخرى ، مصر ومكانتها فى العالم القديم ، المرجع السابق ذكره ص ٦٠١ ، ومصطفى عامر ، المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٣) يشك الكثيرون فى أهمية المرحلة الحضارية التى يمثلها العصر الحجرى المتوسط فى مصر وبقية بلاد الشرق الأدنى . وعلى أى حال فإن هذه المرحلة قصيرة نسبيا وتمثل المرحلة الحضارية ما بين العصرين الحجرى القديم والحديث .

المبحث الأول
حضارات العصر الحجرى القديم
والعصر الحجرى المتوسط

تمهيد :

يكاد يكون مستحيلا ، على الأقل الآن وربما إلى الأبد ، أن نحدد على سبيل اليقين تاريخ ظهور الإنسان صانع الأدوات على أرض مصر . وعلى أى حال ، يرى بعض الباحثين أن أقدم الأدوات التى صنعها الإنسان فى مصر ، أو ما يعرف بالأدوات " الأيوليتية " "Eoliths" أى فجر الأدوات الحجرية . ترجع إلى " عصر البلايستوسين" Pleistocene [١] . كما يعتقد البعض أن " الحضارة السبيلية " [٢] ، التى تمثل المراحل الأخيرة من العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى المتوسط ، قد اختفت تماما تحت الطمى فى قاع وادى النيل ، حوالى الألف الثامن قبل الميلاد ، الأمر الذى يدل على أن تاريخ ظهور الإنسان صانع الأدوات فى مصر ، لا يقل عن عدة آلاف من السنين قبل ميلاد السيد المسيح .

وقد تواضع الباحثون على تقسيم المرحلة الحضارية ، التى تبدأ بظهور الإنسان صانع الأدوات فى مصر ، وتنتهى باكتشافها الكتابة وبداية العصور التاريخية، حوالى ٤٢٤١ قبل الميلاد ، إلى عدة عصور . واعتمدوا فى هذا التقسيم أساسا على التطور الذى طرأ على الأدوات الحجرية ، منذ أن صنعها الإنسان لأول مرة . وتتمثل هذه العصور فيما يلى :

(١) العصر الحجرى القديم Paleolthic or Old Stone Age :

وتميز هذا العصر بظهور الأدوات الحجرية غير المصقولة ويقسم بدوره إلى :

(١) أو العصر الجليدى فى أوربا ، وهو القسم الأول من الرباعى Quarternary الذى يمثل العصر الرئيسى الثانى من الزمن الجيولوجى الثالث أو زمن الحياة الحديثة . أنظر فى ذلك : محمد إبراهيم بكر ، صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديم ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٨٧ ص ٢٩٩ -٣٠١ .

(٢) نسبة إلى قرية السبيل قرب كوم أمبو ، حيث وجدت أثار تنتمى إلى هذه المرحلة الحضارية وكذلك :
Gardiner, op. cit. pp.382-399, Petrie, W.M.F. and Quibell, J.E. Naqiada and Ballas, London, 1896. and de Moagan J., Recherches sur les origines de l'Egypte,2 vols., Paris 1896-7.

(٣) مشتقة من كلمة. Lithic الاغريقية، وتعنى حجر. وقد اقترح هذا الاسم الباحث الانجليزى جون لوبوك Lubockعام ١٨٦٥.

١/١ – حضارة العصر الحجرى القديم الأسفل :

وهى أقدم حضارات العصر الحجرى القديم وتعرف أحيانا " بحضارة الفأس اليدوية" " Hand axe " ، نظرا لأن هذه الفأس كانت أهم الأدوات الحجرية وأكثرها انتشارا . وقد تميز هذا العصر بالدفء وعرف الإنسان خلاله كيف يستخدم النار ويسيطر عليها . ويمثل هذا الاكتشاف الثورة الحضارية الأولى للإنسان .

٢/١ – حضارة العصر الحجرى القديم الأوسط :

وتتميز بتنوع الأدوات الحجرية وارتقائها. وخلال هذا بدأت درجة الحرارة فى الانخفاض واشتد البرد ، كما وجدت بعض آثار لمواقد ومقابر ، مما يدل على أن الإنسان قد عرف عادة دفن موتاه فى مرحلة مبكرة من تاريخه الحضارى .

٣/١ – حضارة العصر الحجرى القديم الأعلى :

وهى أحدث حضارات العصر الحجرى القديم ، وخلالها ظهرت الصناعات الحجرية المتعددة وارتقت ، كما كثرت المواقد ، والمقابر ، ووصل الفن البدائى ذروته[١] . وخلال هذه المرحلة حدث تحول خطير فى المناخ فى مصر وشمال أفريقيا: أخذ المطر يقل ويزداد الجفاف وتنتشر الأحوال الصحراوية ، الأمر الذى كان له أبعد الأثر فى تاريخ الإنسان ونشاطه الحضارى ، كما سيتضح لنا فيما بعد . هذا ويقسم الباحثون كل مرحلة من المراحل الحضارية السابقة إلى أقسام فرعية ، وذلك اعتمادا على تطور طريقة صنع الأدوات والأسلحة ونوع الحيوانات السائدة .

فضلا عما سبق ، فقد شهد العصر الحجرى القديم تطورات هامة فى السلالات والأجناس البشرية . فقد تميزت المرحلة الأولى والثانية بوجود أجناس بدائية مثل "إنسان نياندرتال " Neandertral " ، فى حين ظهرت فى المرحلة الأخيرة الأجناس البشرية المفكرة " Homo Sapiens " التى انحدرت منها فى نهاية الأمر السلالات البشرية المعاصرة [٢].

---

(١) عبد العزيز صالح ، الفن المصرى القديم ، المرجع السابق ، ص ٢٦٦-٢٧٠ .

(٢) أنظر الملحق الخاص بهذا المبحث .

وتتمثل حضارة العصر الحجرى القديم الأسفل فى " الحضارة الشيلية " "Chellian" و"الحضارة الأشولية" "Acheulian" التى وجدت فى فرنسا . كما تمثل " الحضارة الليفلوازية" levalloisean حضارة العصر الحجرى القديم الأوسط [1] . أما حضارة العصر الحجرى القديم الأعلى فى مصر ، فتتمثل فى "حضارة الخارجة" بالصحراء الغربية "والحضارة السبيلية" فى صعيد مصر وأثارها فى مناطق عديدة قرب القاهرة .

وقد كانت حضارة مصر خلال المراحل المبكرة من هذا العصر ، وخاصة خلال العصر الحجرى القديم الأسفل ، جزء من إقليم حضارى كبير . إذ لم يكن هناك ما يميز الأدوات الحجرية المصرية خلال هذه المرحلة ، عن غيرها من الأدوات التى وجدت فى مناطق أخرى من العالم . ولكن خلال العصر الحجرى القديم المتوسط ، بدأت حضارة مصر تتسم بطابع خاص بها . إذ أخذت تختلف عن غيرها فى طريقة صنع الأسلحة والأدوات الحجرية . وفى نهاية هذه المرحلة وبداية العصر الحجرى القديم الأعلى ، بدأ الطابع المحلى أو " الشخصية المصرية " تظهر بوضوح ، الأمر الذى أدى فى نهاية الأمر إلى ظهور حضارة مصرية متميزة فى الخارجة والسبيل [2] .

وفى نهاية العصر الحجرى القديم أخذ نهر النيل ما يقرب من شكله الحالى [3].

ويرى البعض ، أن إنسان العصر الحجرى القديم ، قد عرف " لغة تخاطب " ، وقد ساعد ذلك على تقدمه حضارياً ، إذ مكن الأباء من نقل المعلومات والمعرفة إلى أولادهم ، كما مكنت لغة التخاطب من مناقشة الأفكار ونشر الخبرة .

---

(١) اشتقت أسماء الحضارة من أسماء الأماكن التى وجدت بها آثارها مثل Meaux on the Marne and St. Acheul, Some, بالقرب من باريس، أما الحضارة السبيلية فنسبة إلى قرية السبيل بالقرب من كوم امبو .

(٢) لمزيد من التفصيل ، أنظر ، مصطفى عامر ، المرجع السابق ، ص ٤٠ وما بعدها.

(٣) تشير الدراسات الحديثة بأن نهر النيل بدأ يكون بمجراه الحالى كما بدأ تكامل تكوين دلتاه فى فجر المايوسين Mioclene، وأنه اتخذ ما يقرب من شكله الحالى فى عصر البلايستوستين Pleistocene ، أى أوائل الزمن الجيولوجى الرابع، أنظر فى تفصيل ذلك ، سليمان حزين، البيئة والإنسان فى وادى النيل الأدنى، تاريخ الحضارة المصرية، سبق ذكره، ص٥-٣٥وكذلك: Gardiner , op. cit., p.385.

(٢) العصر الحجرى المتوسط Mesolethic or Middle Stone Age :

يطلق اسم حضارة العصر الحجرى المتوسط ، على المرحلة الحضارية بين العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث. وتتفق هذه المرحلة مع انتشار الدفء، فى أوروبا وظهور السلالات البشرية ذات الرؤوس العريضة ، كما تتميز بنشاط إنسانى كبير قرب المناطق الساحلية ، واهتمام الإنسان بصيد الأسماك وجمع الأصداف البحرية على نطاق واسع . كما تنوعت الأدوات الحجرية وارتقت بشكل ملحوظ .

وقد وجدت آثار تنتمى إلى هذه المرحلة فى فرنسا وإنجلترا. أما فى مصر فتتمثل حضارة هذا العصر فى "حضارة الصناعة الخارجة " فى الصحراء الغربية ، "والحضارة السبيلية " المتطورة فى الفيوم ، " وصناعة حلوان " جنوب القاهرة . وقد تميزت آثار هذا العصر فى مصر بظهور الآلات القزمية ذات الأشكال الهندسية ، والأنصال ورؤوس السهام الصغيرة .

والمعتقد أن المرحلة الحضارية التى يمثلها العصر الحجرى المتوسط كانت قصيرة نسبياً ، ولم يكن لها أهمية تذكر فى مصر وبقية بلاد الشرق الأدنى ، وإن كانت قد شهدت تدعيم الشخصية الحضارية المصرية ، التى بدأ ظهورها فى أواخر المرحلة الحضارية التى يمثلها العصر الحجرى القديم [١].

(٣) العصر الحجرى الحديث Neolithic or New Stone age :

تمثل هذه المرحلة نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الإنسانية جمعاء ، تمثلت فى الثورة الحضارية التى تجسدت فى اكتشاف الزراعة واستئناس وتربية الحيوان وظهور الأدوات الحجرية المصقولة ، وارتقائها وتنوعها بدرجة لم يسبق لها مثيل . ومع الزراعة بدأ الاستقرار وتزايد تركز البشر ، وأخذ المسكن والقرية فى الظهور ، الأمر الذى أدى فى نهاية الأمر إلى وجود الوحدات السياسية الأولى فى تاريخ الإنسانية [٢] .

---

(١)وجدت آثار هذه المرحلة فى زاوية وادى الشيخ شرق مغاغة . أنظر : سيد توفيق وسيد أحمد الناصرى ، معالم تاريخ وحضارة مصر فى اقدم العصور حتى الفتح العربى، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ١٠ .

(٢) Redman . op. cit. , pp.1 et. seq. and Heicht, op. cit. pp. 23-25

وترجع آثار هذه المرحلة الحضارية فى مصر إلى حوالى الألف الثانى عشر أو العاشر قبل الميلاد، وخلالها حققت مصر إنجازات حضارية فذة ، هى التى مهدت الطريق لظهور المدنية، ثم بناء ذلك الصرح الحضارى الفريد فى ذاته ، خلال عصر ما قبل الأسرات والعصور الفرعونية [١].

وتوجد آثار هذا العصر فى أماكن كثيرة فى مصر ، كما سنرى فى حينه .

الأحوال الاقتصادية فى العصرين الحجرى القديم والحجرى المتوسط:

والآن نعود إلى الموضوع الأساسى لهذا المبحث ، وهو محاولة إعطاء فكرة تقريبية عن الأحوال الاقتصادية فى مصر خلال هذه الحقبة الطويلة من تاريخها الحضارى .

(أولاً) السمات العامة لهذه العصور :

تميزت هذه العصور فى مصر ، بوجود ما يعرف " بالعصر المطير " الذى بدأ فى أواخر " عصر البلايوسين " . وقد تخللت هذه العصور أدوار أو فترات اتسمت بقلة المطر والجفاف . وقد أدت كثرة المطر إلى اشتداد جريان الماء ونحت الصخور وجرف الرواسب ، من مرتفعات النوبة وشرق السودان ومن بعض مناطق إريتريا والحبشة . وقد ساعدت عملية الارساب هذه ، على ردم المستنقعات القديمة فى مصر، وتكملة تكوين الدلتا فى شمال مصر وقاع نهر النيل فى مصر الوسطى والعليا . وقد ساعد هذا بدوره على تهيئة البيئة لتقوم مصر بتجربتها الحضارية الفريدة فى عصور لاحقة [٢] .

وقد أدت وفرة المطر إلى وجود ثروة نباتية وحيوانية فى مصر وبقية شمال أفريقيا، الأمر الذى مكن من وجود تجمعات بشرية، فى أجزاء متفرقة من هذه المنطقة. وقد عاش خلال العصور المبكرة من هذه المرحلة، أجناس وسلالات بشرية بدائية كانت أقرب إلى الوحشية منها إلى الإنسانية، تعيش فى ظل ظروف قاسية

---

(١) اعتماداً على الحفائر الحديثة التى قامت بها احدى بعثات الجيولوجيا بقيادة ومندروف (الجامعة الأمريكية) وجروبر (جامعة كولومبيا بالمانيا) ، فى بعض المواقع النيولوتية بمنطقة الكوتانية باسوان ومنطقة الجلف الكبير بالصحراء الغربية. انظر ألدريد ، سيريل، الحضارة المصرية ، ترجمة مختار السويفى، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ١٠-١١.

(٢) سليم حزين ، المرجع السابق ذكره ، ص ٥ – ٣٥ .

تعتمد اعتماداً يكاد يكون مطلقاً، على التقاط ما تجود به الطبيعة . أما المرحلة المتأخرة من هذه العصور ، فقد شهدت ظهور سلالات وأجناس بشرية أكثر تطوراً ، يرجح البعض انحدار السلالات والأجناس المعاصرة منها .

ويبدو أن حضارة مصر خلال المراحل المبكرة كانت جزءاً من إقليم حضارى كبير ، ولم يكن هناك ما يميز حضارتها خلال هذه المرحلة ، عن غيرها من الحضارات التى وجدت فى عدة أماكن فى الشرق الأدنى وأوروبا . أما المراحل المتأخرة من هذه المرحلة ، فقد شهدت ظهور حضارة مصرية ذات صبغة إقليمية متميزة، كما سبق أن ذكرنا .

(ثانياً) الإنسان ونمط حياته :

يبدو أن الإنسان الأول قد عاش ، خلال العصر المطير ، فى شكل جماعات متفرقة فى كثير من المناطق العشبية ، فى الصحراء الغربية والشرقية . وقد استدل على وجوده فى هذه المناطق ، مما تركه من أدوات وأسلحة ومن بعض مظاهر الفن البدائى التى تركها على الصخور ، فى عدة أماكن من هذه المنطقة ، مثل جبل العوينات والواحات الخارجة فى الصحراء الغربية ، وجبال البحر الأحمر ، والشواطئ البحرية القديمة فى منطقة وادى النيل وفى منطقة الكوتانية بأسوان ومنطقة الجلف الكبير بالصحراء الغربية [١].

ولكن عند نهاية العصر المطير ، وما تبع ذلك من انتشار الجفاف والأحوال الصحراوية فى إقليم شمال أفريقيا ، أخذت الثروة النباتية والحيوانية فى الاضمحلال ، وضاقت سبل العيش . وقد أدى هذا التحول الخطير فى المناخ والبيئة ، إلى هجرة الإنسان والحيوان فى أواخر العصر الحجرى القديم ، إلى وادى النيل ودلتاه والبحيرات الداخلية وعيون الماء فى الواحات[٢]، حتى يكون قريباً من موارد المياه. ومع استمرار هبوط مستوى النهر والبحيرات الداخلية فى مصر، أخذ الإنسان يهبط

(١) ألدريد ، سريل ، المرجع السابق ، ص ١٠-١١.

(٢) وإلى مناطق أخرى فى أوروبا وأواسط أفريقيا فى رأى أرنولد توينبى ، المرجع السابق ، وأيضاً : Heicht,op.cit., p.9

تدريجياً من شاطئ إلى آخر، حتى يكون قريباً من المياه. وخلال هذه المرحلة بدأ يظهر فى وضوح تركز الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية فى قاع وادى النهر وعلى جوانبه، وانحصر السكان فى إقليم ضيق على طول مجرى النهر، أو حول البحيرات القديمة، مثل كوم أمبو والفيوم والخارجة، وبالقرب من القاهرة.

وقد أدى انتشار الأحوال الصحراوية على جانبى وادى النهر ، وتركز الحياة فى هذا الوادى ، إلى بداية العزلة النسبية ، التى فرضتها على مصر العوامل الطبيعية، خلال أحقاب طويلة من تاريخها . فقد حدت البحار والصحراء من صلة مصر بالعالم الخارجى ، ولكن صلات مصر بالمناطق الصحراوية حيث سمحت الطبيعة بوجود تجمعات بشرية، وكذلك ببعض أقاليم الشرق الأدنى وأفريقيا ، لم تنعدم حتى بعد أن ساد الجفاف والأحوال الصحراوية . وقد ساعد على بقاء هذه الصلات ، أن عصر الجفاف قد أعقبه ما يعرف بالدور المطير للعصر الحجرى الحديث [١] .

وقد أدت العزلة وضعف المؤثرات الخارجية وتركز الحياة فى وادى النهر ، إلى ظهور الطابع الإقليمى أو " الشخصية المصرية " فى إنجازات مصر الحضارية ، وخاصة فى العصر الحجرى القديم الأعلى كما سبق أن ذكرنا . كذلك أدت هذه الظروف الداخلية إلى زيادة التقارب والتعاون بين التجمعات البشرية، الأمر الذى ساعد فيما بعد على تحقيق وحدة مصر السياسية ، كما هيأت هذه الظروف الأرض الملائمة للثورة الحضارية الفذة التى شهدتها مصر فى المراحل الحضارية التالية .

(ثالثاً) مظاهر النشاط الاقتصادى :

سبق القول بأن الأجناس والسلالات البشرية ، التى عاشت خلال المراحل الأولى من العصر الحجرى القديم ، كانت بدائية جداً . ثم أعقب ذلك ظهور أجناس وسلالات أكثر تطوراً ورقياً فى المرحلة الحضارية التالية . وقد أطلق العالم الأمريكى " مورجن " **Morgan** اصطلاح عصر الوحشية **Savegery** ، على المرحلة الحضارية التى يسميها علماء الجيولوجيا بالعصر الحجرى القديم [٢] .

---

(١) سليمان حزين ، المرجع السابق ذكره ، ص ١٥ ، ٣٠ .

(٢) Morgan , L., Ancient History , 1977 and Heicht, op.cit. , p.7-20.

وقد عاش الإنسان فى بداية الأمر تحت رحمة ظروف قاسية وفى خوف وقلق، يعتمد اعتماداً يكاد يكون مطلقاً ، على التقاط ما تجود به الطبيعة . ويبدو أن الإنسانية قد بدأت مسيرتها عبر الزمان ، تحدوها غاية أساسية هى حفظ النوع من أجل البقاء. وكانت هذه الغاية هى القوة الأساسية التى شكلت السلوك الإنسانى وحددت أهدافه .

لهذا كانت رغبة الإنسان فى إشباع حاجاته الأولية أو الفسيولوجية ، مثل الغذاء والملبس والمأوى ، والتى لابد من إشباعها حتى يضمن بقاءه ، هى المحرك الأساسى للنشاط الاقتصادى خلال هذه الحقبة من التاريخ . كما كانت هذه الرغبة سبباً فى تركز نشاطه الاقتصادى فى توفير الغذاء والملبس وكذلك المأوى إذا لزم الأمر ، معتمداً فى بداية الأمر على قواه الطبيعية فى جمع الثمار والنباتات وصيد الحيوان . وقد سهل عليه تحقيق هذه الغاية ، إن الظروف الطبيعية والمناخية مكنت من وجود ثروات نباتية وحيوانية ، كافية لوجود حياة إنسانية .

وقد تمثلت الثروة النباتية فى الكثير من الأشجار والنباتات العشبية ، أما الثروة الحيوانية فتمثلت فى الحيوانات العشبية مثل الغزلان والظراف والأغنام الوحشية ، كما وجدت بعض الحيوانات الكاسرة ، التى كثيراً ما كانت تنازع الإنسان فى البقاء.

ثم عرف الإنسان ، بوحى من إدراكه الفطرى أو تجاربه ، كيف يستخدم هبات الطبيعة ، كأغصان وفروع الشجر وقطع الحجر ، فى إشباع حاجاته . وربما استخدم هذه الأدوات فى بداية الأمر ، كما وجدها فى الطبيعة . ولابد أنه عرف بالإدراك العقلى أو من خلال التجربة ، أن اعتماده على هذه الأدوات يوفر من وقته وجهده ويزيد من كفاءته فى تحقيق أغراضه .

رابعاً : تطور الحاجات ووسائل إشباعها بظهور صناعة الأدوات الحجرية:

وفى لحظة حاسمة ، لا نعرف موقعها فى سجل الزمن ، بدأ الإنسان يستخدم عقله ويديه فى تشكيل مواد الطبيعة، ليصنع الشكل الأول لأدوات الإنتاج من الخشب ثم

من الحجر. وهكذا ولدت صناعة الأدوات الحجرية ، لتؤرخ بداية استعانة الإنسان برأس المال المنتج فى نشاطه الاقتصادى .

وكانت أهم الأدوات الحجرية التى صنعها الإنسان وكثر انتشارها هى "الفأس اليدوية أو الحجرية "، الأمر الذى دفع البعض إلى تسمية حضارة العصر الحجرى القديم الأسفل "بحضارة الفأس اليدوية " كما ذكرنا آنفاً .

ومع الزمن أخذ الإنسان يرتقى حضارياً. فتنوعت وتكاثرت حاجاته ، كما تنوعت وارتقت الوسائل التى اعتمد عليها فى إشباع هذه الحاجات . وقد عرف ، ربما بالصدفة أو التجربة ، كيف يستخدم النار فى تحقيق بعض أغراضه ، واستعان بالنار فى طهى طعامه ، الأمر الذى أدى إلى تحول تدريجى فى تكوينه الجسمانى واقترابه تدريجياً من الصورة الإنسانية . إذ ترتب على عادة أكل بعض طعامه مطهياً إلى ضمور فكه وصغر فمه وأسنانه تدريجياً . كما بدأ يستخدم النار فى التدفئة ، وخاصة عندما بدأت درجة الحرارة فى الانخفاض واشتدت البرودة خلال هذه المرحلة . كما ساعدته النار فى تبديد الظلام، فاخذ يتحرر من الخوف الذى أفزعه أحقاباً طويلة ، كما استخدم النار ليخيف الحيوانات ، كما احتمى بها منها وهو يطاردها . وهكذا بدأ الإنسان لأول مرة فى حياته ينعم بقدر من الراحة والطمأنينة. ثم عرف المواقد فى العصر القديم الأوسط والتى انتشرت وكثر استعمالها فى العصر القديم الأعلى. وقد شهدت العصور المتأخرة من المرحلة الحجرية القديمة ، تطوراً من نوع آخر يقطع بارتقائه حضارياً ويتحسن ظروف معاشه. إذ توجد بعض الشواهد التى توحى بزيادة إحساسه بالفن والجمال والقيم الجمالية [1] ، كماعرف عادة دفن موتاه ، على الأقل فى المرحلة الوسطى من العصر الحجرى القديم .

وكانت القبور توجد حيث تعيش الجماعة . وفى العصر الحجرى القديم الأعلى، بدأت عادة وضع الجثث منثنية فى القبر فى شكل القرفصاء ، وكأن الإنسان ينام نوماً

(١) ثروت عكاشة، تاريخ الفن، الفن المصرى القديم، الجزء الأول، العمارة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٠، ص ١١٤-١١٥.
Badawy, Architecture in Ancient Egypt and the Near East, the M. I. T. Press, 1966,pp- 10-15 and Heicht, op. cit., pp. 7-33 and 125-127.

وكانت القبور توجد حيث تعيش الجماعة . وفى العصر الحجرى القديم الأعلى ، بدأت عادة وضع الجثث منثنية فى القبر فى شكل القرفصاء ، وكأن الإنسان ينام نوماً طبيعياً. وكانت توضع مع الموتى عقود وأساور وأسلحة مختلفة وبعض قطع من لحوم الحيوانات، وهذا ما يدل دلالة واضحة على حب الأحياء للموتى ، كما يوحى بأن إنسان هذه العصور، كان قد بدأ يعتقد، أو على الأقل يفكر ، فى احتمال البعث إلى الحياة مرة أخرى بعد الموت[1].

وقد صاحب تطور حاجات الإنسان ، وربما ساعد عليه ، تطور وتنوع مظاهر نشاطه الاقتصادى، وتطور وارتقاء وتنوع الأدوات التى اعتمد عليها فى استغلال الطبيعة لإشباع حاجاته، وفى الدفاع عن نفسه .

لقد سبق القول إن " الإنسان الأول " ، قد اعتمد فى عصوره الأولى على التقاط ما تجود به الطبيعة، فى إشباع حاجاته. ولكن مع ارتقائه حضارياً وتقدم أدواته وأسلحته، بدأ يباشر الصيد إلى جانب جمع الثمار. وتدل بعض مظاهر الفن البدائى التى تركها على صخور بعض الكهوف ، أنه زاول الصيد بمهارة وتفنن فى طرق الإيقاع بفريسته. فنصب لها الفخاخ وكان يلبس ريش النعام عند الاقتراب منها. وفى العصر الحجرى المتوسط، زاد نشاط الإنسان عند الشواطئ البحرية، وباشر صيد الحيوانات البحرية وجمع الأصداف البحرية على نطاق واسع.

أما ادوات الإنتاج فكان اهمها الفأس الحجرية . وكان رأسها المدبب وحدها القاطع، سبباً فى صلاحيتها لأغراض متعددة. لقد استخدمها الإنسان فى قتل الحيوانات وبتر أجزائها ونزع جلودها ، وفى التنقيب عن نباتات الأرض . كما استخدم آلات أخرى، لقطع وتسوية الخشب والعظام ، وصنع الملابس من الجلود، وفى حفر مصايد الحيوانات. وفى العصر الحجرى القديم الأوسط، ظهرت آلات صنعت من الشظايا، التى كانت تنفصل عن النواة أثناء صناعة الفأس اليدوية . كما صنع

---

(١) مصطفى عامر، المرجع السابق ، ص ٤٦ وكذلك سليم حسن، المرجع السابق ص ٢٠٦، ويشير المؤلف الأخير إلى ان أصول الديانات المصرية القديمة ترجع إلى أصول سحيقة . وأنظر لمزيد من التفصيل حول هذه المرحلة العمل الرائد لبيترى وزميله كويبل Patrie and Quibell التى سبقت الإشارة إليه، وأنظر كذلك برستيد جيمس هنرى، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ترجمة زكى سوس، دار الكرنك ، القاهرة ١٩٦١، ص ٨٥-١١٢. ويعتبر هذا العمل، والذى نشر لأول مرة فى أوائل هذا القرن من أهم ما كتب حتى الآن عن تطور العقيدة والفكر فى مصر الفرعونية.

السواطيـر والمكاشـط المختلفـة، وكـان كل منهـا يؤدى غرضاً خاصاً. وفـى العصـر القديم الأعلى صنع الإنسان أنواعاً مختلفة من النصـال والأزاميل وأسلحة خاصة لنزع الأوتار من عظام الحيوانات ولحومها ، لاستخدامها خيوطاً فى صناعة ملابسـه. أمـا صنـاعـة الأدوات مـن العظـام والقـرون والسـن ، فلـم تنتشـر إلا فـى مرحلـة متأخرة من هذه العصور.

وبعد ذلـك أخذت تنتشر صناعـة المثـاقب والخطـاطيف فـى صيـد الأسـماك والحيوانات البحرية، كما استخدمها فى صيد الحيوانات البرية الصغيرة .

وفى نهاية العصر تسود صناعة الأدوات القزمية ذات الأشكال الهندسية ، كما يوجد حجر الطحن . ولكن لم يعثر قط على أى أدوات حجريـة مصقولـة ، أو مـا يدل على وجود صناعة الفخار .

وقـد اعتمـد إنسـان هـذه العصور فـى صناعـة الأدوات الحجريـة علـى حجـر الصوان، نظراً لوفرته وسهولة تشكيله. كما استخدم أنواعاً أخـرى مـن الحجر مثـل الحجر الرملى والكوارتز وبعض الأحجار النارية الصلبـة . وقـد استدل علـى ذلـك مـن المحاجر التى استغلها إنسان هذه العصور، مثـل محـاجر منطقـة الجبـل الأحمـر قـرب القـاهرة ، وفـى منطقـة كـوم أمبـو استخدم الإنسـان فـى العصـر القديـم الأعلـى أحجـار الكوارتز والديوريـت ، وهـى أحجـار شديدة الصلابـة يصعب تشـكيلها . كمـا استخدام الإنسان عظام الحيوانات وقرونها فى صنع الأسلحة.

وقد سـاعد وجـود بعض القبـائل البدائيـة التـى مـازالت تعيش فـى عصورهـا الحجريـة حتـى الآن، فـى فهـم الكثـير عـن صناعـة الأدوات الحجريـة وغيرهـا مـن الصناعات القديمة . واتضح من هذه الدراسات ، أن هذه الصناعات لها أصولها وفنهـا وتحتاج إلى مهارات عالية .

ويتضح ممـا سبق ، أن صناعـة الأدوات الحجريـة وغيرهـا ، قد تـأثرت فـى نشـأتها وتطورهـا بالمستوى الحضـارى للإنسـان ومـا اعتراه مـن رقـى ، وبحاجـات

الإنسان وما طرأ عليها من تطور ، وكذلك بظروف البيئة وما قدمته للإنسان من مواد أولية.[١]

خامساً : التنظيم الاجتماعى

رأينا فيما سبق أن الالتقاط والصيد مثلا المظهرين الأساسيين للنشاط الاقتصادى فى مصر ، خلال العصرين القديم والمتوسط ، وأن حياة الإنسان اتسمت بعدم الاستقرار والتنقل سعيا وراء القوت . والراجح أن إنسان هذه العصور قد عاش فى الصحراء فى مصر، نظرا لاعتدال المناخ بالمقارنة بأوروبا حيث ساد الجليد فترات طويلة ، مما دفع الإنسان إلى الاحتماء بالكهوف. أما فى مصر ، فلم يعثر ، حتى الآن، على كهف واحد يحتوى على آثار الإنسان الأول . ولكن من المعروف أنه احتمى بالصخور البارزة المطلة على وادى النيل ، وربما اتخذ منها مأوى لمدة قصيرة . ويعتقد بعض الباحثين، أن الإنسان عاش على قوارب فى النهر، قبل أن يبنى سكناً على ضفافه[٢] .

ويبدو أن سيطرة الصيد والالتقاط ، وما ترتب على ذلك من عدم استقرار ، قد أدى إلى صغر حجم الجماعات البشرية ، والتى يبدو فى رأى البعض أنها قامت على نوع من الحياة المشتركة التى يسودها قدر كبير من التضامن والتعاون وشيوعية الجنس بين أفراد الجماعة . أما الوحدة الاجتماعية الصغرى التى قامت عليها التجمعات البشرية ، فلا نعرف إذا كانت الأسرة التى تنسب إلى الأم Matriereat ، القائمة على صلة الرحم، أم الأسرة الأبوية Patriareat [٣] القائمة على رابطة الدم ، أم كانت نوعا من " العشائر التوتمية " القائمة على عبادة " التوتم " " To Tem " [٤]، الذى يتمثل فى حيوان أو نبات، يعتقد أفراد الجماعة أنهم انحدروا منه [٥].

---

(١) إبراهيم رزقانه ، الآلات الحجرية ، القاهرة ، ص ٥٠ وعبد العزيز صالح ، الشرق الادنى القديم ، الجزء الأول ، مصر القديمة، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة، ١٩٩٠ ، ص ٢١ - ٢٦ .

(٢) Badway, op. cit., pp. 4 - 5.

(٣) تقديس الأسرة منذ عهد الدولة القديمة ، يوحى بأن وجود الأسرة يرجع إلى عهود ما قبل التاريخ ، محرم كمال ، الأسرة والحياة المنزلية ، ص ١٣٣ وما بعدها .

(٤) كلمة To Tem كلمة هندية أصلا تعنى الانحدار من أصل واحد ، يمكن أن يكون طائراً أو حيواناً .

(٥) لمزيد من التفصيل أنظر : محمود السقا ، تاريخ النظم الاجتماعية والقانونية ص ٨٨ وما بعدها وكذلك عبد المنعم أبو بكر، النظم الاجتماعية ، تاريخ الحضارة المصرية ، المرجع السابق ذكره ، ص ١٠٩ وما بعدها ، وجمال مختار ، لمحة من تاريخ مصر السياسى والحضارى ، المرجع السابق ، ص ٩٢ - ٩٣ ، حيث يشير الكاتب إلى وجود قبائل متفرقة تتنازع على الصيد والتقاط النباتات .

كذلك يبدو أن هذه الجماعات قد عرفت نوعا من تقسيم العمل القائم على أساس الجنس، الرجل للصيد وحماية الأسرة ، والمرأة للالتقاط ورعاية الأولاد .

ويرى البعض أن بساطة الفن الإنتاجي ، وانخفاض إنتاجية العمل خلال هذه العصور، كانا من أهم العوامل التي شكلت الأوضاع الاجتماعية في النظم البدائية ، وهي النظم التي تتفق مع حضارة العصر الحجري القديم. فقد ترتبت على هذين العاملين ضرورة العمل الجماعي، والملكية الجماعية، والاستهلاك الجماعي، وانتفاء الطبقات الاجتماعية ، وشيوعية الصلات الجنسية. باختصار، يرى أصحاب هذا الرأى أن بدائية أدوات الإنتاج، قد اقتضت مجتمعا شيوعيا ، أو ما يمكن أن يسمى بالنظام الشيوعي البدائي. كما يعتقد أصحاب نفس الرأى ، أن الوعي والإدراك أى الضمير الإنساني، لم يكن هو العامل الذى شكل مسار تطور هذه الجماعات ، وأن بدائية الإنتاج هي التي حددت فلسفة النظام والأهداف التي يسعى إلى تحقيقها .

ولنا على الرأى السابق بعض ملاحظات . إن ما نعرفه عن هذه العصور ، وهو نادر ولا يرتقي أغلبه إلى درجة اليقين ، ولا يمكن الباحث من الجزم بصحة رأى ما ، بصدد التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والقانونية التي سادت في مصر وغيرها من مواطن حضارة هذه العصور .

وعلى الرغم من أن الرأى السابق قد يكون له ما يبرره ، إلا أنه ليس أكثر من تفسير لبعض معلومات ، ويعتمد على مقولات فكرية معينة ، وينحاز لعقيدة التفسير المادى للتاريخ الإنساني . إذ يمكن أن نقرر ، بنفس القدر من الثقة ، أن بدائية الإنسان وتخلفه الحضارى ، قد أديا إلى بدائية فن وأدوات الإنتاج . وأن غريزة حب الحياة هي التي دفعت الفرد العاجز وحده عن أن يوفر قوت يومه ويحمى نفسه ، إلى الحياة المشتركة والتضامن والتعاون من أجل الإبقاء على النوع [1]. فضلاً عن هذا، فليس هناك ما يؤكد صحة القول بأن الملكية الجماعية هي التي سادت خلال هذه العصور.

---

(١) أنظر مقدمة العلامة ابن خلدون، سبق ذكره ، ص ٣٧-٣٨.

وعلى العكس ، هناك اعتقاد بأنه فى ظل نظام يقوم على الالتقاط والصيد ويسوده عدم الاستقرار والتنقل الدائب بحثا عن القوت، ليس هناك ما يدفع الفرد إلى تملك العقار، وأن هذه العصور لم تعرف إلا ملكية المنقول، المتمثلة فى الأدوات الحجرية والأسلحة التى كان للفرد عليها حقا مطلقا . أما ملكية الأرض، فلم يشعر إنسان هذه العصور بالحاجة إليها . وخلاصة هذا الرأى، أن الملكية الفردية للمنقول هى التى كانت سائدة خلال هذه العصور. أما شيوعية النساء، فيمكن القول أنها كانت تحت وطأة الغريزة ونتيجة ما ساد أو يعتقد أنه ساد هذه المجتمعات ، من مساواة بين الرجل والمرأة ، حيث قام كل منهما بدور أساسى فى حياة الجماعة [١] .

---

(١) لمزيد من التفصيل ، أنظر المرجع السابق ، ص ٥٧ وما بعدها ، عبد المنعم أبو بكر ، النظم الاجتماعية منشور فى تاريخ الحضارة المصرية ، المرجع السابق ذكره ص ٢٠٩ وعبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ، سبق ذكره ص ٤٧ - ٨٠ وكذلك الأرض والفلاح على مر العصور، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة ١٩٧٤ ص١٧-٢٣ . وأحمد فخرى، دراسات فى تاريخ الشرق القديم، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٣ ، ص ١١-١٧ وكذلك :
Petrie, F., Pre - historic Egypt, 1920, and Badawy , op . cit , pp. 10-15.

المبحث الثانى

حضارات العصر الحجرى الحديث : ثورة الزراعة

تمهيد :

رأينا فيما سبق ، أن المرحلة الأخيرة من العصر الحجرى القديم ، قد شهدت تحولا خطيرا فى الظروف المناخية ، التى كانت سائدة فى مصر وشمال إفريقيا خلال هذه المرحلة. وأن هذا التحول قد تمثل فى قلة المطر ثم انتشار الجفاف والأحوال الصحراوية فى هذه المنطقة ، الأمر الذى أدى إلى انقراض الثروة الحيوانية والنباتية وضيق سبل العيش ، أمام الجماعات البشرية التى عاشت بها أحقابا طويلة تلتقط ما تجود به الطبيعة .

وقد شكل هذا التحول فى ظروف البيئة ، نوعا من التحدى المادى ، الذى اعتبره بعض الدارسين من أخطر التحديات التى واجهها الإنسان خلال هذه الحقبة من تاريخه الحضارى ، وكان حتما عليه أن يستجيب له وينتصر عليه ، وإلا فإن الفناء والعدم هما المصير المحتوم لكل نوعه .

وقد تمثلت الاستجابة لهذا التحدى ، فى هجرة الإنسان من الأرض التى أجدبت، إلى أرض جديدة توفر فرصة أفضل للحياة . ويعتقد البعض فى احتمال هجرة بعض سكان هذه المنطقة إلى الشمال ، حيث قابلوا تحديا من نوع آخر تمثل فى بيئة أوروبا الشديدة البرودة ، واحتمال هجرة البعض الآخر إلى منطقة أعالى النيل ، رغبة فى الإبقاء على نمط الحياة التى اعتادوها. إذ الراجح تشابه ظروف البيئة فى منطقة أعالى النيل ، مع ظروف البيئة التى وجدت فى منطقة شمال إفريقيا ، قبل أن يعمها الجفاف[١].

---

(١) يعتقد البعض أن بعض القبائل البدائية التى تعيش حتى اليوم على الالتقاط والصيد فى منطقة أعالى النيل ، مثل قبائل الدنكا، إنما تنحدر من أصلاب كانت تعيش ، فى عصور ما قبل التاريخ ، فى وادى النيل الأدنى ، ثم هاجرت بعد تغير ظروف البيئة فى موطنها القديم .

Toynbee, A. op. cit, pp. 136-146 and Heicht, op. cit., pp 261 - 284.

ولكن بعض سكان الأرض التى أجدبت وعزت فيها الحياة ، انتصر على التحدى بالهجرة إلى وادى النيل ودلتاه ، وغير من نمط الحياة التى اعتادها أحقابا طويلة ، ونجح فى تحرير نفسه من أصفاد الطبيعة التى عاش تحت رحمتها ، والتى كثيرا ما أمعنت فى قسوتها عليه .

وربما اقترن التحدى المادى ، الذى تمثل فى الجفاف وانتشار الأحوال الصحراوية ، بتحدى من نوع آخر ، دفع الجماعات البشرية إلى التحرك من حالة السكون إلى حالة الحركة، أى السكون الذى مثله مجتمع الالتقاط والصيد إلى الحركة التى مثلتها البيئة الجديدة ومحاولة التغلب عليها . نقول ربما اقترن بهذا التحدى المادى، تحديا معنويا تمثل فى قنوط شباب مجتمع الالتقاط ، بالحياة الراكدة التى عاشها أسلافهم أحقابا طويلة [١] .

وعندما حل المهاجر بالأرض التى صارت بعد صراع مرير موطنا له ، صدته فى البداية عن العيش بها .إذ كانت أحراش الغابة ومستنقعات البردى تملأ أرجاءها . فأخذ يعمل بفكره ويديه للسيطرة عليها ، وأقدم على بطولة فذة فى تاريخه ، فطهر الأرض من أحراشها وجفف ماء مستنقعاتها ، واكتشف ظاهرة استنبات البذور ، واستأنس الحيوان ثم رباه ، أى أنه أخذ يضع أسس نظام اقتصادى جديد يقوم على الزراعة والرعى [٢] .

وقد مثلت هذه الإنجازات الحضارية فى وادى النيل الأدنى ، واحدة من أخطر ثورات الحضارة فى تاريخ الإنسانية جمعاء. فمع اكتشاف الزراعة والرعى ، بدأ الإنسان ، لأول مرة فى تاريخه ، ينتج غذاءه بنفسه ، بعد أن عاش طويلا عالة على الطبيعة كإحدى طفيلياتها .

---

(١) أنظر الفصل الأول من الدراسة .

(٢) يعتقد بعض المؤرخين المعاصرين أن مصر كانت الموطن الأول للزراعة ، نظرا لأن ظروف البيئة الطبيعية والمناخية والجغرافية بها كانت أكثر ملاءمة للزراعة من أى منطقة أخرى بالشرق الأدنى - أنظر مثلا : ألدريد ، سبق ذكره ، ص ١٠ وكذلك.

Redman, op. cit., pp. 46-49.and 88-131.

كما بدأ الإنسان ينعم بالحياة المستقرة . ومع الحياة المستقرة بدأ يبنى بيتا . ولما كثرت البيوت ظهرت القرية ثم المدينة على جانبى مجرى النهر ، ثم فى دلتاه فى مرحلة متأخرة . وأعقب ذلك ظهور الإقليم ، فكانت اللبنات الأولى فى صرح الوطن .

وهكذا أقامت مصر ، صرح أولى مدارس الحضارة على أرضها فى العصر الحجرى الحديث ، وبدأت فى مرحلة لاحقة تعلم الإنسانية أن تكتب وأن تعد ، وأن تحسب الزمن بملاحظة حركات نجوم وكواكب السماء فى عين شمس ، وأن تبنى بيتا ثم هرما من الحجر، كما أنها كادت تصل إلى معرفة حقيقة الأزل ، أى الله الواحد الأحد فى فكر "إخناتون ". وكانت فى كل ذلك فذة وعبقرية ، كما كانت سخية فى عطائها للدنيا إلى أبعد مدى . وحفظ التاريخ كل ذلك لها ، ووعى دورها الحضارى ، فلم يغفل عن ذكرها عبر القرون، حتى عندما كان يدركها الوهن ، ويحل بها الظلم والمذلة .

أولاً : الملامح الأساسية لحضارات العصر :

رأينا فيما سبق، أن العصر الحجرى الحديث قد شهد اكتشاف الإنسان الزراعة وتربية الحيوان، وقد مثل هذا الانتصار الحضارى الفذ ، ثورة بعيدة المدى فى نمط الحياة الإنسانية: الاقتصادية والاجتماعية والسياسية [١] .

فعندما عرف الزراعة عرف الاستقرار لأول مرة فى تاريخه. بدأ حياة جديدة تلعب إرادته دورا خطيرا فى تشكيلها . فقد بدأ ينتج غذاءه بنفسه ، ويبنى لنفسه بيتا، ويدخر غذاءه، ويصنع أوعية وأدوات أكثر ملاءمة لظروف حياته الجديدة . وهكذا بدأ ينعم بحياة أقل قسوة أو أكثر رفاهية ، بعد أن نجح فى إشباع ضروريات الحياة، والابقاء على نوعه فى عصر سابق.

ومع الاستقرار فى وسط جماعة ، بدأت السكينة تعرف طريقها إلى نفسه وقوى إحساسه، بالأمان فتحركت فى أعماقه عوامل الخلق والإبداع. فمهد الأرض وهيأ الظروف لبناء مدنية من أعرق مدنيات التاريخ هى مدنية مصر الفرعونية .

(١) انظر فى أهمية اكتشاف الزراعة أو ما اسماه المؤلف The Agricultural Transformation وأثر ذلك فى الحضارة الإنسانية:
Redman , op. cit. p 1-5 .

وعندما كثرت المساكن، ظهرت القرية، الأمر الذى أدى إلى تزايد العلاقات الاجتماعية وتنوعها وتعقدها. ومن ثم كان لا بد من نوع من الحكم أو التنظيم السياسى، لتدبير شئون الجماعة، وتنظيم العلاقات الإنسانية. كما ظهرت أنماط جديدة لتقسيم العمل لم تكن معروفة من قبل، وعرفت الجماعات البشرية الأشكال الأولى للملكية الفردية العقارية، أو ملكية الأرض إلى جانب ملكية المنقول التى اتسع نطاقها.

وقد وجدت آثار حضارات هذا العصر فى أماكن عديدة فى مصر. والراجح هو تعدد أنماط الحضارة لا وحدتها [١]، مع وجود صلات كثيرة بين المراكز الحضارية المختلفة .

ثانياً : مواطن حضارات العصر :

وجدت آثار حضارات العصر الحجرى الحديث فى أماكن عديدة فى مصر ، كان من أهمها : " حضارة مرمدة بنى سلامة " [٢] عند حافة الصحراء شمال غرب القاهرة و"حضارة العمرى " فى وادى حوف بمنطقة حلوان [٣] ، وفى ديرتاسيا ومستجدة ووادى الشيخ فى الصعيد، وكذلك فى إقليم الفيوم، وفى الصحراء الغربية وبعض الواحات ، وخاصة الواحات الخارجة والبحرية [٤] .

ولآثار حضارة الفيوم" أهمية خاصة ، لأنها وجدت على شواطئ البحيرة القديمة ، التى كانت تملأ منخفض الفيوم فى العصر الحجرى القديم . وكان الإنسان ينزل من شاطئ إلى الشاطئ الذى يليه ، كلما هبط ماء البحيرة . وكان فى كل مرة يترك وراءه بعض آثاره، الأمر الذى ساعد على تقدير عمر حضارات ما قبل التاريخ، سواء فى منطقة الفيوم أو الدلتا أو الوادى .

---

(١) غطت رواسب النهر الكثير من بقايا حضارات هذا العصر ، إذ المعروف أن نهر النيل أرسب منذ بداية العصر الحجرى الحديث طبقات سميكة من الطمى فى منطقة الوادى والدلتا . مصطفى عامر ، المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٢) انظر فى وصف حضارة مرمدة : Badaway, op.cit., p. 10-11 and Gardiner , op. cit.,p388.

(٣) نسبة إلى أمين العمرى الذى اكتشفها بالاشتراك مع الأب بوفييه لابير حوالى سنة ١٩٢٣ .

(٤) يعتقد البعض أن "حضارة العمرى" أقدم من " حضارتى مرمدة بنى سلامة والفيوم ، وأن حضارة " ديرتاسيا " تمثل نهاية المرحلة الحضارية التى يمثلها العصر الحجرى الحديث ومقدمه لحضارة عصر ما قبل الأسرات ، مصطفى عامر ، المرجع السابق، ص ٥٨، ولكن البعض يرى أن حضارة الفيوم كانت اسبق .

ويعتقد البعض أن مصر كانت الموطن الأول للزراعة، نظراً لما اتسمت به من خصائص لم تتوافر فى بلاد الرافدين. ومن بين هذه الخصائص الظروف المناخية الملائمة، بالإضافة إلى الدور الذى أداه تعاقب الفيضان السنوى المنتظم خاصة وقت الفيضان وفى اعقابه، وما ترتب على ذلك من اخصاب التربة، بحيث اصبحت صالحة لإنبات البذور بأقل قدر من المجهود. كما يدعم هؤلاء رأيهم، بأن الأدوات الزراعية التى استعملها المصريون فى ذلك العصر، كانت أكثر تطوراً وأكثر نضجاً من الناحية الحرفية، بالمقارنة بالأدوات التى صنعتها الجماعات الإنسانية الأخرى التى عاصرت نشأة الحضارة فى مصر(١).

كما يعتقد هؤلاء، أن الفيوم كانت الموطن الأول للزراعة فى مصر، وأنها عرفت الزراعة قبل الدلتا، نظراً لأن الأخيرة كانت مليئة بالمستنقعات والأحراش خلال تلك المرحلة(٢)، (٣)، وظلت كذلك حتى عصر الدولة القديمة.

وتعتبر حضارة الفيوم نموذجاً لحضارات بداية العصر الحجرى الحديث فى مصر الوسطى. وتشغل الفيوم منطقة من مناطق الحواف الصحراوية. ولكن يسرت لها حياتها وعوضتها عن بعدها النسبى، بحيرتها الكبرى التى كانت خلال تلك المرحلة، عذبة الماء كثيرة الأسماك تستهوى عدداً من الحيوانات. هذا فضلاً عن خصوبة مدرجاتها التى سمحت بنمو النباتات الطبيعية، كما جعلتها صالحة للزراعة .

(١) ألدريد ، المرجع السابق ، ص ٢٤-٢٥.

حيث ذكر أن سكانها ربما بلغوا ١٦ ألف نسمة وأنها كانت تشغل مساحة تقدر بنحو ١٨٠ ألف متر مربع على بعد كيلو متر واحد من فرع رشيد وأنظر ايضاً :

Brunton, Mostagedda and Tasian Culture, London , 1937, pp. 11-75 .

(٢) يرى البعض أن الفيوم شهدت حضارتين متواضعتين ومتعاقبتين فى العصر الحجرى الحديث: حضارة عاش اهلها فوق مدرج متسع، عاصر مرحلة بلغ ارتفاع مستوى ماء البحيرة فيها عشرة امتار فوق مستوى سطح البحر، ونحو ١٨٠ قدماً فوق مستوى مائها الحالى ، هى حضارة الفيوم (أ) . ثم اعقب ذلك حضارة أخرى ، عاش اهلها فوق مدرجين متسعين عاصراً مرحلتين بلغ ارتفاع مستوى ماء البحيرة فيها اربعة أمتار ومترين على التوالى فوق مستوى سطح البحر، وهى حضارة الفيوم (ب) ، عبدالعزيز صالح، المرجع السابق ، ص ٥٠، وأنظر أيضاً لمزيد من التفصيل :

Caton - Thompson and Gardener. E.W., the Desert Fayoum. Landon 1934 and the Badarian Civilization, London 1928.

وكذلك : أحمد فخرى ، المرجع السابق ، ص ٢١ حيث يذهب إلى أن حضارة الفيوم هى أقدم حضارات مصر .

(٣) أرجع "بترى" اثار حضارة الفيوم إلى نحو ٩ آلاف سنة قبل الميلاد. أنظر :

Petrie. f. the Making of Egypt, London 1939, p.9.

وقد لوحظ أن من عادات أهل الفيوم خلال تلك المرحلة ، أنهم خرجوا بمطامير غلالهم عن منطقة المساكن ، وحفروها فوق ربوة عالية بعض الشئ، ورتبوها فى ساحتين ترتفع احداهما عن مستوى الأخرى بنحو تسعة أمتار. وقد احتفظت مطاميرهم ببقايا نادرة من الحنطة والشعير وبذور الكتان وبذور بعض النباتات الأخرى . وقد تفحم بعض هذه الحبوب وبقى البعض الاخر بحالة مقبولة حتى الآن .

ويعتقد البعض، بان تجميع مطامير الفيوم فى منطقة واحدة بعيداً عن المساكن، يدل على شيوع الملكية الزراعية وانتاج الزراعة من اصحاب الأرض، فى حين رأوا فى تفرق المطامير فى مرمدة بنى سلامة ، دليل على استقلال كل فرد بملكيته الزراعية، أو انه يدل على استقلال كل اسرة بملكيتها[١].

ولكنا نؤيد الرأى الذى ذهب إلى أن اهل الفيوم قد اضطروا للابتعاد بمطاميرهم فوق منطقة مرتفعة نسبياً ، حتى يبعدوا بها عن البحيرة، خوفاً من رطوبة التربة بالمناطق القريبة من شواطئها، وان تجميع المطامير فى منطقة واحدة ، يسهل حراستها. ويبدو لنا أن هذا التفسير أكثر منطقية كما أنه أكثر واقعية[٢] .

أما " حضارة مرمدة بنى سلامة " ، فترجع أهميتها إلى أنها عرفت المسكن والمقبرة على السواء . وكانت عادة دفن الموتى بجوار المساكن وما حولها ، من العادات المألوفة فى هذا العصر . وتقدم آثار هذه الحضارة صورة طيبة عن المسكن الأول وفن بنائه ، وعن القرية المصرية الأولى ونشأتها ، وعن تطور الحياة الاجتماعية وظهور روح الجماعة بشكل لم يكن معروفا من قبل إلا فى حضارة الفيوم. وفضلا عن كل هذا ، فإن " حضارة مرمدة بنى سلامة " تمثل واحدة من المحاولات الأولى فى تاريخ الإنسانية ، نحو تنظيم وتخطيط القرية، بطريقة تدل على أن الإنسان كان قد نجح فى الفكاك من إسار بدائيته إلى مرحلة حضارية جديدة [٣].

١- هذه وجهة نظر الاستاذ هرمان يونكر ، أنظر فى ذلك

Çaton - Thompson and Gardener. op. cit., 41-91 .

٢- عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ، ..... ، سبق ذكره ، ص ٤٩-٥٠. وكذلك الأرض والفلاح فى مصر الفرعونية، سبق ذكره، ص ١٩-٢٠ .

٣- تمثل "حضارة ديرتاسا" بأسيوط حضارات الصعيد فى بداية العصر الحجرى الحديث .

وتدل آثار هذا العصر ، على أن الإنسان بدأ ينعم بمعيشة أفضل : إذ كان لكل مسكن موقد لطهى الطعام ، الذى أصبح ظاهرة عادية ، كما كثرت الآنية والقدور الفخارية. كما كان الإنسان يطحن الحبوب ، ويقيم مخازن لحفظ غذائه ، ومخازن لحفظ الغلال . فضلاً عن هذا فقد كثر استخدام أدوات الزينة وزادت عناية الإنسان بموتاه ، وكان يضع فى قبورهم ما كانوا يحتاجونه فى حياتهم .

وتمثل " حضارة ديرتاسيا "[1] نهاية المرحلة الحضارية التى يمثلها العصر الحجرى الحديث، كما تعتبر مقدمة لحضارة عصر ما قبل الأسرات ، وهى ترجع إلى حوالى الألف السادس قبل الميلاد. ويرى البعض أن سكان ديرتاسيا لم يصلوا إلى مرحلة الاستقرار التام ، كما يرجح هؤلاء أنهم عرفوا الزراعة قبل غيرهم من البشر ، كما عرفوا بعض الحرف مثل غزل ونسج الكتان ، وصناعة أدوات الزينة والأوانى الخزفية . كذلك بدأت بديرتاسا عادة دفن الموتى خارج نطاق القرية . كذلك من المعتقد أن تربية الحيوان كان لها أهمية خاصة فى " اقتصاد ديرتاسا " . ولكن يبدو لنا ، أن افتراض أن سكان ديرتاسا قد عرفوا الزراعة قبل غيرهم، لا يتفق تماماً مع القول أنهم لم يصلوا إلى مرحلة الاستقرار التام .

وتجدر الإشارة إلى أنه من الصعب القول بوحدة حضارات هذا العصر، أى انتماء حضارات هذا العصر جميعا إلى نمط حضارى واحد . إن الراجح هو وجود نموذجين أو نمطين حضاريين ، ساد أحدهما فى مصر العليا، وساد الآخر فى مصر السفلى. ولكن هذه الحضارات لم تكن فى عزلة عن بعضها، بل وجدت بينها صلات عديدة. كذلك من الراجح وجود نوعين من السكان يظهر فى أحدهما وهم سكان الصعيد بعض المؤثرات الزنجية .

وكذلك من المعتقد أن حضارة الوجه البحرى ، كانت أرقى عموما من حضارة الصعيد خلال هذه الحقبة من تاريخ مصر .

١- Badawy, op-cit., pp 10-15.

ثالثا : مظاهر النشاط الاقتصادى وأدوات الإنتاج :

شهد هذا العصر تعدد أنواع النشاط الاقتصادى وارتقائها بشكل ملحوظ، الأمر الذى أدى إلى زيادة كبيرة فى إنتاج مصر من السلع والحاصلات المختلفة .

وهناك ما يؤكد قيام مجتمع زراعى مستقر فى وادى النيل الأدنى و فى الدلتا . وكانت الزراعة، على ما يبدو، الحرفة الرئيسية للسكان عموما . والراجح أن الشعير والقمح كانا من أقدم الحبوب التى زرعت فى مصر . فقد وجدت بعض حبوب الحنطة والشعير وبذور الكتان الشعير بين آثار العصر الحجرى الحديث فى الفيوم. أما القمح فقد اكتشف حبوبه بين آثار هذا العصر فى مصر العليا ومصر السفلى على السواء . كذلك عرفت مصر فى نفس العصر بعض الفواكه مثل الكروم والزيتون والبلح والتين ، وبعض الخضر والبقول . والراجح أن دلتا النهر وساحل مريوط ، كانا من أوائل المناطق التى غرس فيها الإنسان شجرتى العنب والزيت المباركة أى الزيتون ، اللتين كان لهما أثر واضح فى تاريخ الحضارة والمدنية فى حوض البحر المتوسط.

وإلى جانب الزراعة قام السكان بتربية الحيوان . ويبدو أن هجرة الحيوان من المناطق العشبية التى احتواها الجفاف والصحراء إلى وادى النهر بالقرب من مصادر المياه حيث يعيش الإنسان ، قد ساعدت السكان على استئناس الحيوان والسيطرة عليه تدريجيا . وتدل بقايا العظام التى وجدت بين آثار هذا العصر ، على أن الأغنام والماعز والثيران والحمير والكلاب ، كانت من بين الحيوانات التى عرفت فى ذلك العصر . وقد اعتمد الإنسان على لحم الحيوان ولبنه فى غذائه ، وصنع ملابسه من جلده وصوفه وشعره . كما استخدم عظامه وقرونه فى صناعة أدوات وأسلحة مختلفة . والراجح أن تربية الحيوان كان لها أهمية خاصة فى منطقة الدلتا ، كما كانت تربية الحيوان الحرفة الرئيسية فى مجتمع الرعاة، الذين عاشوا حول عيون الماء فى بعض الواحات الصحراوية .

كذلك من الراجح أن سكان الفيوم وأماكن أخرى ، قد اعتمدوا بالإضافة إلى الزراعة، على صيد السمك والحيوانات البحرية الأخرى من البحيرة .

كما شهد هذا العصر انتشار وارتقاء الحرف بشكل ملحوظ . فقد عرف إنسان هذا العصر صناعة الحصر والسلال ، كما شهد ارتقائها ، كما يتضح من بعض السلال التى وجدت فى الفيوم . كما عرف صناعة الغزل والنسيج ، واستخدم فى ذلك الكتان ، كما استدل على ذلك من نسيج الكتان الذى وجد فى الفيوم وفى مقابر مرمدة بنى سلامة . كما حققت صناعة الأوانى درجة عالية من الرقى والدقة لم تعرفها مصر من قبل . كما تعتبر الأدوات الحجرية التى وجدت فى الفيوم من بين مفاخر هذا العصر البطولى . أما الآنية الفخارية فكانت فى بدء عهدها ، بسيطة فى أشكالها ، وغير متقنة فى صنعها ، وغير جميلة فى مظهرها إلا نادرا ، كما هو الحال بالنسبة لبعض الأقداح الفخارية التى وجدت فى دبرتاسا. فقد كانت هذه الأقداح فى شكل زهرة السوسن ، وكانت ذات مقابض ، كما كانت تحلى برسوم جميلة . كذلك انتشرت صناعة أدوات الزينة مثل صناعة حبات الخرز من العقيق والأصداف البحرية والأحجار العادية وقشر بيض النعام، وصناعة الأمشاط والأساور وبعض الحلى التى تتدلى من العنق ، وأكثرها من العظام أو الأصداف . كذلك حققت الصناعات الحجرية تقدما كبيرا ، وهى من أهم الحرف التى تميز بها هذا العصر . فالأدوات الحجرية المصقولة وغيرها تعتبر من أجمل وأرق ما أنتجه الإنسان . كذلك تنوعت منتجات هذه الصناعة ، تمشيا مع مطالب الحياة الجديدة ، القائمة على الزراعة وتربية الحيوان والاستقرار . كما تقدمت وتنوعت صناعة الأدوات غير الحجرية ، مثل الأدوات والأسلحة التى كانت تصنع من العظام أو الأصداف البحرية [١] .

ونتيجة الانتقال من عصر الصيد والالتقاط إلى عصر الزراعة والرعى، وما ترتب على ذلك من استقرار وارتباط الإنسان بالأرض، التى أصبحت تمثل موردا من الموارد الاقتصادية الأساسية، بدأت الأشكال الأولى للملكية الفردية وملكية الأسرة فى

(١) لمزيد من التفصيل ، أنظر : مصطفى عامر ، المرجع السابق ، ص ٥٤ ٥٥ ، وعبدالعزيز صالح، المرجع السابق، ص٤٧-٥٠ وألدريد ، المرجع السابق، ص ٤٩-٦٢.

نطاق العقارات فى الظهور والانتشار. فقد ترتب على استحواذ الفرد أو الأسرة على مساحات من الأرض، وزراعتها أو تربية الأغنام عليها ، ظهور رغبة غريزية فى الاستئثار بها وصد الغير عنها. وكما بدأ خلال هذا العصر ظهور فكرة الإرث ، أى أن يرث الأولاد ما تركه رب الأسرة من منقولات أو عقارات. ومع اتساع نطاق الزراعة وتربية الحيوان وظهور المساكن وزيادة محتوياتها ، اتسع نطاق الملكية الفردية للمنقولات والعقارات، مثل ملكية الأرض التى يزرعها الإنسان والحيوانات التى كان يربيها للاستهلاك أو الإنتاج ، وملكية المنزل ومحتوياته ، وملكية ما يدخره من غذاء وحاصلات [١] .

رابعاً : الإطار الاجتماعى :

رأينا فيما سبق أن العصر الحجرى الحديث قد شهد بداية تركز واضح فى الحياة البشرية فى وادى النيل الأدنى ، نتيجة اكتشاف الزراعة واستئناس الحيوان ، ثم تربيتـــه للاستهلاك أو الإنتاج . ومع الزراعة بدأ الإنسان يستقر بعد طول ترحال ، كما عرف الأمان بعد القلق ، وكذا بدأت تنزع نفسه على هدى فطرته وعقله وخبراته، إلى الخلق والإبداع ، ليؤكد ذاته وقدراته ، مبتغيا الارتقاء بروحه وتحقيق حياة أفضل.

وكان لهذه الثورة الحضارية آثارا بعيدة المدى ، على حياة الإنسان الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

فمع الاستقرار والحياة فى مسكن ، زادت الروابط الأسرية وتدعمت سلطة رب الأسرة ، كما بدأ يشعر بشدة حاجته لأولاده فى زراعة أرضه ، وجمع خيراتها وصد الغير عنها ، بعد أن كان الأولاد عبئا عليه فى ظل حياة الصيد والتنقل الدائم .

ومع ظهور الحرف واتساع نطاق تقسيم العمل والتخصص ، كثرت الصلات الاجتماعية وتدعمت ، بعد أن شعر أصحاب كل حرفة بحاجتهم إلى منتجات الحرف الأخرى . ومع الزمن بدأت تظهر " روح الجماعة " وفكرة " المصالح المشتركة " ، كدوافع ذات أثر بعيد فى حياة سكان القرى . كما أن الراجح أن كل قرية كان لها

---

(١) محمود السقا ، المرجع السابق ، ص ٧٣ .

رئيسا[1]، يفرض على سكانها عرف الجماعة ، ويفصل فيما يقوم بين أفرادها من خلافات ومنازعات . إذ يوحى تنظيم مسكن مرمدة بنى سلامة بانفعال أهلها " بالوعى الجماعى"، واحتمال خضوعهم لسلطة تنظم حياتهم . كذلك يمكن أن يستدل على ذلك من بنائهم مساكنهم على ربوة عالية يأمنون فيها من غارات جيرانهم . كما يمكن أن يستدل على وجود نوع من السلطة فى هذه القرية من احتفاظ أحد موتاها بعصا خشبية فى يده ، يحتمل أنها كانت رمزاً للسلطة . وتدل آثار " حضارة الفيوم " على أن أهلها كانوا يجمعون محاصيلهم فى منطقة واحدة، يتعاونون فى حراستها ، وربما عهدوا بهذا العمل إلى رئيسهم وأعوانه . كما يرى البعض أن آثار " حضارة المعادى " تشير إلى احتمال وجود سلطة فى القرية كانت تشرف على تموينها وجمع محاصيلها [2] .

كذلك هناك اعتقاد بين الدارسين لهذا العصر ، بوجود صلات اقتصادية واجتماعية بين القرى ، التى تكاثرت خلال هذا العصر ، نتيجة طول الجوار والاستقرار، وبدافع "المصلحة المشتركة " التى تفرضها البيئة الزراعية على أهلها ، ورغبة فى تبادل المنتجات والمواد الأولية التى يتفاوت حظ القرى المختلفة منها . كذلك دعم العلاقات التى وجدت بين مراكز الحضارة، ضيق الحيز المكانى الذى عاش فيه السكان، وسهولة الاتصال بين أجزاء الوادى، ورغبة الجماعات البشرية المختلفة فى الاستفادة من النهر، واتقاء مخاطره، وما استتبعه ذلك من ضرورة التعاون وتوحيد الجهد [3].

وخلال هذا العصر بدأت المدن فى الظهور ثم ظهرت عواصم الأقاليم ، وهى المقدمات التى أدت فيما بعد إلى ظهور إقليمين ، هما الوجهين البحرى والقبلى ، ثم ظهور الدولة الموحدة [4] .

---

(١) كان الناس فى هذا العصر، يعتقدون أن شيخ الجماعة أو القبيلة ، هو القادر وحده على حمايتها وحماية ثروتها من الماشية والحاصلات الزراعية ، كما أنه القادر وحده على المحافظة على صحة الجماعة وتحقيق الازدهار والرخاء، وذلك من خلال استخدامه السحر فى السيطرة على المناخ والنيل . أنظر : الدريد، المرجع السابق ، ص ٩٤-٩٥ .

(٢) محمود السقا ، معالم تاريخ القانون المصرى الفرعونى ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص٧٤ ، ٧٥ .

(٣) Badawy , op-cit, p.5

(٤) المرجع السابق ،ص٧٥ -٧٦،ومصطفى عامر ، المرجع السابق،ص٥٧.

وتدل طريقة دفن الموتى ، والوضع الذى كانت تترك عليه جثة الميت، ولفها بلفائف من الكتان ، ثم تغطيتها بالحصر أو الجلود ، ووضع بعض الأطعمة والأدوات التى كان الميت يستخدمها فى حياته فى قبره ، على ما كان يكنه الأحياء للأموات من احترام وحب . كذلك استدل البعض من آثار مقابر هذا العصر ، على بداية ظهور نوع من العقائد والطقوس الجنائزية ، ورسوخ الاعتقاد بالبعث بعد الموت . كما يرى البعض ، أن المرحلة المتأخرة من هذا العصر ، والتى تتفق وظهور الأقاليم فى مصر، قد شهدت ديانات إقليمية ، فكان لكل إقليم معبود يمثل ، فى نفس الوقت ، الرمز الدال على هذا الإقليم [١] .

وتعتبر مساكن هذا العصر ، أول مساكن يقيمها الإنسان لنفسه وأسرته . وكان يعتمد فى بنائها على المواد الأولية المحلية . ونظرا لان مصر كانت خالية من الغابات، فى حين كانت الأماكن التى تجلب منها الأحجار بعيدة نسبيا عن الدلتا وقلب الوادى ، لهذا شيد الإنسان بيته من الطين والغاب وأغصان الأشجار القليلة التى كان يجدها . وكانت بعض المساكن بيضاوية الشكل ، كما هو الحال فى مساكن مرمدة بنى سلامة ، فى حين كانت مساكن العمرى مستديرة ، ومشيدة من أغصان الشجر التى يكسوها الطين . وتدل مواقع القرى ، على أن الإنسان كان يتأثر بالطبيعة فى اختيار المكان الذى يبنى فيه مسكنه، والموقع الذى يقيم عليه قريته . فقد استفاد من التضاريس فى توفير الحماية لقريته ، ولم يكن يبتعد كثيرا عن موارد المياه.

كذلك كان يحاول تجنب خطر الفيضان ، ويدرك ما للوديان من قيمة كطرق للمواصلات . فقد وجدت " قرية العمرى " على ربوة مرتفعة عند مصب وادى حوف ، قريبا من السهل الفيضى للنيل ، وأقيمت مساكن الفيوم على شواطئ البحيرة من جهة الشرق ويحميها تل مرتفع من الغرب [٢] .

---

(١) محمود السقا ، المرجع السابق ، ص٧٦ وكذلك ، عبدالعزيز صالح، المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٢) المرجع السابق ذكره ، ص ٥٢ - ٥٣ وكذلك : Badawy, op.cit., p. 10 - 15.

ويشير هذا المؤلف أن المصريين عاشوا على قوارب فى النيل، قبل أن يبدأوا فى الاستقرار على ضفتى النهر.

وقد سبق أن ذكرنا ، أن هذا العصر قد شهد انتقال مصر من مرحلة الاقتصاد البدائى الذى يقوم على الالتقاط والصيد ، إلى نظام اقتصادى جديد يقوم على الزراعة والرعى ، ويقوم الإنسان فى ظله بإنتاج غذائه بنفسه ، من خلال مباشرة أنشطة متعددة. بعبارة أخرى، لقد شهد هذا العصر مولد نظام اقتصادى جديد ، تلعب الإرادة الإنسانية دورا كبيرا فى توجيهه ، وفى تحديد مستوى كفاءته [١] . وفى هذا سبقت مصر كل شعوب الدنيا [٢]،[٣] . هذا ، ويعرف هذا النظام الاقتصادى " بنظام الحضارات القديمة . "

---

(١) يسمى " مورجن " هذه المرحلة الحديدة " بمرحلة المدنية " وهى مرحلة أرقى من " مرحلة الوحشية " التى تتفق والعصر الحجرى القديم .

(٢) Redman, op cit . 46-47

(٣)لمزيد من التفصيل حول عصور ما قبل التاريخ يمكن الرجوع إلى الأعمال التالية :

Petrie, F , the Making of Egypt, London 1939
Baumgartel, E. J, the Cultures of Prehistoric Egypt, revised edition, Oxford, 1955.
Massoulard, E , Prehistoire et Protohistoire d'Egypt, Paris, 1939.
Bachatly, C , Bibliographie de la Prehistoire - Egyptienne, 1869-1938, cairo, 1942.
Brunton , G , Mostagedda and the Tasian Culture,London 1937, and Qau and Badari, 3vols., 1927-30.
Bruntan , G. and Caton - Thompson, the Badarian Civilization, London 1928.

وكذلك المراجع التى سبق ذكرها .

المبحث الثالث

عصر ما قبل الأسرات : تدعيم ثورة الحضارة و وضع أسس المدنية وبداية تدوين التاريخ

تمهيد :

يقصد " بعصر ما قبل الأسرات " ، والذى يعرف أحيانا " بعصر النحاس " ، المرحلة الحضارية التى تبدأ عند نهاية العصر الحجرى الحديث ، مع بداية استخدام الإنسان المعادن فى مصر لأول مرة فى تاريخه . وتنتهى هذه المرحلة بتوحيد مصر على يد الملك " منا " أو " نارمر" ، وتأسيس أول أسرة فرعونية تحكم مصر حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد[١]. ومعنى هذا أن المرحلة المبكرة من هذا العصر ، تنتمى إلى حضارات ما قبل التاريخ، فى حين تدخل المراحل المتأخرة منه فى عداد الحضارات التاريخية [٢] .

أولا : الملامح الأساسية لهذا العصر:

إذا كان العصر الذى سلف ، قد شهد مولد حضارة جديدة ولدت مع اكتشاف الإنسان الزراعة ونجاحه فى استئناس الحيوان ، وما ترتب على ذلك من ارتباط بالأرض وبداية الاستقرار ، وبناء أول مسكن وظهور أول قرية ، فإن عصر ما قبل الأسرات يمثل هو الآخر، مرحلة حاسمة تعد من أخطر المراحل الحضارية فى تاريخ الإنسانية بعامة وفى تاريخ مصر بخاصة .

---

(١) هناك اعتقاد واسع الانتشار ، بأن الوحدة التى تحققت فى "عصر منا" Menes ، قد سبقها كفاح مرير من أجل توحيد مصر خلال عصر ما قبل الأسرات ، وأن أول وحدة عرفتها مصر كانت حوالى عام ٤٢٤٢ قبل الميلاد، حيث أقيمت أول حكومة مركزية فى مصر ، اتخذت من " أون " أو " هليوبوليس " " أو عين شمس " أول عاصمة لها . والراجح أن أول من حمل راية توحيد مصر خلال هذه المرحلة المبكرة هم سكان الدلتا . ولكن لم يقدر لهذه الوحدة البقاء ، فما لبثت مصر أن انقسمت على نفسها مرة أخرى ، إلى مملكتين ، إحداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب . وقد أعقب الانقسام فترة من المنازعات والحروب بين مملكتين الشمال والجنوب، حتى قدر لأهل الجنوب الانتصار وتوحيد مصر مرة أخرى فى " عصر منا". ولكن رغم هذا ، فإن البعض لازال يعتقد أن أول وحدة سياسية عرفتها مصر كانت على "يد الملك منا" الذى عرف فى تاريخ الفرعونية "بموحد القطرين " و" حامل التاجين" .

أنظر تفصيل ذلك : محمود السقا ، المرجع السابق ، وعبدالعزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٦٦-٨٠.

Gardiner, op.cit., p.384-399 anel Hoffman , Egypt Before the Pharaons , 1979 .

(٢) ينتمى كل عصر المعادن فى أوروبا إلى عصور ما قبل التاريخ .

ففى عصر ما قبل الأسرات ، انتصرت الإنسانية على أخطر العوائق والعقبات التى كانت تقف فى سبيل ارتقائها ، ودعمت ثورة الحضارة التى شهدها العصر الذى سلف ، كما مهدت الأرض وأرست الدعائم الأولى للمدنية الإنسانية التى تمثلت فى حضارة مصر الفرعونية .

ستظل ذاكرة البشرية تعرف وتعى أن مصر ، خلال عصر ما قبل الأسرات قد حققت بعضا من أعظم انتصاراتها الحضارية : فى هذا العصر ظهرت المدينة ، ثم الإقليم ، ثم ولد أول مجتمع عرف نظام الدولة ، عندما نجحت مصر فى تحقيق وحدتها السياسية ، وأنشأت أول حكومة مركزية عرفها التاريخ ، كما أرست دياناتها ووضعت أصول الحكم وتقاليد المجتمع والملكية .

وخلال هذا العصر اكتشف الإنسان المعادن ، وعرف كيف يستخدمها فى تحقيق أغراضه ، الأمر الذى كان له أبعد الأثر فى كل تاريخه .

وخلال هذا العصر اهتدى الإنسان إلى الكتابة ، فبدأ يعرف كيف يكتب، وكيف يعد ، وكيف يكتب تاريخه . وهكذا تركت الإنسانية عصور ما قبل التاريخ ، وبدأت عصورها التاريخية على أرض مصر . كما بدأ فى وضع أسس أقدم الفنون التى عرفتها الإنسانية [١].

وفى لحظة حاسمة خلال هذا العصر، اهتدى الإنسان إلى أول حساب أو تقويم للزمن، عرف أن السنة تتكون من ثلاثمائة وخمسة وستين يوما ، قسمها إلى أثنى عشر شهرا ، كل شهر ثلاثون يوما، أما الأيام الخمسة الباقية، فهى الأيام التى ولدت فيها ألهة مصر الخمسة : أوزوريس ، وإيزيس، وست ، وحورس ، ونفيتس [٢] .

---

(١) عبدالعزيز صالح، المرجع السابق، ص٨١-٨٣وكذلك Heicht,op-cit., P. 125-127 and Gardiner, op.cit.pp.19-26

(٢) كان الإنسان يرقب مجئ الفيضان ، فاكتشف إنه ظاهرة متكررة كل عام، ثم عرف فى لحظة حاسمة وخالدة أن مجئ الفيضان إلى مصر ، يقترن عادة بظهور" نجم الشعرى اليمانية " فى سماء مصر فى نفس لحظة شروق الشمس مرة كل عام . ومع الزمن عرف أن عليه أن ينتظر ثلاثمائه وخمسة وستين يوما ، حتى يرى "الشعرى اليمانية " تظهر مرة أخرى فى سماء مصر لحظة شروق الشمس . وكان المصريون القدماء يسمون هذا النجم " سيدت " . وهذا النجم هو النجم " الفا" من المجموعة المعروفة باسم " النجم الكلب " " the Dog Star " . وقد عرف الكهنة فيما بعد أن السنة المصرية القديمة تقل عن السنة الطبيعية ربع يوم، أنظر : محمد إبراهيم بكر ، المرجع السابق الذكر، ص٢٣-٢٦ ، ألدريد ، المرجع السابق ، ص ١٠٥-١٠٦.

ثانيا : النظام السياسى والاجتماعى :

شهد عصر ما قبل الأسرات تطورا هاما فى نظام الحكم ، أدى فى نهاية الأمر، إلى ظهور الدولة والشعور بالانتماء إلى وطن ، كأساس لنظام الحكم .

فقد تحولت بعض القرى مع الزمن ، وبطريقة لا نعرفها ، إلى مدن . ثم نجحت إحدى المدن ، بطريقة ما ربما قائمة على القهر ، فى تجميع مدن وقرى أخرى حولها ، فظهر الإقليم . وكان لكل إقليم شعار أو رمز من نبات أو طير أو حيوان ، كان أهل الإقليم يعتقدون أنه يجلب لهم الخير ويمنع عنهم الشر .

ويبدو أن هذه الأقاليم قد خطت خطوات هامة، فى سبيل تنظيم العلاقات الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية داخل الجماعة ، وفى تحديد أسس وتقاليد المجتمع البشرى ، وبيان حقوق الفرد وواجباته . وهى فى كل هذا ، كانت تقترب بطريقة تدريجية من فكرة "السلطة العامة " و" الدولة ذات السيادة " .

ومع الزمن بدأت الأقاليم فى الاندماج، ربما بدافع المصلحة المشتركة وربما تحت وطأة القوة ، فى دويلات أو ممالك تمثل نطاقا أكبر من الأقاليم الفردية التى تشكلها. ثم انتهى الأمر، إلى اندماج هذه الدويلات فى مملكتين، إحداهما فى شمال مصر وشعارها التاج الأحمر ، والأخرى فى جنوب مصر ، وشعارها التاج الأبيض . وهناك اعتقاد واسع الانتشار بين الباحثين ، بأن توحيد مصر فى عصر الملك " منا" (نارمر) لا يمثل الوحدة السياسية الأولى التى عرفتها مصر ، بل سبق ذلك محاولات لتكوين وحدة سياسية ، قد يكون أولها قد تحققت قبل عصر " منا " بألف عام ، حيث عرفت مصر أول حكومة مركزية فى تاريخها وتاريخ البشرية قاطبة ، وأن هذه الحكومة اتخذت من " أون " (هليوبوليس) عاصمة لها .

والراجح أن هذه الوحدة لم يقدر لها البقاء، إذ انقسمت مصر على نفسها ، إلى مملكتين إحداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب . والراجح أن العصر الذى أعقب انهيار وحدة مصر ، كان عصر منازعات وحروب ، لا شك أنها تركت آثارا سيئة على حضارات مصر ، وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية [1].

١- عبد العزيز صالح ، الشرق الادنى القديم، ... سبق ذكره ، ص ٦٦ - ٧٢. وأحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٤٨-٥٦، حيث يشير إلى أن مدينة "بوتو" (تل الفراعين) كانت عاصمة الدلتا أما عاصمة الصعيد فكانت الكاب.

ثم جاء " منا " ليوحد القطرين ويلبس التاجين ، مؤرخا بذلك بداية تاريخ مصر الفرعونية .

هذا ، وقد شهد هذا العصر بداية ظهور التفاوت فى الثروة والدخل ، وانعكس ذلك فى التباين الواضح فى نوع المساكن ومحتوياتها ، وكذلك المقابر ومحتوياتها ، واتسع نطاق الملكية الفردية فى العقار والمنقول .

ويمكن القول إن هذا التفاوت فى الثروة ، كان مقدمة لانقسام المجتمع إلى طبقات عدة . كما ظهرت خلال هذا العصر طبقة أهل الحرف أو الصناعات ، إلى جانب المزارعين والرعاة والتجار . وكان الحرفيون ينقسمون إلى طوائف عديدة . وهكذا شهد هذا العصر مولد أول طبقة لعمال الصناعة فى تاريخ الإنسانية .

ولكن على الرغم من تفاوت الأفراد فى الثروة ، فيمكن القول إن مستوى معيشة غالبية أفراد الشعب قد تحسن بشكل ملحوظ ، وكثر الاهتمام بوقت الفراغ والمتعة ، كما يتضح من كثرة أدوات التسلية والزينة التى وجدت ضمن مخلفات هذا العصر .

وهناك أدلة على قيام نوع من التعاون بين السكان ، على قدر لم يكن مألوفا من قبل . فعند أطراف مدينة المعادى أقيمت مخازن ومواقد كبيرة لخدمة السكان جميعا . ويبدو أن ظروف الدلتا كانت تفرض التعاون بين السكان أكثر من الصعيد ، نظرا لما يقتضيه التحكم فى الفيضان ، وحماية القرى والمدن فى تلك السهول الواسعة المكشوفة ، من جهود مشتركة وتعاون دائم .

ثالثا : مواطن حضارة هذا العصر :

يميل بعض الباحثين إلى الاعتقاد بتعدد الأنماط الحضارية التى عرفها عصر ما قبل الأسرات ، وأنه ليس من الحكمة أن نؤكد وحدة حضارة مصر خلال هذا العصر . ولكن على الرغم من تعدد أنماط الحضارة ، فإن الراجح هو عدم وجود اختلافات حضارية ذات أهمية بين الحضارات المختلفة ، التى وجدت فى مصر خلال هذه الحقبة. كما أن من المحتمل أن هذه الحضارات قد أخذت فى التقارب ، واتخاذ نمطا حضاريا

واحدا فى المراحل المتأخرة من هذا العصر ، بحيث يمكن القول بان مصر عرفت وحدتها الحضارية قبل أن تتحقق وحدتها السياسية والدينية فى عصر " منا " .

وتمثل "حضارة العمرة"[١]، غرب النيل قرب قنا، والتى تعرف أيضاً "بنقادة(١)"الحضارة القديمة لعصر ما قبل الأسرات، فى حين تمثل "حضارة البدارى" بداية استخدام الأدوات النحاسية وإحلالها تدريجيا محل الفأس اليدوية. بينما تمثل "حضارة جرزا" قرب بنى سويف، والتى تعرف أيضاً "بنقادة"(٢)، المرحلة الوسطى لحضارات عصر ما قبل الأسرات. بينما تعتبر "حضارة سمانية" ممثلة لمرحلة المدنية فى حضارات هذا العصر. وإذا كانت "حضارة سمانية" متممة "لحضارة جرزا"، فانها تمثل فى نفس الوقت، مرحلة الانتقال إلى الحضارات التاريخية. وقد وجدت اثار حضارات هذا العصر فى مناطق كثيرة من الصعيد ومصر الوسطى والفيوم، وفى أماكن متفرقة فى شمال مصر كالمعادى وقرية "العمرى" ومرمدة بنى سلامة.

وقد تميز هذا العصر بزيادة الاتصال بين المراكز الحضارية فى مصر، وبين مصر والخارج، سعيا وراء التجارة والمواد الأولية ، مثل الأصواف والمعادن والأحجار الكريمة وبعض الأخشاب. كما تقدمت خلال هذا العصر طرق المواصلات بشكل ملحوظ، وخاصة الطريق البرى بين النيل والبحر الأحمر، حيث يستخرج النحاس والذهب، كما تقدمت وسائل النقل البحرى وصناعة السفن.

والراجح أن الاختلافات العنصرية بين أهل الدلتا والصعيد، والتى سبقت الإشارة إليها، قد استمرت خلال هذا العصر. وأن حضارات شمال مصر كانت أرقى على العموم من حضارات الصعيد، كما أن المدن والقرى كانت أكثر فى الدلتا.كما يعتقد البعض أن الكتابة بدأت فى شمال مصر. كما أن هناك احتمال وصول أهل الدلتا إلى أول تقويم للزمن عرفته البشرية، حوالى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد، أى قبل قيام الأسرة الأولى بحوالى ألف عام. وكان اختراع التقويم استجابة

---

(١) وجدت فى النوبة، وفى المنطقة الممتدة من أسيوط حتى أسوان، وفى مصر الوسطى فى المنطقة الممتدة من الفيوم إلى بنى سويف، وفى الصحراء الشرقية عند ثنية قنا، وفى حلوان فى وادى حوف.

لنظام الفيضان وظروف الزراعة. وهذا دليل قوى على مدى النضوج الذى بلغه الفكر الإنسانى فى مصر خلال هذا العصر. والظاهر أن اكتشاف التقويم أو حساب الزمن، قد حدث فى نفس الوقت الذى عرفت فيه الكتابة.

وقد استدل على اهتداء الإنسان إلى الكتابة، من الآنية الفخارية لعصر ما قبل الأسرات. فقد وجدت على هذه الاوانى علامات كثيرة تدل على مالكها أو على محتوياتها. كما عثر قبل الأسرة الأولى، على أسماء مدونة لملوك حكموا قبل "منا". كما عثر على أدوات الكتابة كاملة فى عهد الأسرة الأولى ، الأمر الذى يدل على أن نشأة الكتابة ترجع إلى ما قبل الأسرة الأولى . كما عثر فى المعادى على مساكن مستطيلة الشكل، تعتبر صورة طبق الأصل، للحروف الهيروغليفية التى استخدمتها مصر الفرعونية للدلالة على الدار. كذلك ترجع بعض العلامات الهيروغليفية المألوفة إلى العصر الذى تمثلة "حضارة جرزا"[1].

ومن الجدير بالذكر ، أن حضارات عصر ما قبل الأسرات، كانت وثيقة الصلة بحضارات العصر الحجرى الحديث . فمن المعروف الآن، أن "حضارة البدارى" كانت على صلة وثيقة بحضارات العصر الحجرى الحديث فى ديرتاسا والفيوم، وأن بعض عناصر "حضارة المعادى" كانت مستمرة فى "حضارة مرمدة بنى سلامة"، التى تمثل حضارة العصر الحجرى الحديث فى الدلتا. ومما يؤيد هذا الاستمرار الحضارى من العصر الحجرى الحديث إلى عصر ما قبل الأسرات، بعض الأدلة المستمدة من تقاليد العقائد الدينية التى استمرت، مع بعض التطور خلال كل هذه العصور. فطريقة الدفن لم تتغير كثيراً، وتقديس الحيوانات وعبادتها، وهى من العادات التى بدأت فى العصر الحجرى الحديث ، قد استمرت فى عصر ما قبل الأسرات والعصر التاريخى. كذلك بدأ الإيمان بالبعث والحياة الأخرى، فى عصور موغلة فى القدم واستمر عبر التاريخ بعد ذلك.

---

١ - لمزيد من التفصيل حول نشأة وتاريخ ومكان اللغة والكتابة الهيروغليفية، والعلاقة بينها وبين اللغات السامية والحامية، أنظر: . Gardiner , op.cit , Chapter 11, the Egyptian Language and Writing , pp. 12-26

فضلاً عن هذا، فسوف يتضح لنا فيما بعد، أن الدعائم الأساسية لحضارات العصور التاريخية، قد وضعت فى عصر ما قبل الأسرات، التى تعتبر حضاراته المقدمة الضرورية لحضارة مصر الفرعونية.

وهذه كلمة موجزة عن بعض حضارات هذا العصر.

حضارة البدارى :

سبق القول إن حضارة البدارى قد شهدت تطوراً هاماً فى أدوات الإنتاج، تمثل فى بداية استخدام النحاس فى صناعة أدوات جديدة، أخذت تحل تدريجياً محل الفأس اليدوية. وقد مكن هذا التقدم فى طرق وأدوات الإنتاج، أهل البدارى من استغلال ثروتهم النباتية بطريقة أكثر تقدما. كما شهدت البدارى ارتقاء صناعة الأوانى إلى حد الإعجاز، حتى بالمقارنة بمستويات العالم المعاصر، وانتشار وارتقاء أدوات الزينة، وصناعة القوارير والملاعق، كما تميز البداريون بمهارة فائقة فى الغزل والنسيج.

وقد اعتمد البداريون فى حياتهم على الزراعة والرعى والحرف، والمعتقد أنهم كانوا من أرقى الجماعات التى عاشت فى هذا العصر.

وكان البداريون على صلات تجارية بشرق البحر المتوسط وبسيناء[1].

حضارة العمرة أو نقادة(١) :

تمثل حضارة "العمرة" مرحلة حضارية مستقلة. وتؤكد آثارها زيادة العمران والثروة، الأمر الذى يدل على أن كفاح الرعيل الأول من بناة الحضارة، كان قد بدأ يعطى ثماره. كذلك تدل آثارها على أن الزراعة قد أخذت فى الانتشار، وبدأ التفاوت فى الثروة بين طبقات المجتمع فى الظهور، كما استدل على ذلك من التباين الواضح فى المساكن ومحتوياتها والقبور ومحتوياتها، كما تعددت وسائل التسلية والمتعة وارتقت الفنون.

١- Brunton, and Caton-Thompson, the Badarian Civilization,1928 and Redman ,C., The Rise of Civilization,op cit., pp281-283.

وأحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٣٩-٤٢.

وقد تميزت المرحلة الحضارية التى تمثلها هذه الحضارة بظهور المدينة كأساس للتجمعات البشرية[١].

حضارات جرزا أو نقادة (٢) :

تعتبر هذه الحضارة مرحلة حضارية أكثر رقيا، من الحضارات الأخرى التى عرفها هذا العصر، كما يستدل على ذلك من آثارها ، التى تعكس تقدما ملحوظا فى المظهر المادى والمعنوى للحياة، وتعدد الحرف، وارتقاء أدوات الإنتاج والمنتجات ، وبداية استيراد بعض السلع من الخارج، لعدم توافرها فى مصر. وكذلك شهدت جرزا اتساع نطاق تقسيم العمل والتخصص. كما شهدت هذه المرحلة، ارتقاء وسائل المواصلات، خاصة النقل النهرى[٢].

وكان من أهم الصناعات التى ارتقت بشكل ملحوظ صناعة الفخار، التى تعتبر خير شاهد على درجة الرقى التى وصل إليها أهل جرزا، حتى عرفوا فى تايخ الحضارة "بشعب الفخار الملون". وكذلك ارتقت صناعة الزجاج وفن أو صناعة النحت .

رابعاً : موارد الثروة ومظاهر النشاط الاقتصادى :

اعتمد غالبية سكان مصر على الزراعة، كما أخذت الصناعات الحرفية والتجارة فى الانتشار، كمصدر أساسى للدخل فى المرحلة المتأخرة من هذا العصر. أما الصيد، فقد أخذ يفقد أهميته تدريجياً، وخاصة فى أواخر هذا العصر، نتيجة انقراض أو هجرة الكثير من الحيوانات إلى الجنوب.

وهذه كلمة موجزة عن الزراعة والصناعات الحرفية فى هذا العصر.

(١) الزراعة وتربية الحيوان :

على الرغم من كثرة المستنقعات وأحراش الغاب والبردى فى هذا العصر، وخاصة فى منطقة الدلتا، إلا أن مساحة الأراضى المزروعة قد اتسعت بشكل ملحوظ.

---

(١)و(٢) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، سبق ذكره، ص ٥٤ - ٦٤ وكذلك :

Petrie, The Wisdom of Egyptians , London, 1940, p. 41 and Perhistoric Egypt , op cit., p .16

وقد تميزت المرحلة المتوسطة من هذا العصر، والتى تمثلها "حضارة جرزا"، باتساع مساحة الأراضى الزراعية وتقدم الزراعة، مما أدى إلى زيادة الإنتاج الزراعى بشكل ملحوظ، وتراكم فائض الإنتاج عند بعض المزارعين. وقد أدى هذا بدوره إلى تزايد أهمية التجارة كوسيلة لتصريف هذا الفائض. والراجح أن الثروة النباتية لم تكن تختلف كثيراً عن تلك التى عرفتها المرحلة الحضارية السابقة، وإن كان الإنسان قد عرف خلال هذا العصر النخيل والجميز والتين والخوخ[1].

وقد اتسع نطاق استئناس وتربية الحيوانات، مثل الأغنام والأبقار، للاستهلاك والإنتاج. كما عاشت فى مصر بعض الحيوانات المفترسة ، مثل فرس البحر والتمساح والغزلان والاسود والذئاب والخنازير البرية، ولكن أهميتها تضاءلت فى أواخر هذا العصر، الأمر الذى أدى إلى تدهور مركز صيد الحيوانات فى اقتصاديات مصر فى أواخر هذا العصر.

(٢) الصناعات الحرفية والاستخراجية :

شهدت مصر خلال هذه الفترة، تقدما ملحوظاً فى الكثير من الصناعات الحرفية، كما تقدمت طرق وفنون الإنتاج وأدواته، وارتقى مستوى المنتجات إلى درجة لم تعرفها مصر من قبل ، كما اتسع نطاق تقسيم العمل والتخصص الحرفى وتعددت مظاهره، كما بدأ الحرفيون فى تشكيل الطوائف.

وقد ارتقت خلال هذا العصر صناعة الأوانى الفخارية والأدوات الحجرية وأدوات الزينة عما كانت عليه . فضلاً عن هذا، فقد بدأت الصناعات المعدنية فى الظهور، وزادت أهمية الصناعات الاستخراجية، كتعدين النحاس والذهب وقطع الأخشاب.

---

(١) كان هناك اعتقاد أن الزراعة وصلت إلى مصر من الخارج، وأن ذلك تم فى عصر ما قبل الأسرات، ثم اتضح خطأ هذا الرأى بعد الكشف عن "حضارة الدارى" الزراعية، وحضارات العصر الحجرى الحديث. فقد اتضح أن أهل الفيوم ومرمدة بنى سلامة كانوا أول زراع فى التاريخ ومن أوائل من استأنس الحيوان ورباه. وربما كانت معرفة مصر للزراعة ترجع إلى عهد غاية فى القدم، مصطفى عامر، المرجع السابق ص ٦٨وألدريد (سيريل) ، الحضارة المصرية. ترجمة مختار السويفى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٢، ص ٦٣ ٧٨ ، وكذلك : Redman , op . cit. , p . 282

ويبدو أن الصناعات كانت تميل إلى التوطن بالقرب من مصادر المواد الخام. ومن الأمثلة على ذلك توطن صناعة الأدوات الحجرية قرب المحاجر، وإن كانت عملية صقل وتهذيب هذه الأدوات، كانت تتم داخل المدن أو القرى ، بعد أن تكون المواد الخام قد فقدت جزءاً كبيراً من وزنها. كذلك يبدو أن صناعة أدوات الزينة كانت تميل هى الأخرى إلى التوطن فى مناطق جمع الأصداف، مثل منطقة البحر الأحمر أو وادى الحمامات، حيث كانت تصنع الأساور ثم ترسل بعد ذلك إلى الأسواق فى منطقة الوادى.

وهذه كلمة موجزة عن بعض الصناعات.

صناعة الأدوات الحجرية :

وصلت هذه الصناعة إلى درجة عظيمة من الاتقان والرقى، وتعتبر تجسيداً رائعا لمهارة الإنسان. وقد تنوعت منتجات هذه الصناعة بشكل ملحوظ. إذ بدأ الصناع فى إنتاج السكاكين ذات المقابض التى تكسوها طبقة رقيقة من الذهب، خاصة فى منطقة الفيوم والمعادى. ولعل أجمل منتجات هذه الصناعة فى عصر ما قبل الأسرات، كانت الآنية الحجرية المصقولة التى أنتجتها الفيوم، والتى تعتبر من أجمل وأروع ما أنتج الإنسان فى كل تاريخه الحضارى. وتقدمت هذه الصناعة فى البدارى وجرزا والعمرة. كما بدأت صناعة التماثيل الحجرية فى الظهور.

صناعة الآنية الفخارية :

استمرت صناعة منتجات الفخار، كالقدور التى تصنع من طمى النيل كما كانت عليه فى العصر السابق، ولكنها حققت قدراً ملحوظاً من التطور فى أنواعها وأشكالها، وارتقت درجة جودتها وقوى الاتجاه نحو تلوينها. ويمكن أن نفسر هذا بالتقدم الذى حققته طرق إنتاج الآنية الفخارية. إذ اتضح أن أفران حريق الفخار كانت محكمة الغلق. كما هو الحال فى الأفران التى وجدت فى منطقة المعادى. ولكن على الرغم مما حققته هذه الصناعة من تقدم، فقد ظلت يدوية، ذلك لأن عجلة صانع الفخار لم تكن قد اكتشفت بعد. ومن الراجح أن صناعة الآنية الفخارية كانت حرفة المرأة[1].

١- ألدريد ، سبق ذكره ، ص ٧٤-٧٨.

صناعة منتجات العاج والصدف :

كان لهذه الصناعة شأن كبير عند البداريين وأهالى العمرة وجرزا، وكان من أهم منتجاتها المثاقب والأبر والدبابيس والأساور والخواتم، وكذلك التماثيل الصغيرة.

الصناعات الخشبية :

لم يعثر المنقبون ضمن آثار هذا العصر، إلا على القليل من منتجات الخشب لسرعة تلفه بمرور الزمن. وقد وجد هذا القليل فى البدارى والمعادى. ومن المحتمل أن هذه الصناعة لم تتقدم كثيراً خلال عصر ما قبل الأسرات، نظراً لرداءة الأخشاب المصرية ، بسبب خشونتها وشدة جفافها واتسامها بالقصر والالتواء. وقد اعتمدت مصر على الأخشاب المستوردة، مثل الأرز والأبنوس، لمواجهة حاجتها من الأخشاب الجيدة.

وعلى الرغم من رداءة الأخشاب المصرية ، فقد برع النجار المصرى فى الاستفادة منها ، من خلال تعديل وتطوير طرق الإنتاج، حتى تتناسب مع خصائص هذه الأخشاب.

وقد استخدم الخشب فى صناعة بعض الأدوات، التى كانت تحتاجها الصناعات الأخرى، وفى صناعة الأثاث والسفن.

التعدين والصناعات المعدنية :

لعل من أهم التطورات التى حدثت فى هذا العصر، هو معرفة المعادن واستخدامها فى الصناعة، وإن ظل ذلك على نطاق محدود . وقد استخدم النحاس فى صناعة بعض أدوات الإنتاج اللازمة لبعض الصناعات الأخرى، مثل صناعة المنتجات الخشبية . فضلاً عن هذا فقد سهل استخدام النحاس فى صناعة بعض الأدوات، عملية قطع الأخشاب.

وكان المصريون يستخرجون النحاس من مناجمه فى الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سيناء، وقد برعوا فى طريقة الحصول عليه من مناجمه، على الرغم من الظروف القاسية التى سادت مناطق تعدينه . وقد اعتمدوا فى البداية على طرق هذا

المعدن بمطارق من الخشب، ثم عرفوا فيمـا بعد طريقة صهره وتحويلـه إلـى سبائك باستخدام النار والتيارات الهوائية . وقد وجد فى منطقة المعادى بعض سبائك النحـاس غير المصنوعة، إلى جانب بعض المنتجات تامة الصنع [١].

ومن أهم منتجات هذه الصناعة الفؤوس والأزاميل والحـراب والسكاكين. وقد أدى التطور الذى حققته هذه الصناعة، إلى ظهور طبقة من الصناع، هى التـى أكسبت مصر شـهرتها البـارزة ، فـى صناعـة الآنيـة وأدوات الإنتـاج والأسـلحة ذات الطـابع المصرى فى العصر الفرعونى.

كذلك بدأ خلال هذا العصر استخدام الذهب والفضة. وكان المصريون يحصلـون على الذهب من مناجمه فى الصحراء الشرقية. أما الفضة فكانت تستورد من الخـارج، نظراً لعدم وجودهـا محلياً، الأمـر الـذى يقطـع بوجـود علاقـات اقتصاديـة مـع العـالم الخارجى، حتى فى هذا العصر المبكر[٢].

وعلى الرغم من أن المصريين قد عرفوا الحديدفى عصر ما قبـل الأسـرات، إلا أنهم لم يتوصلوا إلى خواصه الحقيقيـة، ولهـذا لـم يستخدم فـى الصناعـة إلا فـى عهـد الأسرة الثانية عشر.

صناعات اخرى :

كذلـك تقدمـت خـلال هـذا العصـر، بعـض الصناعـات التـى ظهـرت فـى عصـور سابقة، مثل صناعة الجلود، وغزل ونسيج الكتان، وصناعة أدوات الزينة التى تنوعـت منتجاتها مثل الأساور والخواتم والأمشاط والقـلائـد والعقـود. كمـا ظهـرت فـى هـذا العصـر صـناعة مساحيق التجميل الحمـراء والخضـراء والسـوداء. وعرفـت النسـاء استعمال كحل العيون واللون الأحمر للشـفاه . وتـدل منتجـات هـذه الصناعـة، وخاصـة الخرز المطعم بالمينا على مهارة فائقة . كما ارتقـت صناعـة مـواد التلويـن والأصبـاغ وصناعة السلاسل والحصر والحبال.

(١) عرفت طريقة استخراج النحاس وتحويله إلى سبائك وتصنيع السبائك، من الصور التى تمثل مراحـل استخراجه وتصنيعه، بين آثار حضارات هذا العصر.

(٢) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٥٧.

وخلال هذا العصر بدأ الأنسان محاولاته الأولى لصناعة القيشاني. كما ارتقت الفنون وأخذت تحتل مكاناً بارزاً، كما يتضح من الصور الملونة والنقوش والتماثيل المصنوعة من الحجر والعاج، والتى تمثل أشخاصاً أو حيوانات لم يعد لها وجود في مصر. ويصل الفن البدائي إلى ذروته ، في المرحلة الحضارية التى تمثلها جرزا، كما يظهر من الصور الملونة، والرسوم المنقوشة، والنقوش الهندسية، وأشكال الحيوانات والنباتات التى كان يزين بها الفخار. وبعض هذه الصور تمثل مناظر للصيد والحرب. كما صنع أهل جرزا نماذج من الصوان للحيوانات ، بعضها في غاية الروعة والجمال[١].

وقد أدت زيادة الثروة القومية إلى تحسن واضح في مستوى المعيشة. إذ نرى مساكن جرزا، وقد توافرت فيها جميع عناصر فن البناء، من سقوف وأبواب ونوافذ، وقسمت من الداخل إلى أقسام، بكل منها موقد ومخازن محفورة في الأرض وقدر من الفخار. هذا في حين كانت مساكن العصر السابق بسيطة ومشيدة من الأغصان والطين. كما أدت زيادة الثروة القومية إلى زيادة السكان ، كما يتضح من آثار حضارة المعادى، التي اتسمت بازدحام المساكن وكثرتها، والمساحة الكبيرة التى تشغلها[٢] كذلك هناك أدلة على زيادة السكان في حضارة جرزا .

كما يمكن أن يستدل على زيادة الثروة القومية وتحسن مستوى المعيشة، من الحالة التى كانت عليها المقابر ومحتوياتها خلال هذا العصر. فقد بدأ علية القوم يشيدون مقابر أكثر عظمة وأكثر روعة، كما كثر الأثاث الجنائزى مثل الأدوات والأسلحة التى كان يستخدمها الإنسان في حياته.

---

(١) ثروت عكاشة، تاريخ الفن، الفن المصرى القديم، الجزء الأول، العمارة، الهيئة المصرية للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٠، ص١١٤ وما بعدها.

(٢) مصطفى عامر، المرجع السابق، ص ٧٣، وعبد العزيز صالح ، الشرق الدنى القديم ، سبق ذكره ، ص ٤٧-٨٠. وأحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٤٨ - ٧٢.

Badawy , op . at., pp - 15- 23.

خامساً : العلاقات الاقتصادية الخارجية:

قويت صلات مصر بالمناطق المجاورة خلال هذا العصر. فكانت تحصل على النحاس والأصداف والأحجار الكريمة من منطقة البحر الأحمر، وكانت تستورد الذهب من النوبة، والنحاس والمنجنيز من سيناء، والقار من البحر الميت، والفضة وبعض الأحجار الكريمة والأخشاب الجيدة من بلاد غرب آسيا واليونان.

كذلك هناك ما يقوى احتمال وجود صلات بين مصر والجزء الغربى من شمال إفريقيا مثل الجزائر، وكذلك جنوب أوربا، ومنطقة الهلال الخصيب والعراق.

ويفسر البعض هذه الصلات بأن مصر كانت خلال هذا العصر، قد بدأت تحس بحاجتها إلى بعض المواد الأولية التى لم تكن موجودة لديها، ومن ثم عملت على استيراد هذه المواد وأغلبها سلعاً عالية القيمة، من الخارج [١].

---

(١) مصطفى عامر، المرجع السابق ذكره، ص ٧٦، وألدريد، المرجع السابق، ص ٦٣ -٧٨، وأحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٥٣ وكذلك : الاتجاهات الحديثة فى المباحث التاريخية والأثرية الخاصة بالشرق القديم، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث، العدد الثانى، أكتوبر ١٩٥٠، ص ٦ - ١١ لمزيد من التفصيل أنظر :

Elliot Smith, 9. the Ancient Egyptians and the Origin of Civilization , 2nd, London 1923 and Human History , London 1930, Frankfort , the Birth of Civilization in the Near East, pp.43,50 and 100-101. and Baumgartel, E J , the Culture of Prehistoric Egypt, pp.25 and 48.

الفصل الثالث

مصر الفرعونية : مولد مدنية الإنسان الأولى

تمهيد:

تواضع مؤرخو مصر الفرعونية[1]، على تقسيم تاريخها إلى عدة عصور[2]، لكل منها سماته التى تميزه عن غيره ويمكن إجمال هذه العصور فيما يلى:

أولاً – العصر العتيق أو العصر الطينى:

ويبدأ حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد، بنجاح " الملك منا " (نارمر) فى توحيد مصر، وتأسيس أول أسرة حاكمة فى تاريخها. وينتهى هذا العصر حوالى عام ٢٩٠٠ قبل الميلاد. ويشمل فترة حكم الأسرتين الأولى والثانية، كما يعرف هذا العصر بعصر الأسرات المبكر.

ثانياً – عصر الدولة القديمة أو عصر بناة الأهرام:

ويبدأ حوالى عام ٢٧٨٠ قبل الميلاد، وينتهى بنهاية حكم الأسرة السادسة حوالى عام ٢٢٣٠ قبل الميلاد. هذا ويدخل البعض الأسرة السابعة، ضمن عصر الدولة القديمة، ولكن الراجح أن الأسرة السابعة تدخل ضمن العصر الوسيط الأول. ويمثل هذاالعصر، فى رأى الكثيرين، مرحلة الخلق والإبداع الحضارى فى تاريخ الحضارة المصرية.

ثالثاً – العصر الوسيط الأول:

يبدأ بالثورة الاجتماعية التى أنهت عهد الدولة القديمة. ويشمل فترة حكم الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة، ويمثل فترة فوضى وانقسام وتدهور حضارى. وقد انهارت خلاله وحدة مصر السياسية وتدهورت أحوالها الاقتصادية.

رابعاً – عصر الدولة الوسطى:

ويبدأ حوالى عام٢١٣٤قبل الميلاد بتولى الأسرة الحادية عشر حكم مصر. وخلالــه استعادت مصر وحدتها السياسية، وشهدت فترة إزدهار اقتصـــادى اقترنت،

---

(١) اشتق لقب "فرعون"، الذى كان ومازال يطلق على ملوك مصر الفرعونية من كلمة مصرية قديمة هى" برعو" أو برنيو" -Per-aa ومعناها البيت العظيم، وكان يطلق على ملك مصر لقب سيد البيت العظيم، ومع الزمن اختصر لقب الملك إلى -PER-AA ولما كانت اللغة العبرية خالية من حرف (P)، فقد أطلق على الملك فى الكتب المقدسة -PER-AA وهذه حورت فى اللغات الأوربية إلى PHARAON وفى العربية إلى فرعون، أنظر : محمود السقا، المرجع السابق، والمراجع المشار إليها فيه، وكذلك عبدالعزيز صالح، المرجع السابق، ص ٨٥-٨٧.

(٢) مازال هناك خلاف بين مؤرخى مصر القديمة، حول تاريخ بداية ونهاية كل أسرة وكل عصر من هذه العصور .

فـى نفس الوقت، بتغيرات عميقة فى الأوضاع والعلاقـات الاجتماعيـة. ويطلق البعض على هذا العصر، عصر الرخـاء الاقتصـادى وعصر الحكم العـادل. ولكـن خـلال فـترة حكم الأسـرة الثانيـة عشـر (حوالـى ١٩٩١-١٧٧٨ قبل الميـلاد) ، أخـذت جحـافل الفوضـى والإنحـلال والظلـم تدمر كل شئ من جديـد، كمـا فقـدت مصـر وحدتهـا، وانقسمت إلى عـدة مقاطعـات، كمـا عرف المغلوبـون علـى أمرهـم من أبنـائهـا، الظلم والاستبداد على يد أمرائهم وسادتهم.

خامساً – العصر الوسيط الثانى:

وخلاله استمر تدهور مصر الحضارى، حتى انتهى الأمـر بسقوط مصـر تحـت جحافل الهكسوس، حوالى عام ١٧٢٥ قبل الميلاد.

سادساً – عصر الدولة الحديثة أو العصر الامبراطورى:

يبدأ حوالى عام ١٥٧٥ قبل الميلاد ، بتولى الملك أحمس الأول عرش مصر وتأسيس الأسرة الثامنة عشر، بعد أن استكمل مسيرة الرعيل الأول من اسرته، وانـهى المحنة التى عاشتها مصر خلال عهد الهسكوس واعـاد إليهـا وحدتهـا . وتـؤرخ بدايـة حكم "الملك أحمس الأول"، بداية أمجاد مصر العسكرية والامبراطورية.

وقد شهد عصر الدولـة الحديثة، اعلاء صـرح الامبراطوريـة وتدعيـم أمجادهـا، على يد ملوك عظام، كان من بينهم " الملـك تحتمـس الأول" و"الملـك تحتمـس الثـالث". كما شهد هذا العصر " ثورة الدين " التى اشعل نارها " اخنـاتون" ، لكـى يمـهد الطريـق إلى اهتداء الانسانية لحقيقة الأزل، أى وحدانية الله جل شـأنه. كمـا شـهد هـذا العصـر أمجاد الرعامسة، خلال عهد الأسرة التاسعة عشر.

ويشمل عصـر الدولـة الحديثـة فـترات حكـم الأسـرات مـن الثامنـة عشـر حتـى العشرين. وينتهى هذا العصر حوالى عام ١٠٨٥قبل الميلاد.

سابعاً – العصر المتأخر:

ولكن يبدو أن امجاد مصر الامبراطورية، واشراقة الحضارة التى بعثتها مصر إلى الدنيا فى هذا العصر، لـم تكـن إلا الصحـوة التـى تسبق المـوت. إذ أخـذت عوامـل

الفناء تعمل فيها من جديد. وخلال عهد الأسرة الحادية والعشرين، فقدت مصر وحدتها السياسية مرة أخرى، لتبدأ عصر ذاقت خلاله مرارة ظلم الأجنبى المحتل.

وخلال العصر المتأخر [1]، بدأت مصر تغفو عن ركب الحضارة، ولم تكن تفيق من هذه الغفوة إلا خلال فترات متقطعة وقصيرة. فقد حكمها أمراء من ليبيا، حتى نهاية فترة حكم الأسرة الرابعة والعشرين. وحوالى عام ٧٢٠ قبل الميلاد، نجح أمراء النوبة فى فرض سيطرتهم عليها، ثم صارت ولاية "آشورية" حوالى عام ٦٧١ قبل الميلاد.

ثم استردت مصر وحدتها، على أيدى احد امراء الأسرة السادسة والعشرين، خلال ما يعرف " بالعصر الصاوى" [2]. وقد حاول أحد ملوك هذا العصر، أن يعيد إلى مصر امجادها وان يبعث الحياة من جديد فى شجرة حضارتها، ولكن هذا الأمل تبدد بهزيمة "الملك نخاو" امام البابليين.

وفى عام ٥٢٥ قبل الميلاد، دمرت جحافل قمبيز الفارسى ما بقى من حضارة مصر، لكى يعجل بشمس حضارتها نحو المغيب. وحوالى عام ٤٠٤ قبل الميلاد، ثارت مصر مرة أخرى من أجل حريتها المفقودة، ونجح حملة لواء الثورة الوطنية فى استعادة هذه الحرية، وأسسوا الأسرة الثامنة والعشرين المصرية.

وقد حاولت هذه الأسرة، كما حاول غيرها من قبل، إعادة أمجاد الغابرين، ولكنها فشلت كما فشل غيرها من قبل فى استعادة أمجاد ماضى ولى.

وفى عام ٣٤١ قبل الميلاد، عاد الفرس إلى مصر مرة أخرى، ولكن حكمهم لم يبق طويلاً. فقد جاء الأسكندر الأكبر إلى مصر ليطرد الفرس ويؤرخ بداية "عصر مصر الهيلينية" فى عام ٣٣٢ قبل الميلاد .

ونفصل فيما يلى ما سبق إجماله .

١- يميل بعض الباحثين إلى اعتبار عصر الأسرة الحادية والعشرين من العصور المتأخرة، ولكن آخرون يعتبرون الفترة من بداية حكم هذه الأسرة حتى نهاية عهد الأسرة الخامسة والعشرين، تمثل فترة انتقال ثالثة تربط بين عصرين "زاهرين": عصر الأسرة العشرين وعصر الأسرة السادسة والعشرين. أنظر لمزيد من التفصيل : عبدالعزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٨٠-٢٨١، الذى يجعل عصر الدولة الحديثة يشمل الأسرة الحادية والعشرين، وينتهى عام ٩٥٠ قبل الميلاد .

٢- نسبة إلى "صاالحجر"فى غرب الدلتا.

المبحث الأول
العصر الطينى : مولد مدنية الإنسان الأول

سبق أن رأينا أن العصر الطينى[١] أو ما يعرف أيضاً بالعصر العتيق، قد بدأ حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد، بنجاح " الملك منا " أو " نارمر" فى توحيد مصر وتأسيس أول أسرة حاكمة فى تاريخها. وينتهى هذا العصر حوالى عام ٢٨٨٠ قبل الميلاد، ويشمل فترات حكم اسرتين الأولى والثانية. ولهذا يعرف أحياناً بعصر الأسرات المبكر.

والراجح أن تحقيق وحدة مصر السياسية والدينية، ثم الحفاظ عليها وتدعيمها لم يكن أمراً ميسوراً[٢]. فقد تكرر تمرد أهل الدلتا على ملوك منف، كما تكررت الحروب بين أهل الشمال وأهل الجنوب.

وقد أدى توحيد مصر إلى خلق الإطار التنظيمى الملائم لازدهار مدنية العصر العتيق، لأن تلك الوحدة مكنت من تجميع القوى للاستفادة من موارد مصر الاقتصادية المادية والبشرية. كما شهد هذا العصر تقدماً ملحوظاً فى نظم الحكم والإدارة، وطرق تدبير شئون الحكم والرعية، كما شهد تقدماً ملحوظاً فى أحوال مصر الاجتماعية والاقتصادية وفى الفنون والآداب.

ونفصل فيما يلى ما سبق إجماله .

النظام السياسى والاجتماعى :

كان الملك قمة التنظيم الاجتماعى والسياسى والإدارى خلال هذا العصر، كما كان يجسد "الإله رع"، كما كانت الملكية هى رمز وحدة البلاد.

وعلى الرغم من تركز السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية فى يد الملك، إلا أن الملكية لم تكن مطلقة مستبدة. فمنذ البداية كانت فكرة العدالة أو "الماعت" فى ضمير مصر، حكاماً ومحكومين، وكان الملوك عموماً يخشون الظلم ويحرصون على تحقيق العدالة، لأنهم سيحاسبون على ذلك فى اليوم الآخر أمام "الإله رع"[٣].

١- نسبة إلى طينة قرب "سوهاج".

٢- يشك بعض الدارسين فى أن مصر حققت وحدتها فى عهد الأسرات الأولى والثانية، ويعتقدون أن مصر ظلت منقسمة إلى مملكتين حتى عهد الدولة القديمة، أنظر فى ذلك جاردنر Gardiner المرجع السابق، ص ١٠٣ وكذلك:
Redman, H, op, cit: ,pp - 256 - 286.

٣- على الرغم من الأساس الدينى الذى قامت عليه الدولة، إلا أن البعض يعتقد انها لم تكن دولة دينية، وهذا ما نرفضه للأسباب التى سوف تتضح فيما بعد، أنظر فى وجهة النظر الأخرى، محمود السقا، المرجع السابق، ص ١١٩ وما بعدها.

وقد وصل النظام الإدارى خلال هذه الحقبة، إلى درجة عالية من الكمال الذى نعهده فى الدول الحديثة المتقدمة. وكان يعاون الملك فى إدارة البلاد وشئونها، عددا هائلا من الموظفين، كان يعينهم بمراسيم ملكية كعمال لديه، وكان يختارهم من المصريين دون الأجانب. والغالب أنهم كانوا يتقاضون مرتباتهم عيناً، ولم تكن الوظائف تورث، كما لم يتمتع الموظفون بأى امتيازات خاصة فى هذا العهد. وقد اتسم موظفى هذا العصر بالوفاء لرؤسائهم، كما اتسموا بالأخلاق الحميدة والأمانة والتواضع الجم.

وكان من أهم الموظفين "المستشار الأكبر"[1] وكان من الموظفين المدنيين دون العسكريين. لأن نظام الحكم كان يمنع تدخل هؤلاء فى الشئون السياسية. كما كان بين الموظفين "كاتم الأسرار"، "ومجلس العشرة الكبار" الذى كان يتكون من عشرة من كبار موظفى الدولة، وكان يرأسه "المستشار الأكبر". وكان من بين أعضائه مديرو الأشغال العامة والمالية والزراعية والتجارة ومياه النيل والرى والتموين. كما كان الملك يعين نائباً له فى بعض المدن التى تمتعت، لأسباب دينية أو سياسية بوضع خاص. فقد كان كاهن "معبد هوليوبولس" نائباً للملك، نظرا لما كان لهذا المعبد من أهمية.

وقد تقدمت طرق الإدارة بشكل ملحوظ، وظهرت الإدارات الحكومية النوعية، مثل إدارة تحصيل الضرائب، وإدارة التسجيلات التى كانت تسجل فيها كافة التصرفات العقارية وعقود الأحوال الشخصية، وإدارة المالية، وكانت تقوم بأعمال كثيرة مثل حفظ المعادن الثمينة. ودفع مرتبات الموظفين، وتخزين الحاصلات الزراعية. أما إدارة التموين فكان من مهامها الرئيسية حفظ المحاصيل القابلة للتلف، وكان يتبعها الكثير من المخازن مثل مخازن القمح والشعير، وكان هناك إدارات خاصة بالجمارك والتجارة الخارجية وإدارة المحاسبات.

١- ويرى البعض أن الملك كان له وزيرا فى عهد الأسرة الرابعة طبقاً للرأى الراجح، وكان هذا اللقب يطلق على نبلاء ذى مكانة وكفاءة ممتازة، ثم أصبح المنصب وراثياً فيما بعد. أنظر فى ذلك :
Gardiner , op. cit , pp.103 - 105.

ومن أهم الإدارت التى وجدت فى هذا العصر مصلحة الأشغال العامة، التى قامت بدور عظيم فى تخطيط وتنفيذ الأبنية العظيمة والآثار الخالدة التى خلفها هذا العصر، وكذلك مصلحة الضرائب وكانت تتكون من إدارتين، الأولى تقوم بمهمة جباية الأموال المستحقة على أهل المدن، والأخرى بجباية الأموال المستحقة على أهل الريف. أما تقدير الضرائب فكان يقوم به "مجلس الأعيان" وفقاً للقانون.

أما من الناحية الاجتماعية، فكان الملك هو أيضاً قمة النظام الاجتماعى، ويلى الملك الكهنة وكبار موظفى الدولة ونبلاء الأقاليم ثم عامة الشعب. ولكن لم يكن لأى طبقة أى امتياز على أخرى، بما فى ذلك طبقة رجال الدين. ويعتقد البعض أن جميع أفراد الشعب، أيا كانت صفتهم كانوا متساوين فى الحقوق أمام السلطة الملكية، وكانت الوظائف مفتوحة أمام الجميع، بشرط أن يكونوا على قدر من الثقافة والكفاءة. ولكن على الرغم من هذا، فقد ظهرت طبقة من كبار الموظفين والكهنة، أثرت من تولى المناصب العامة، كما كان لها نفوذ سياسى واجتماعى ملحوظ[1]. ومن الراجح، أن أفراد الشعب لم يكن لهم حق التمتع بالحقوق السياسية فى مواجهة الملك، بل يذهب البعض إلى الاعتقاد بان غالبية أهالى المقاطعات، عدا طبقة الصناع والتجارة، إنما كانوا أرقاء لأمراء الأقاليم وخاصة فى الصعيد حيث ساد النظام الاقطاعى. ولكن البعض يعترض على هذا الرأى، ويرى أن مصر لم تعرف نظام الرق حتى خلال هذه الفترة من تاريخها. وان نظام الحكم لم يكن الملكية المستبدة، ولكن الملكية المطلقة القانونية، وان الملك كان ملزما باحترام القوانين التى يصدرها بنفسه، ما لم يعدلها بقوانين لاحقة. كما إنه كان مقيداً بالنظم الإدارية والسياسية، وأن العدالة كانت قيداً على سلطات الملك، لأنه من سلالة "حورس" إله الخير، كما أنه يحاسب عن أعماله أمام الإله "رع". وحتى يأخذ الملك طريقه فى رضا إلى رحاب السماء، وجب أن يكون وفيا لمبادىء العدالة والخير.

١- محمود السقا، المرجع السابق، ويرى جاردنر أن خلال هذا العصر بدأ كبار موظفى الدولة يطمحون بأن يرث أبناءهم مناصبهم. أنظر
Gardiner,A,op. cit p. 105.

وقد عبد المصريون، خلال هذا العصر ألهة كثيرة. فسادت عبادة "أوزوريس" "وإيزيس" و "حورس" فى الشمال، وسادت عبادة "ست" فى الصعيد. وفى فترة لاحقة كان "حورس" أكثر الألهة حظوة عند الناس. ثم سادت عبادة "رع"، الذى نسبه الكهنة إلى "أوزوريس" و "إيزيس" و "حورس" . وهكذا تحققت وحدة مصر الدينية، وإن اشتد الصراع بين "رع" و "أوزوريس" فيما بعد.

المبحث الثانى
الأحوال الاقتصادية فى العصر العتيق

على الرغم من أن كثرة الحروب بين الشمال والجنوب فى هذا العصر، نتيجة تمرد أهل الدلتا على سلطة ملوك الصعيد، قد استنزفت الكثير من موارد البلاد وخاصة فى منطقة الدلتا، إلا أنه من المؤكد أن أحوال مصر الاقتصادية قد ازدهرت خلال هذا العصر بشكل ملحوظ. كما يستدل على ذلك من زيادة عدد الأوقاف الملكية، والمعابد، والقصور ومحتوياتها، وانتشار عادة بناء الأسوار حول المدن.

كذلك زاد عدد المدن واتسع نطاقها إلى حد كبير. والراجح أن الزراعة كانت النشاط الاقتصادى الرئيسى فى صعيد مصر، فى حين كانت التجارة وتربية الحيوان وصيد الأسماك إلى جانب الزارعة، أهم الأنشطة الاقتصادية فى مصر عموماً [١].

فضلاً عما سبق، فقد زادت أهمية الحرف والصناعات والتجارة الداخلية والخارجية وخاصة فى منطقة الدلتا، التى كان لها صلات تجارية ببعض مناطق البحر المتوسط والهلال الخصيب . كذلك كانت هناك صلات تجارية بين مصر والصومال.

ويلاحظ أن الصناعة قد ارتقت بشكل ملحوظ . وكان الكثير من منتجاتها فى غاية الجمال. كما ظهرت صناعات جديدة لم تكن معروفة من قبل. لقد ارتقت صناعة الأدوات والأوانى الحجرية الشفافة، خاصة بعد أن بدأت هذه الصناعة تستخدم النحاس فى صناعة أدوات الإنتاج التى اعتمدت عليها.

كما ارتقت الصناعات المعدنية، وصناعة أدوات الزينة، ووصلت حرفة الصياغة إلى مستوى من الجودة كثيراً ما يفوق ما هى عليه الآن. وفى نفس الوقت، اتسع نطاق استخراج المعادن، وعمل ملوك الأسرتين الأولى والثانية على تأمين مناطق التعدين فى منطقة البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء. ولكن يلاحظ أن صناعة الخزف تدهورت خلال هذا العصر عما كانت عليه.

١- Gardiner, A, op. cit, 103 .
وعبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، سبق ذكره ص٨١-١٠٠،خاصة ص ٩١-٩٨، والدريد ، المرجع السابق ، ص ٥٢- ٦٤ .

كما شهد هذا العصر تقدم الهندسة المعمارية وصناعة البناء. والراجح أن هذا العصر قد شهد مولد أول بناء من الحجر عرفه الإنسان. ثم أخذت المبانى الحجرية فى الانتشار فى عهد الأسرة الثانية ، ويبدأ المصريون فى استخدام الخشب فى تغطية أرضية المنازل.

النظام الاقتصادى :

يعتقد البعض أن فرعون مصر كان ملكاً للأرض ومن عليها، ولكنهم فرقوا بين الأراضى الزراعية والأراضى السوداء والأراضى الصحراوية، وأن ما كانت تدره الأرض الخصبة من خير هو ملك للملك وحده، ولكنه كان يقوم بتوزيع جزء منه لغذاء الشعب.

ويذهب هذا الرأى إلى أن مصر خلال هذا العصر لم تعرف الملكية الفردية. وإذا كان الأمر كذلك، فيمكن القول بإن مصر عرفت نظاماً اقتصاديا يمكن وصفه بأنه "الاحتكار الملكى" أو "رأسمالية الملك"، الذى كانت شخصيته تجسد الدولة.

وقد ذهب رأى آخر، إلى انه على الرغم من أن الملكية كلها كانت ملكا خاصا للملك من الناحية النظرية، إلا أن الأفراد كانوا يتمتعون بحق الانتفاع كمنحة من الملك، الأمر الذى أدى فيما بعد إلى تفتيت أموال الملك وانفصال أموال الأفراد عن أمواله، كما أستدل على ذلك من بعض الوثائق التى ترجع إلى فترة حكم الأسرة الخامسة. كذلك تحول حق الانتفاع الذى كان الملك يهبه لبعض الافراد، إلى ملكيه خاصة لهؤلاء وخاصة فى العصر الاقطاعى.

وإلى جانب هذا، وجدت "حقوق ألإله" والتى كانت تتمثل فى مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية، التى كانت توقف على المقابر والمعابد، ويقوم رجال الدين بالإشراف عليها، مقابل جزء من ريعها. ولم يكن فى الإمكان التصرف فى هذه الأوقاف الدينية بأى نوع من أنواع التصرفات. ومع الزمن زادت سيطرة الكهنة على هذه الأرض، الأمر الذى أدى إلى فقدان الملك ملكية هذه الأرض، فأصبحت ملكا خاصا للكهنة.

ويذهب رأى آخر إلى أن الأفراد كان لهم حق الملكيــة الفردية علـى الأراضـى الزراعية، وإن الأراضى لم تكن كلها مملوكه للملك. وهناك الكثير من الأدلة التى تؤيـد هذا الرأى (١).

ويعتقد أن خلال هذا العصر، تم القضاء على النظام الإقطاعى وطبقة الأشـراف القديمة التى كانت تتكون من الملاك الزراعيين، ولكن بقايا النظام الإقطاعى الذى سـاد قبل بداية عصر الأسرات، ظلت موجودة فى صعيد مصر.

ويلاحظ أيضاً، أن الدولة كانت تقوم بدورا هاما فى النشاط الاقتصادى، وكثيراً مـا كـانت المشروعات الاقتصاديــة ملكـا لهـا، كمـا هـو الحـال بالنسـبة للصناعـات الاستخراجية والتعدين وبعض الحرف. كما كانت الدولة توظف عدداً كبيراً من العمـال، الذين كانوا يعملون فى مشروعاتها المختلفة بما فى ذلك خدمة المعابد والمقابر.

١- أنظر فى تفصيل هذا الخلاف، محمود السقا، المرجع السابق، ص ١٢٦-١٣٢ ، شفيق شحاته، تاريخ القانون الخاص فى مصر، صوفى أبو طالب، مبادئ تاريخ القانون، ص ٢، وعبد العزيز صالح، الأرض والفلاح فى مصر الفرعونية، سبق ذكره، ص ١٩ - ٢٢.

المبحث الثالث

عصر الدولة القديمة أو عصر بناة الأهرام :

ذروة الخلق والإبداع الحضارى

تمهيد :

يبدأ هذا العصر مع بداية عهد الأسرة الثالثة حوالى عام ٢٧٨٠ قبل الميلاد، وينتهى بنهاية الأسرة السادسة حوالى عام ٢٢٨٠ قبل الميلاد.

ويمثل هذا العصر، فى وضوح صارخ، ذروة الخلق والإبداع المادى والروحى فى تاريخ مصر الفرعونية. وقد وصف فيلسوف التاريخ ، " ارنود توينبى" "والآن جاردنر""Gardiner" مؤرخ مصر الفرعونية العظيم، عصر الدولة القديمة بأنه يمثل واحدة من اعظم المدنيات التى عرفتها الإنسانية حتى اليوم. فخلال هذا العصر بلغ الخلق الحضارى ذروته، بحيث استنزف قدراً كبيراً من طاقات مصر الخلاقة ومواردها لقرون عديدة.

لقد تمثلت القدرة على الخلق والإبداع ، فى تضافر القوى البشرية ، فى الأداء الهندسى العبقرى الفذ الذى عرفه هذا العصر، وجسدته فى روعة بالغة أهرام الأسرة الرابعة فى الجيزة ، التى وصفها "جاردنر" بأنها تجسيدا خالدا للقوة الهادفة وعبقرية الأداء الهندسى، الذى لم يعرف مثيلا له ، فى اى زمان أو مكان[1]،[2].

كما تمثلت القدرة على الخلق والإبداع فى الجانب الروحى، فى انتشار عبادة "الإله رع"، وبلوغها أوج عظمتها، وهى تحرر الطاقات الكامنة فى الإنسان لكى يشيد أول هرم فى التاريخ ليكون سكنا "للإله رع". كما شهد هذا العصر

١- Gardiner, op.cit,p.76

٢- على الرغم من مرور نحو أربعين قرناً على بنائها ، فلا زالت حتى يومنا هذا ، تكشف عن الكثير من الألغاز العلمية ، التى تحير الإنسانية وتثير فضولها . ومن هذه الألغاز ما أكده بعض الدارسين ، أن اى طعام يوضع فى الهرم يجف مع الزمن، ولكنه لا يفسد إطلاقاً . انظر لمزيد من التدقيق :

Petrie, F., The Pyramids and Temples of Giza, 1898 and Edwards, I.E.S The Pyramids of Egypt, 2nd. edition, London, 1967, and Stevenson Smith, w.,A History of Egyptian Sculpture and Painting in the Old Kingdom, Oxford , 1946.

انتشـــار عبادة "اوزوريس"، الإله الطيب شهيد الخير. تلك العقيدة، التى تمثل عبقريـة وحكمة المغلوبين على أمرهم، فى الاهتداء إلى وسيلة تحقق لهم الخلود، وتضمن لهـم الخلاص من محنة واقع أليم.

أولاً: فلسفة ونظام الحكم :

شهدت المرحلة الأولى من هذا العصر، وبصفـة خاصـة فترات حكـم الأسرتين الثالثة والرابعـة، ظهور ملوك عظام أقوياء، حملوا رسالة الخلق والإبداع. وقد توخى هؤلاء ، وان كـان ذلك بدرجـات متفاوتـــة، العدالة دائما فى حكم رعاياهم. لقد عاشت فكرة "الماعت"، أى العدالة أو الحق، فى ضمير مصر وملوكها. وعلى الرغم من تمتـع ملوك هذه الفترة بسلطات مطلقة، إلا أن حكمهم لم يكن استبدادياً على الإطلاق.

كـان الملـك قمـة التنظيم السياسى والاجتمـاعى ، وكـان وحـده مصـدر كافـة السلطات، لأنه استمد هذه السلطات من "الإله رع" الذى انحدر الملـك مـن صلبـه . كمـا كان الملك التجسيد البشرى لهذا الإلـه علـى الأرض. ولهـذا اقترن أسـماء ملـوك هـذا العصـر باسـم الإلـه "رع" والمثـل علـى ذلك الملـك "خفـرع" والملـك "منكـاورع". وكـــان الجالس على عرش مصر، والتزاما بالتقاليد الملكية المقدسة، ملزماً بالزواج من أخته، حتى يظل الدم الملكى نقياً[١].

وكان الملك هو صاحب الحق فى اختيار موظفيه، الذين كانوا عماله يستمدون سلطاتهم واختصاصاتهم من ذاته الملكية، ولا يسألون إلا أمامه.

وعلى الرغم من حقهم المطلق فى اختيـار موظفيهـم، إلا أنهـم كـانوا يلتزمون دائما بما تفرضه القوانين واللوائح، التى وضعوهـا هـم انفسـهم، والتـى كـانت تفـرض اختيـار الموظفين مـن المصريين دون الاجـانب. كمـا كـانت تستلزم اتسـامهم بالثقافـة والعدل والامانة والتواضع وحسن الخلـق والقـدرة علـى الصمـت فـى جميـع الظـروف، والكياســـة فى التعـامل مع الآخـرين[٢]. ولعل هذا يفســـــر الإنجازات الرائعة التى

---

١ - تصور بعض الآثار ، الاله رع ، وقد تقمص شخصية الملك الاب ، وهو يضاجع الملكة الأم ، ليهبها مولودا من صلبه.

٢- صوفى أبو طالب، تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، سبق ذكره، ص ١٨٥ - ١٩٣.وأنظر أيضاً :

Gardiner , op. cit., p.106

حيث يقول :

" ...... the Maxims of the vizier Ptahhotpe, who lived under Izozi of Dyn. v, became justly celebrated . Obedience to a father and a superior were the prime virtues, the ability to keep silence in all curcunstances, tact and good manners in social intercourse, Faithfulness in delivering messages, a humility in fact little short of subservience. If indeed the civil servante of the old Kingdom acully possessed these qualities, it would go far towards explaining the success of one of the best organized civilization that the world has ever seen.

حققتها الدولة القديمة، التى تعد واحدة من أفضل المدنيات المنظمة التى عرفها العالم حتى اليوم. فضلا عن هذا، فلم تكن الوظائف خلال هذه الفترة وراثية. كما كان المصريون جميعاً سواء أمام القانون، ولم يكن هناك امتياز لطبقة على اخرى فى شغل وظائف الدولة. وعلى الرغم من تفاوت حظ طبقات المجتمع المختلفة من النعيم والثراء والنفوذ، الا انهم كانوا جميعاً سواء أمام القانون. أى أن التفرقة لم تكن نتيجة أسباب عرقية على الاطلاق.

وعلى الرغم من أن الملك كان يملك أرض مصر كلها، من الناحية النظرية، الا أن وثائق وآثار هذا العصر تؤكد وجود الملكية الفردية.

ونبين فيما يلى ما اتسم به بعض ملوك هذه الفترة من عدالة :

" الملك زوسر " [1] :

نظر إليه أفراد شعبه باعتباره مبشراً بعهد جديد . ويتضح من " قصة المجاعة" التى حدثت فى العام الثامن من سنوات حكمه ، أن الهم اشتد به ، عندما تفاقمت المجاعة بسبب قصور النيل سبع سنوات ، وسببت الضر والآلام لشيوخ البلاد وشبابها وأطفالها ، وحاول جاهداً أن يعرف سبب محنة شعبه ، وسارع فى تقديم القرابين " للإله خنوم " ، حتى يزيل الضر عن البلاد [٢] .

" الملك سنفرو " :

اقترن اسمه " بالماعت " أو العدالة، إذ كان يسمى " نب ماعت "، أى رب العدالة . واحتفظت آداب العصر، بذكرى عطرة للملك سنفرو ، فلما نعم بها ملك سواه. كما وصفته نصوص هذا العصر، بأنه كان فاضلاً، يحب المعرفة ويكرم العلماء، كما كان متواضعاً خفيف الظل، يحسن الاستماع ولا يأبى ان يسأل عما لا يعرفه .

كما تؤكد وثائق العصر، انه فتح مجال للثراء والترقى فى المناصب الكبيرة للنابهين من أفراد شعبه، كما كان يكافئهم، سواء فى دنياهم أو بعد وفاتهم .

---

١ - يحتمل أن اسمه يعنى " المقدس " .

٢ - نقشت قصة المجاعة على صخرة لازالت باقية فى جزيرة سهيل جنوب أسوان ، ويطلق على هذه الصخرة اسم "لوحة المجاعة " لمزيد من التفصيل انظر : عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم .... ، سبق ذكره ، من ١٠٨ - ١٠٩ وكذلك :
Gardiner, op.cit.,p 79 and Posemer, G., Literature et Politique, Paris, 1956, p.32.

كما قدس أهل سيناء هذا الملك ، اجيالاً طويلة بعد وفاته ، واعتبروه من الأرباب حماتها [١].

"الملك خوفو" :

ظل أفراد الطبقات الكادحة ، يحرصون على بناء مقابرهم حول هرمه بعد وفاته بنحو ألف عام، الأمر الذى يوحى ببقاء ذكراه الطيبة بينهم ، ورغبتهم فى التبرك بجواره ، مما يبعد عنه شبهة العتاه المستبدين.

ومع ذلك، فقد ذهب قلة من الباحثين، إلى القول بأن " الملك خوفو "، قد اعتمد على الطغيان والسلطة المستبدة لتسخير الشعب فى بناء الهرم الأكبر [٢]، وهذا ما يرفضه جمهرة المؤرخين، إذ لا يمكن للجبر والسخرة ان تنجز هذا البناء العظيم [٣]. ان الهرم الأكبر ليس مجرد كتل ضخمة من الحجر، إنما هو تجسيد رائع، لعبقرية الأداء الهندسى الفذ، وهذا ما يستحيل تحقيقه بالسخرة والجبر. فحتى اليوم لا يكاد العلم الحديث، وعلى الرغم مما حققه من تقدم مذهل، يجد خطأ معمارياً واحداً فى هذا الصرح العبقرى. إن ذلك الإنجاز الفذ، إنما كان نتيجة طموحات فكرية ، كما كان محصلة إيمان دينى راسخ، وهدف نبيل وإدارة حكومية اتسمت، فى رأى جمهرة المؤرخين، بدرجة سامية من الكفاءة والرقى والحرص على القيم النبيلة، إدارة قلما عرفت الانسانية مثيلاً لها فى أى عصر من العصور. وبدون هذا ما كان فى الامكان اقامة هذا الصرح الخالد على مر العصور [٤].

١- عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١١٦ - ١١٧ .

٢- Badawy ,A., op. cit , p.5

٣- بلغ ارتفاع الهرم الأكبر ٢٨٠ متراً، وطول قاعدته ما بين ٢٢٧ و ٢٣٠ متراً، وقدرت زنة الأحجار المستخدمة في بنائه بنحو ٦,٢٥ طن، قيل أنها تكفى لبناء سور يحيط بفرنسا ويبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار وسمكه متراً، أوسور يحيط بثلثى الكرة الأرضية عند خط الاستواء ويبلغ ارتفاعه قدماً واحداً، كما يقال أن متوسط الخطأ فى طول جوانبه لا يقدر ١:٤٠٠٠، وإن الخطأ فى ضبط ضلعيه الشرقى والغربى لا يزيد عن ٣:١٠٠٠، وأن الخطأ فى عمليات التربيع التى استخدمت فيه لا يعدو كسراً عشرياً. انظر : عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ١١٨-١١٩، وأحمد فخرى، الأهرامات المصرية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١١٤ وما بعدها.

٤- كان اصحاب المقابر يفخرون بأنهم يحسنون معاملة الصناع والعمال . اذ يقول رجل فى عهد الاسرة الرابعة : " كل صانع عمل فى مقبرتى ارضيته " . ، وقال آخر : " أرضيت كل الصناع الذين اتموا عملاً فى هذا القبر ، بالطعام والشراب وكل شيء طيب" وقال احد الذين تولوا أمر الاتباع والعمال : " لم أضرب انساناً وقع تحت يدى ، و لم استعبد احداً فى العمل" . ويبدو لنا ، ان وجود وازع دينى قوى ، واستقرار " الماعت " فى ضمير الناس ، كان يدعو الملوك وعلية القوم ، إلى حسن معاملة العمال والاتباع لاكتساب السمعة الطيبة ، سواء فى الدنيا أو فى الآخرة يوم الحساب. انظر عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ١٢٢-١٢٣، وكذلك :

Toynbee , op.cit . , pp. 136 - 146 , especially , pp. 136 - 137 .

من المسلم به ان ما أقامته الدولة القديمة من أهرام ومعابد وصروح ضخمة ، إنما استلزم تخصيص قدر هائل من الموارد الاقتصادية : البشرية والمادية . كذلك من المسلم به أن هذه الموارد تتسم بالندرة . فهل فى تخصيصها لإقامة هذه الصروح اهدار لها ، وانه كان من الأفضل أن توجه لتحقيق أغراض أخرى ؟

رأينا فيما سبق أن بعض الباحثين يجيب على الاسئلة السابقة بالايجاب ، كما يعتقدون أن هذه الموارد قد وجهت لانشطة "غير منتجة" لم تعد بفائدة على الشعب [(١)].

وهذا ما نعترض عليه . إن من الخطأ تعريف العمل المنتج على أنه العمل الذى يسفر عن ناتج مادى . انما التعريف السليم للعمل المنتج هو الذى يترتب عليه خلق منفعة جديدة أو زيادة فى منفعة قائمة .

وفى حدود التعريف السابق يمكن القول إن بناء هذه الصروح قد أشبع رغبات قوية تمثلت فى اشباع الدوافع الدينية لدى الشعب ، إذ المؤكد ان العقيدة كانت أكبر وأقوى دافع أثر فى حياة المصريين القدماء عبر كل تاريخهم.

ومن هذه الناحية فإن فى بناء الاهرامات منفعة لايمكن انكارها . لقد رأى المصريون القدماء فيها ، تجسيدا فذاً لقدراتهم الخلاقة المبدعة ، وشاهداً حياً على ما يمكن أن يحققوه من إنجازات. واشباع لدوافع دينية ملحة.[(٢)]

ولو انْ العامة، كانوا قد شعروا أنهم ضحية ظلم وجبروت واستبداد ملوكهم، لما حرصوا على بناء قبورهم حول أهرامات الجيزة، ولما عبدوا "الملك خوفو" وتبركوا به عدة قرون بعد أن انتقل إلى جوار " رع "[(٣)].

١- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، سبق ذكره، واحمد فخرى، الاهرامات المصرية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٨، خاصة ص ١٤٥-١٥٢، حيث يتبنى المؤلف الثانى وجهة النظر التى نأخذ بها.

٢- كانت عقيدة اوزوريس والتعاليم الدينية لهذا العصر، تجعل من بناء قبر، سواء كان هذا القبر قبراً بسيطاً أو مسطبة أو هرماً، وتجهيز القبر بكل عناصر الأثاث الجنائزى، واجباً مقدسا على الابن نحو أبيه، حتى يحقق سلامة جسم المتوفى ويهيئه للحياة الأخرى. وكان هذا الواجب أمراً طبيعياً، يشترك فيه الملوك وعامة الشعب. بل أن هذه العادة أخذت طريقها إلى اسطورة اوزوريس، وحملت حورس هذا الواجب المقدس نحو أبيه اوزوريس . وتدل وثائق هذا العصر، على حرص الأبناء على الوفاء بهذا الالتزام أو الواجب، مهما كان التضحية التى يتحملها فى سبيل ذلك . أنظر لمزيد من التفصيل، حول دوافع بناء المقابر، بما فى ذلك الاهرام، برستيد، المرجع السابق الذكر ، ص ٨٥-١١١ ، خاصة ص ١٠٢-١٠٣.

٣- أنظر: أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ١٥٢، حيث يشير إلى أن تقديس "الملك خوفو" قد استمر لاكثر من ألف سنة بعد وفاته.

فضلاً عما سبق، فقد وفر بناء الأهرامات فرص عمل دائمة وأخرى مؤقتة لآلاف العمال خلال عصر الدولة القديمة.إذ من المعروف أن المهندسين والعمال المهرة، الذين قاموا بعملية تشييد هذه الصروح، كانوا يعملون طوال العام. أما العمال غير المهرة، وأغلبهم من المزارعين، فكانت وظيفتهم الأساسية، قطع صخور الأهرام فى المحاجر ثم نقلها إلى موقع البناء، وذلك خلال فترة تعطلهم عن الزراعة بسبب الفيضان. ومن هذا يتضح أن الهرم الأكبر وحده، قد وفر فرص عمل ضخمة، كانت تعود على القائمين بها بمكاسب مادية، تمثلت أساساً فى الطعام والشراب والملبس والمأوى على مدى نحو عشرين عاماً .

وإذا ما سلمنا بتواصل الأجيال واستمرار شخصية الدولة عبر الزمن، فلا يمكن اليوم، لاحد أن ينكر الأهمية بالغة القصوى لهذه الآثار كعنصر حيوى فى ثروة مصر القومية . كما يعتبر عنصر أساسى من بين مقومات الجذب السياحى. ونحن نعرف تماماً، أن النشاط السياحى يدر على مصر عائداً سنوياً يقدر بمليارات الجنيهات.

وغنى عن القول إن تلك الآثار وذلك التراث، تعتبر ودون ادنى شك، احد كنوز الانسانية الفريدة، ولهذا فمن الظلم أن يوصف ولع فراعنة مصر، بإقامة هذه الصروح، بأنه كان " آفة ".

لقد اعتقد سكان مصر فى عصور ماقبل التاريخ . عندما كانت الوحدة الاجتماعية الأولى، تتمثل فى الاسرة أو قبيلة أو عشيرة توتمية، أن كبير الاسرة أو شيخ القبيلة أو رئيس الجماعة ، هو وحده القادر على الحفاظ عليها ، وهو وحده القادر على حماية وحفظ ثروة القبيلة من قطعان الماشية والمنتجات الزراعية، كما أنه وحده القادر على تحقيق الازدهار والرخاء الشامل لكل أفراد الجماعة، كما اعتقدوا أنه وحده القادر على ذلك، لما يتمتع به من قوة غامضة وقدرة على ممارسة السحر، للسيطرة على المناخ وعلى ماء النهر، باعتباره المورد العظيم الذى ينبت الخير فى أرض مصر.

وقد تحول هذا الاعتقاد الراسخ فى قدرات شيخ القبيلة على صنع الخير [١] ، إلى الاعتقاد الراسخ فى قدرة فرعون مصر على تحقيق نفس الهدف. ولهذا عمل العامة كل ما فى وسعهم ، حتى يرضوه ويحققوا له الخلود.

بعبارة أخرى لقد اعتقد العامة فى ذلك العصر، بأن الملكيّة ورخاء الارض وأزدهارها، هما فى حقيقة الأمر كل لا يتجزأ، أو هما فى الحقيقة شىء واحد. لقد اعتقد المصريون فى تلك العصور أن ملوكهم كانوا جزءاً لايتجزأ من نظام كونى. وهذا ما أكدته فيما بعد "أسطورة إيزيس وأوزوريس"، وكيف قدر "لأوزوريس" بعد أن تعرض للقتل وتقطعت أوصاله أن يقوم من الموت ، وأن يصبح ملكاً وقاضياً فى العالم السفلى، وأن الذى حل محله فى الأرض كان ابنه "حورس". ولهذا فقد اعتقد الشعب بأن الملك يجسد فى حياته "الإله حورس"، وعندما يموت فإنه يمتزج بأسلافه، ويصبح "أوزوريس" مثلهم . أما إبن الملك أو الملك الجديد الذى يخلفه على عرش مصر فيحكم باعتباره "حورس الجديد"، وان مصر هى الاخرى تخلق من جديد كلما اعتلى عرشها ملك جديد.

ولهذا فإن معظم الاعمال المادية والادبية والفلسفية، إنما كانت تدور حول الملك الحى الذى يحكم ، أوالملك الذى مات ووري جثمانه التراب.

كما كانت تتبلور فى هؤلاء الملوك فكرة إرضاء الشعب ورفاهيته. ولعل هذا هو السبب المباشر لقيام مصر كلها، بذلك النشاط الاقتصادى العظيم الذى يبدو ظاهرياً، كأنه انجازات لصالح الملوك وحدهم . كما أن العقيدة هى التى منحت الامة المصرية القديمة، الثقة بنفسها والقدرة على التغلب على الكثير من الصعاب والعوائق المثبطة للهمم [٢] .

أما الفترة الثانية من عصر الدولة القديمة، فتبدأ فى أواخر أيام الأسرة الرابعة تقريباً. وقد اتسمت هذه الفترة ببداية تسرب عوامل الضعف فى نظام الحكم واحوال البلاد الاقتصادية.ونعرض فيما يلى لهذه المشكلة .

١- يمكن أن نقارن هذا، بمركز شيخ القبيلة، فى بعض الأماكن المنعزلة في إفريقيا حتى اليوم، وما يضفونه من قدسية على شيوخ قبائلهم، انظر : Toynbee, op.cit.,p 313

٢- أنظر فى تفصيل ذلك، ألدريد، المرجع السابق الذكر، ص ٩٣-٩٦ .

ثانياً – مظاهر وأسباب الضعف فى أواخر عصر الدولة القديمة :

شهد النصف الثانى من عصر الأسرة الرابعة، خاصة فى عهد "الملك منكاورع"، بداية ظهور أسباب ومظاهر الضعف فى نظام الحكم. لقد سبق أن رأينا، ما تمتع به ملوك العصر المبكر من تاريخ هذه الأسرة، من مهابة وجلال وقدسية واحتكار، يكاد يكون مطلقاً ، لكافة السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية، وسيطرة كاملة على موارد الدولة الاقتصادية. وقد أسفر كل هذا ، عن تلك الآثار العبقرية الفريدة الخالدة، التى لن تستطيع حضارة أخرى أن تحققها. ولكن ، وعلى الرغم من كل هذا، فقد توخى ملوك هذه الفترة عدالة الحكم.

أما مظاهر الضعف التى شهدتها الفترة الثانية فى هذا العصر، فيمكن أن نجمل أهمها فيما يلى :

١– الانتقاص من قدسية وهيبة وجلال الملوك :

كان فنانو الفترة الأولى من هذا العصر، يلتزمون دائما بتقاليد فنية صارمة، تفرض على الفنان إظهار الملوك فى أعمالهم، فى قدسية وجلال ومهابة، وفى صورة تكاد تكون مثالية، لما يتعين أن يكون عليه "الملك الإله".

أما خلال الفترة الثانية، فقد أخذ الفنانون يتجرأون على تقاليد الماضى الصارمة، ربما بسبب ما اتسم به ملوك هذه الفترة من ضعف. فأظهر الفنان "الملك ببيى الاول" جاثيا على ركبتيه وهو يقدم قرباناً للإله، كما اظهر فنان آخر هذا الملك كهلاً يدفع عصاه بيده وبجانبه ولى عهده الطفل عارياً. كما اظهر فنان ثالث، الطفل "الملك ببيى الثانى" عارياً كما ولدته أمه، او جالساً على حجر هذه الأم.

٢– حرص الملوك على التقرب من كبار الكهنة ورجال الدولة :

كان من اهم مظاهر ضعف النظام الملكى خلال هذه الفترة، حرص ملوكها على التقرب من كبار الكهنة وكبار رجال الدولة والمجتمع. وتؤكد هذه الظاهرة نفسها بصفة خاصة، خلال فترات حكم الاسرتين الخامسة والسادسة، كوسيلة لضمان ولاء هؤلاء الكبار لملوكهم .

ولتحقيق نفس الغاية، اعتاد ملوك هذه الفترة، تربية ابناء كبار رجال الدولة وكبار الكهنة، فى القصور الملكية مع ابناء الملك. فضلاً عن هذا، لم يجد بعض هؤلاء الملوك حرجاً فى مصاهرة كبار رجال الدولة، حتى أصبح زواج الأمراء أو الأميرات من ابناء كبار رجال الدولة امراً مألوفاً. بل لقد وصل الامر "بالملك بيبى الاول"، احد ملوك الأسرة السادسة، أن تزوج هونفسه ابنة أحد كبار رجال الدولة، كما جعلها الزوجة الرئيسية، واعترف بحق ابنها فى تولى عرش مصر من بعده[1]. ويرى بعض المؤرخين أن هذه كانت المرة الأولى فى تاريخ مصر الفرعونية[2] التى يتزوج الملك الجالس على العرش، من امرأة لا تنحدر من الأصلاب الملكية.

وهكذا انهارت أحد التقاليد الصارمة للملكية، التى كانت تفرض على الملوك الزواج من أميرات البيت الملكى، حتى يظل "الدم الملكى" نقياً.

وتمشيا فى نفس الاتجاه، بدأ ملوك هذه الفترة الإغراق فى الهبات والعطايا والإمتيازات لكبار الكهنة ورجال الدولة، حتى استشرى نفوذ هؤلاء وتطلعوا إلى المساواة بملوكهم وأرباب نعمهم. وكان أكثر افراد هذه الطبقة سلطة ونفوذ حكام الأقاليم، الذين أنفردوا بالسلطة الحقيقية فى أقاليمهم، حتى أصبحت هذه الأقاليم ضيعات مغلقة أو دويلات داخل الدولة، الأمر الذى أدى إلى الانتقاص تدريجياً من السلطة المركزية. ومع تسليمنا بأن بعض هؤلاء الحكام قد توخوا العدالة فى حكم رعاياهم، كما يتضح من وثائق هذه الفترة، إلا أن بعض هؤلاء قد استأثر بالسلطة وثروة الأقاليم لإنفسهم وأسرهم، على حساب رعاياهم من العامة[3]. وهكذا، مهدت الأحداث، لتكوين النظام أو الدولة الاقطاعية فيما بعد .

١- حدث هذا بعد أن انفصل "الملك بيبى الاول" عن زوجته الملكة، ربما بسبب اشتراكها فى مؤامرة ضده، أو ربما بسبب خيانة زوجيه. انظر عبد العزيز صالح، تاريخ الشرق القديم، ... سبق ذكره، ص ١٣٤. ولا شك أن حدوث هذا التآمر أو هذه الخيانة، دليل قاطع على فقدان الملوك جلالهم ورهبتهم القديمة.

٢- بل لعلها المرة الأولى من نوعها بالنسبة للاسر المالكة فى العالم القديم كله، انظر المرجع السابق، ص ١٣٤.

٣- بترى، فلاندرز، الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة، ترجمة حسن محمد جوهر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥، ص٤٨، حاشية رقم (١)، حيث يقرر "بترى" أن الاشراف كونوا اقطاعيات كبيرة، وان الزراع فقدوا الكثير من حريتهم، واصبح الملاك يتعاقدون معهم على البقاء فى الارض هم واولادهم من بعدهم. وفى النهاية اصبح هذا الامر وراثيا ينتقل من الشخص إلى اولاده، دون قيد أو شرط.

وقد تفاقمت هذه المشكلة مع الزمن، حتى بلغت ذروتها فى أواخر عهد الأسرة السادسة، خاصة فى عهد "الملك بيبى الثانى"، الذى تولى عرش مصر فى طفولته وظل فى الحكم نحو تسعين عاماً، انتهت به إلى تحوله إلى حطام بشرى .

ونتيجة لكل ما سبق، اصبح عامة الشعب أو المغلوبين على أمرهم، أو على حد تعبير "ارنولد ترينبى"، "البروليتاريا الداخلية" فى المجتمع المصرى، غرباء فى وطنهم[1]. ولهذا، لم يجد هؤلاء فى بداية المحنة، من وسيلة للخلاص منها، سوى الإغراق فى عبادة "الإله رع"، ثم فى عبادة "الإله أوزوريس"، الإله الطيب شهيد الخير". وهكذا بدأ الإنفصام بين الراعى، الذى تقاعس عن تحمل مسئولية الحكم العادل من ناحية، والمغلوبين على أمرهم من الرعية من ناحية أخرى، واخذ هؤلاء ينكرون ولائهم على ملوكهم، ويتجهون بهذا الولاء إلى "رع" ثم إلى "اوزوريس"[2].

لقد استكان ملوك هذه الفترة للدعة والترف، واغرقوا انفسهم فى ملذات حياة القصور والجوارى، وظهروا فى آثار هذا العصر، ينعمون بمشاهد راقصات يرتدين ملابس قصيرة شفافة هفهافة تكشف عما تحتها، أو يرقصن عاريات تماماً، ترفع إحداهن ساقها العارية حتى تلمس كتف إحدى زميلاتها. كما يرى الخبراء أن حركات الراقصات قد اتسمت بالجرأة وافتقرت بشكل واضح إلى الحشمة ورتابة الحركات البطيئة، التى اتسمت بها راقصات الفترة الأولى من عصر الدولة القديمة[3].

٣- إهتزاز مبدأ المساواة بين المواطنين أمام القانون:

ترتب على كثرة ما أغدقه الملوك من عطايا وامتيازات على كبار الكهنة ورجال الدولة، ازدياد نفوذ هؤلاء وثراءهم وتميزهم عن طبقات المجتمع الأخرى. كما أدت هذه السياسة، إلى تعميق الفوارق الاقتصادية والاجتماعية والقانونية بين

١- أو على حد تعبير "توينبى" في وصف المغلوبين على أمرهم بأنهم:
They were "in" the society but not "of" it.
كما سبق ان ذكرنا .

٢-يقول "الدريد" فى كتابه " الحضارة المصرية" : كانت أمنية كل مصرى الحج إلى "ابيدوس"، او العرابة المدفونة ليتبرك "بالإله أوزوريس"، الذى اعتقد المصريون القدماء أن أوزوريس" دفن بها . انظر فى ذلك: ألدريد، سيريل، الحضارة المصرية، من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة، ترجمة مختارة السويفى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٢، ص ١٠١، حاشية رقم(٣).

٣- عبد العزيز صالح، الشرق الادنى القديم، سبق ذكره، ص ١٥٣-١٥٤

طبقات مجتمع الدولة القديمة، وإلى احتكار هذه الطبقة المتميزة للكثير من وظائف الدولة الكبرى.

بل لقد بلغ الأمر فى هذا العهد، حد تولى افراد هذه الطبقة منصب الوزير، الذى كان أعلى مناصب الدولة، وكان فيما سبق حكراً على أمراء البيت المالك[١].

فضلاً عما سبق، أصبحت هذه الوظائف وراثية، يتوارثها الأبناء عن آبائهم، بعد أن كانت مفتوحة للنابهين من أبناء العامة. وتؤكد الوثائق التاريخية، أن ملوك النصف الأول من عصر الدولة القديمة، كانوا يرعون هؤلاء النابهين ويغدقون عليهم، سواء فى حياتهم أو بعد مماتهم.

أما أفراد الطبقات الأخرى، كالمزارعين والصناع والعمال، فقد فقدوا الكثير من حريتهم وحقوقهم، وأصبحوا فى وضع قانونى بين الحرية والعبودية . بعبارة أخرى، أصبح هؤلاء " أنصاف أحرار ". [٢]

٤- تواضع الأداء المعمارى:

وكذلك انعكست مظاهر ضعف الدولة بشكل صارخ، فيما تركه ملوك النصف الثانى من هذا العصر، من أثار افتقرت إلى الإبداع وروعة الخلق الهندسى، كما اتسمت بضآلة الحجم وعدم توافر المتانة والدقة الكاملة. وخير شاهد على ذلك مقارنة أهرام النصف الثانى فى هذا العصر بتلك التى تركها ملوك الأسرة الرابعة، خاصة هرم خوفو، الذى كان ولازال يمثل إحدى عجائب الدنيا، لما اتسم به من ضخامة وإبداع وإعجاز هندسى فريد. فقد افتقرت أهرام العهد المتأخر إلى كل هذه السمات، وأخذ "اللبن" يعود مرة أخرى ليكمل بعضها . كما أن بعض ملوك هذا العصر، فشل فى إنجاز هرمه أثناء حياته، رغم أنه ظل على عرش مصر نحو أكثر من عشرين عاماً [٣].

١- Gardiner, op.cit., pp 95-93 and 104-105 .

٢- بترى، فلاندرز، المرجع السابق ، ص ٤٨ حاشية رقم (١) ص ٤٨-٥٠ .

٣- يقصد بذلك هرم "الملك منكاورع" الذى ظل ناقصاً و لم يكتمل بناءه إلا فى عهد ولده "الملك شبسكاف" . وقد استعمل اللبن دون الحجر فى اتمام بعض أجزائه الداخلية. أنظر : عبدالعزيز صالح، المرجع السابق ، ص ١٣٢، وألدريد ، المرجع السابق الذكر، ص ١٤٠-١٦٩ ، خاصة ١٥٨-١٦٩ ، وكذلك: Badawy, A. , op-cit.,pp 51-52. حيث يصف أهرام العصر المتأخر بقوله : " .. Considerably smaller and poorer technically ... "

٥- الغزوات الخارجية :

ويؤكد ما وصل إليه نظام الحكم من ضعف خلال الفترة المتأخرة، ما تعرض له شمال شرق مصر وطرق تجارتها ، من هجمات متقطعة من بعض قبائل البدو التى كانت منتشرة على حدود منطقة الهلال الخصيب[1]. ومن الأمور التى تلفت النظر، أن "الملك بيبى الثانى" ، آخر ملوك الأسرة السادسة، قد تقاعس عن القيام بنفسه للزود عن مصر، وترك مهمة القيام بهذا الواجب المقدس، لوزيره " ونى " .

أسباب ضعف نظام الحكم:

يمكن أن نجمل أهم الأسباب التى أدت إلى ضعف نظام الحكم، خلال النصف الثانى من عصر الدولة القديمة فيما يأتى :

١- الصراع من أجل الملك ، والذى بدأ فى عهد "الملك خوفو"، عند وفاة ابنه الأكبر "كاوعب" الذى كان والده يربيه ويهيئه لحكم مصر. إذ أعقب وفاة ولى العهد، انقسام الأسرة إلى عدة فروع، يتربص كل منها بالآخر. وعلى الرغم من أن "الملك خفرع" قد استطاع أن يحتوى هذا الخلاف، ويعيد للأسرة مكانتها وهيبتها ووحدتها، إلا أن الصراع قد تجدد، ربما عقب وفاة الملك "منكاورع" وكذلك بعد وفاة الملك "شبسكاف".

٢- استكانة ملوك الفترة المتأخرة إلى الدعة والمتعة و الرفاهية، وتقاعسهم عن مسئولية الحكم، وإسرافهم فى العطايا والإمتيازات لكبارالكهنة وكبار رجال الدولة، والذى كان مظهراً من مظاهر ضعفهم ، كما ادى فى نفس الوقت إلى تزايد ضعف الملوك وزيادة نفوذ الكهنة وكبار رجال الدولة [2].

٣- استنزاف شطراً كبيراً من الموارد الاقتصادية للبلاد خلال النصف الأول من عصر الدولة القديمة ، نتيجة إسراف ملوك النصف الأول، خاصة خلال فترة حكم الأسرة الرابعة، فى إقامة الأهرام الضخمة والمجموعات الجنائزية والمعابد والمقابر.

١- يعتقد البعض أن هذه القبائل ربما كانت فرعاً من الأشوريين ، ويمكن أن نعتبر هذه القبائل، وتمشياً مع نظرية "أرنولد توينبى"، " البروليتاريا الخارجية " بالنسبة للمجتمع المصرى. أنظر :

٢- لمزيد من التفصيل : انظر عبد العزيز صالح ، ص ١٠١ و١٥٤ ، خاصة ص ١٣٢و١٣٦ و١٤٣ و١٥٠ وكذلك :
Gardiner, op. cit., pp. 101-102.

وعمل على تفاقم هذه المشكلة، ما اتسم به ملوك النصف الثانى من عصر هذه الدولة، من إسراف فى العطايا والامتيازات والإعفاءات من الضرائب لكبار الكهنة وكبار رجال الدولة[1] . وكانت هذه السياسة نتيجة ضعف ملوك هذه الفترة ، ولكن لا شك فى أن تضاؤل الموارد نتيجة إسراف الملوك الأوائل، قد ساهم بدوره فى ضعف ملوك الفترة المتأخرة.

٤- كما يرى البعض، أن اعتراف الدولة القديمة بعبادة "رع"، بصفة رسمية وعلى نطاق واسع ، قد ادى إلى انصراف جانب من ولاء الرعية من الملك إلى الإله "رع" ، وذلك على حساب ولائهم القديم شبه المطلق للملك الإله. ونعتقد أن شعور المغلوبين على امرهم انهم غرباء فى وطنهم وتفاقم ما حاق بهم من ظلم، قد ادى إلى انكار ولائهم على الملك ، خاصة بعد أن ازداد ايمانهم بالاله "أوزوريس" . إذ لم يجد هؤلاء من سبيل للخلاص من محنتهم، إلا فى عبادته. وبهذا وجد المغلوبين على أمرهم وسيلة اكثر حكمة للخلود دون حاجة إلى بناء هرم. وقد سبق أن رأينا كيف اصبح أمل وحلم كل مصرى من العامة فى ذلك العصر، أن يحج إلى "ابيدوس" للتبرك بالإله "أوزوريس" .

ثالثاً – الأحوال الاقتصادية فى عصر الدولة القديمة:

استمرت الزراعة، كما كانت فى العصور السابقة، تمثل الحرفة الأساسية لغالبية السكان، وخاصة فى الوجه القبلى. ولكن خلال هذا العصر زادت أهمية الحرف والصناعات المختلفة، وكذلك التجارة الداخلية والتجارة الخارجية، وخاصة فى منطقة الدلتا. ونفصل فيما يلى ما سبق إجماله.

(١) الزراعة وتربية الحيوان :

استمرت الزراعة تمثل أهم مصادر الدخل بالنسبة لغالبية السكان. وكانت أهم المنتجات الزراعية هى : القمح والشعير والذرة والعدس وبعض الفواكه مثل العنب والتمور والرمان، وذلك بالإضافة إلى بعض الخضراوات مثل الخس والحمص والبصل،

١- يؤكد ما كانت تتمتع به الارستقراطية المحلية من رفاهية ونعيم وثراء، مقابرهم الرائعة، والتى انتشرت بكثرة فى تلك الفترة فى زاوية الأموات ومير ودير الفرباوى والحمم ودندرة وادفو وأسوان . أنظر : Gardiner, op. cit. p.91-92.

وكان البصل يستخدم كدواء لعلاج بعض الأمراض، كما كان له عيداً سنوياً عرف بعيد "تتريت"، يعتقد البعض انه أصل عيد شم النسيم. كذلك كانت مصر تنتج بعض الألياف النباتية مثل الكتان والبردى الذى كان يستعمل أساساً فى صناعة الورق.

ويلاحظ أن هذا العصر قد شهد تقدما فى أدوات الإنتاج الزراعى، كما انتشر استخدام النحاس فى صناعة هذه الأدوات. فضلاً عن هذا فقد تطور المحراث القديم وظهر المحراث ذو السلاحين كما تطورت المطارق والشادوف.

وكانت السنة الزراعية مقسمة إلى ثلاثة فصول:

فصل الزرع، ويبدأ فى أكتوبر وخلاله تجهز الأرض للزراعة وتلقى البذور.

فصل الحصاد، ويبدأ فى شهر فبراير.

وفصل الفيضان، ويبدأ فى يونيه.

وقد اعتنى المصريون خلال هذا العصر بالرى، وتوزيع مياه النيل عن طريق "إدارة الرى". كما وجدت "إدارة لمسح الأراضى" منذ عهد الأسرة الأولى، وكانت عقود بيع الأراضى وتأجيرها تخضع لنظام التسجيل والشهر.

وكانت الزراعة تلقى عناية وإشرافا مستمرا من جانب الدولة. فقد ظهرت منذ الأسرة الثانية "إدارة الحقول" ثم ظهر "مدير الحقول" فى عهد الأسره الثالثة. وفى عهد الأسرة الخامسة ظهر "مدير كتاب الحقول"، وكان يتبعه عدد كبير من مديرى الضياع سواء فى الوجه القبلى أو الوجه البحرى، وكانت كل ضيعة تخضع لإدارة "بيت الزراعة". وكانت هذه الإدارة مقسمة بدورها إلى بيوت، مثل بيت المحراث، ويختص بإدارة الأراضى الزراعية، وبيت المراعى ويختص بالمراعى، وبيت حيوانات الإنتاج، وبيت حيوانات التربية وهكذا.

ويتمثل الاختصاص الرئيسى "لإدارة الزراعة" فى الإشراف على استغلال واستثمار أراضى الدولة. وكانت الدولة تمنح موظفيها، عن طريق هذه الإدارة، حق الانتفاع بجزء من أراضى الدولة.

وترتبط بالمصلحة السابقة "مصلحة الرى" التى بدأ يتردد ذكرها منذ بداية عهد الأسرة الخامسة. ونرى أن احد مديرى القصر الملكى كان يحمل لقب "رئيس تصريف المأكولات" فى "بيت الحياة" وكان يحمل فى نفس الوقت لقب "مدير الترع" وشاع لقب "كاتب البحيرة"، وقد تمثل عمل هذه المصلحة فى ضبط مياه النيل، وتسجيل منسوب مياهه على مدار السنة.

وتدل وثائق هذا العصر، على أن أهم أعمال حكام الأقاليم كانت الإشراف على شئون الزراعة والرى، تلك الشئون التى لاقت اهتماماً كبيراً من الملوك والحكومة المركزية.

ويبدو أن النشاط الزراعى كان المصدر الاساسى للدخل فى مصر العليا.

وقد عرفت مصر خلال هذا العصر نوعين من الملكية الزراعية.

١/١- المزارع الملكية، ومزارع الكهنة والأوقاف الدينية، التى كانت فى الأصل منحاً أعطاها الملك للكهنة وكانت معفاة من الضرائب، ولم يكن يجوز التصرف فيها أصلاً. ثم أصبحت ملكاً خالصاً للكهنة وورثتهم فى أخر عهد الدولة القديمة. كما وجدت بعض الأوقاف الخيرية، التى كانت تخصص لخدمة العقيدة فى شكل قرابين تقدم للآلهة.

٢/١- كذلك وجدت فى هذا العصر الملكية الفردية وملكية الأسرة، وأن كان البعض ينكر أن مصر عرفت خلال هذا العصر الملكية الفردية. والراجح أن نظام الملكية الفردية قد انهار فى أواخر عهد الدولة القديمة[١].

هذا، ويبدو أن تربية الطيور والحيوانات كان لها أهمية خاصة فى الدلتا، التى كانت تتمتع بثروة حيوانية هائلة نظراً لوفرة المراعى بها. فضلاً عن هذا، فهناك من الشواهد ما يؤكد أن الرعاة فى مصر العليا كانوا يقودون الحيوانات بصفة منتظمة لترعى فى منطقة الدلتا[٢]. وقد عرف عن المصريين فى هذا العصر اهتمامهم البالغ بتربية الدواجن والطيور والحيوانات المختلفة، كما اشتهروا بحب الحيوانات والرفق به.

---

(١) انظر لمزيد من التفصيل، محمود السقا، المرجع السابق، ص ٢٨ وما بعدها.

(٢) Gardiner, op. cit, p. 103.

٢- الصناعات الإستخراجية والتحويلية :

ازدهرت فى هذا العصر صناعة استخراج المعادن إلى حد كبير. وكان استخراج المعادن من الصناعات التى تحتكرها الدولة، وذلك لأن الفرد كثيراً ما كان يعجز عن توفير الطاقة البشرية والمالية، التى يتطلبها استخراج المعادن فى المناطق الصحراوية النائية. كما كان الفرد عاجزاً عن توفير الحماية والأمن لبعثات التعدين، التى كثيراً ما كانت تتعرض لهجمات القبائل البدائية، التى كانت تعيش فى هذه المناطق.

وقد عرفت مصر خلال هذا العصر النحاس والذهب والفضة والحديد والقصدير والرصاص والبرونز، وكان النحاس يستخدم فى صناعة الأسلحة، وبعض السلع الاستهلاكية كالأدوات المنزلية، وفى صناعة بعض أدوات الإنتاج المستخدمة فى الزراعة والإنتاج الصناعى. وكان النحاس يستخرج من شبة جزيرة سيناء ومن الصحراء الشرقية. كما استخرج الذهب من هذه المناطق على نطاق واسع، كما شهد على ذلك استخدامه بسخاء خلال هذا العصر فى صناعة الأطباق والأقداح وفى تذهيب الأثاث، أما الإستعمال الأساسى للذهب فكان فى صناعة أدوات الزينة.

أما البرونز فلم ينتشر استعماله خلال هذا العصر، إذ لم تعرف مصر كيفية الإستفادة من الحديد إلا فى عصر متأخر.

أما الصناعات التحويلية فكان أهمها الصناعات التالية :

صناعة الغزل والنسيج :

وقد اعتمدت على ألياف الكتان. وقد بلغت منتجاتها درجة عظيمة من الجودة، جعلتها تضارع منتجات العصر الحديث. وقد بلغت المنسوجات الكتانية درجة من الشفافية جعلت البعض يطلق عليها "نسيج الهواء".

والراجح أن صناعة الكتان كانت حرفة تزاولها المرأة فى المنزل. ولكن على الرغم من ذلك فقد وجدت بعض مصانع للكتان بعيداً عن المنازل، وكان يعمل فيها الرجال.

صناعة الورق :

انتشرت صناعة الورق من البردى بشكل ملحوظ، وكانت إحدى الصناعات التى انفردت بها مصر خلال عصور طويلة، دون بقية شعوب الأرض. وكانت مصر تصدر منتجاتها للخارج.

صناعة الجلود :

ارتقت هذه الصناعة، كما تقدم فن الدباغة وكان من أهم منتجاتها جلود المقاعد وأغطية الوسائد وأرضية العربات وقرب الماء.

صناعة السفن :

تقدمت إلى درجة كبيرة ، كانت مصر تصنع فى هذا العصر السفن البحرية الكبيرة والسفن النهرية الصغيرة. وقد مكن ازدهار هذه الصناعة من التوسع فى تجارة مصر الخارجية والداخلية، وخاصة فى منطقة الدلتا، حيث وجد عدد كبير من المدن التجارية وازدهرت التجارة البحرية إلى حد كبير[١].

صناعة البناء والتشييد :

بلغ فن وهندسة البناء فى هذا العصر درجة من الكمال لم يعرفها أى عصر سابق أو لاحق، ويكفى دليلاً على ذلك أهرامات الجيزة أو بيوت الشمس، التى ظلت حتى يومنا هذا، "معجزة لكل العصور" ولغزاً يحير علماء الدنيا.

وبالإضافة إلى ما سبق، فقد تقدمت صناعة أدوات الزينة، وبعض الصناعات الغذائية كصناعة البيرة من الشعير والنبيذ من الكروم.

كما شهد هذا العصر إرتقاء فن النحت والتصوير، كما يدل على ذلك التراث الحضارى الفذ الذى تركه هذا العصر[٢].

١- Gardiner , op. cit ,p. 97.

٢- Ibid., p.81.

وأنظر لمزيد من التفصيل كتاب Stevenson Smith والذى سبق ذكره وكذلك كتاب ثروت عكاشة، الفن المصرى القديم وقد سبق ذكره.

٣- التجارة الداخلية والخارجية :

أدى تقدم وسائل النقل البرى والبحرى إلى ازدهار التجارة الداخلية والخارجية. ويبدو أن المقايضة كانت أساس المبادلات التجارية فى بداية الأمر، ثم بدأ المصريون فى استخدام حلقات من الذهب والفضة ذات وزن ثابت، كوسيط للمبادلة. وبهذا ظهرت إلى الوجود أول عملة معدنية عرفتها البشرية، كما وضعت اللبنات الأولى فى بناء الاقتصاد النقدى. وقد ازدهرت التجارة الخارجية هى الأخرى، وخاصة بين الدلتا والعالم المجاور، نتيجة تقدم صناعة السفن وزيادة نفوذ الدولة المصرية خارج البحر المتوسط وبعض المناطق فى أفريقيا.

وكانت التجارة تخضع لنظام دقيق. اذ عرف التجار "مسك الدفاتر" وبعض نظم المحاسبة. ومن الإدارات الرئيسية التى بلغت شأنا عظيما خلال هذا العصر، إدارة الجمارك والتجارة الخارجية. إذ كانت الضرائب تفرض على الواردات، كما وجد مديرا عاماً للقوافل التجارية الآتية من الواحات إلى وادى النيل. وتدل الوثائق الخاصة بهذا العصر، على ازدهار الاستيراد والتصدير، كما تعددت المراكز الهامة للتجارة الداخلية والخارجية على حد سواء. وقد اعتاد الملوك تصدير الحبوب للخارج، وكانت التجارة الخارجية تخضع لنظام ضرائبى فى منتهى الدقة[1].

---

(١) محمود السقا، المرجع السابق، ص ١٤٧ - ١٤٨ وكذلك : Gardiner, op. cit., p 98-97.

الفصل الرابع

ثورة العصر الوسيط الأول : الفصل الأخير

فى مأساة السلطة

(حوالى ٢٢٨٠-٢٠٥٢ قبل الميلاد)

تمهيد :

رأينا فيما سبق كيف بدأ "زمن المتاعب" فى تاريخ الدولة القديمة، خلال فترة حكم الأسرتين الخامسة والسادسة، عندما بدأ فراعنة مصر، مأخوذين بذلك الصرح الحضارى الشامخ الذى تركه الآباء والأجداد، يعتقدون أنهم آلهة وان الملك ما هو إلا "تجسيدا بشرياً" "لرع إله الشمس" ، وكيف أحاط هؤلاء الملوك أنفسهم بطائفة من الكهنة والنبلاء وكبار رجال الدولة، الذين قاموا بدور الوسيط بين الملك الإله ورعاياه.

ورأينا كيف نجح الكهنة ورجال البلاط فى إبعاد الملك عن الشعب، وكيف استفحل نفوذهم وزادت امتيازاتهم، حتى قدر لهم القضاء على الملك نفسه، بعد أن عاشوا وماتوا يصلون له ويتقربون إليه فى حياته ومماته، وكلهم أمل فى اكتساب رضائه ومحبته.

ثم كيف انهار الصرح الشامخ للدولة القديمة ومعه النظام الملكى. وكيف ضاعت وحدة مصر، وظهر على مسرح السلطة جماعة من حكام الأقاليم، استبد كل منهم بحكم ضيعته، معتقداً هو الاخر انه إله، أو على الأقل من سلالة إلهية مقدسة.

ورأينا كيف تحولت مصر، فى أواخر عهد الدولة القديمة، إلى أقلية مسيطرة، تنعم بكل شئ، رفاهية وسلطة، تعيش على مجد الغابرين وتتقاعس عن تحمل مسئوليتها نحو الوطن والمواطن، وأغلبية تعيش مغلوبة على أمرها، غريبة فى وطنها فى سجن كبير تطحنها الحاجة والفقر. ثم كيف بدأ الفصل الأخير فى " دراما أو مأساة السلطة" ، عندما إعتزل المغلوبون على أمرهم الأقلية المستبدة، وانطووا على أنفسهم، يعيشون على غذاء صنعته روحهم، تمثل فى عبادة " أوزوريس "، وهم على يقين من

أن العمل الطيب سوف يرضى " أوزوريس " ، وأن فى رضاء " أوزوريس " ضمان للخلود وتخليصاً للروح من آثامها .

ولكن ما كان لهذا الوضع أن يدوم. فعندما بلغ شعور المغلوب على أمره بالظلم مداه، بدأ يفيق من غفوته الطويلة، ليشعل نار ثورة عارمة على ظالميه، ولكى يقوض دعائم ذلك السجن الكبير.

وهكذا كانت أولى ثورات الإنسان ضد وضع مستبد فاسد، تحتكر فيه أقلية طاغية رفاهية العيش وتنعم بغرور السلطة.

ويقطع المؤرخون بحدوث ثورة حقيقية، وبأن هذه الثورة كانت مدمرة، قام بها العامة ضد النبلاء والأرستقراطية المصرية، بل وضد الملك. وان هذه الثورة قلبت كل شئ رأساً على عقب. ولكن هناك خلاف بين المؤرخين حول كيف ومتى بدأت هذه الثورة ومتى انتهت.

الراجح بين جمهرة المؤرخين، أن الثورة قد حدثت فى أواخر أيام الأسرة السادسة، فى عهد آخر ملوكها الملك " بيبى الثانى " . وان قيام هذه الثورة يؤرخ نهاية عهد الدولة القديمة حوالى عام ٢٢٨٠ قبل الميلاد، وبداية ما يعرف بالعصر " الوسيط الأول " أو " عهد الإقطاع الأول ". وان هذه الثورة قد استمرت بدرجات متفاوتة حتى آخر أيام الأسرة العاشرة، عندما انتهى العصر الوسيط الأول، وبدأ عهد الدولة الوسطى بتأسيس الأسرة الحادية عشر فى طيبة، حوالى ٢١٣٤ قبل الميلاد، على يد واحد من أعظم ملوك مصر الفرعونية هو الملك "منتوحتب الأول"، الذى وضع حداً للفوضى التى أدت إلى إنقسام مصر. وأعاد إلى مصر وحدتها، فاستحق فى شرف لقب موحد الأرضين .

ويلاحظ أن تاريخ " الفترة الأولى " يمثل مشكلة تكاد تكون مستحيلة " ، لأن الشطر الأكبر من سجلات ووثائق هذا العصر، قد ضاعت فى أتون الثورة، ولم يبق منها إلا عدد لا يكاد يتعدى أصابع اليد الواحدة [١].

١- Gardiner, A., Egypt of the Pharaos, Oxford , 1976, pp. 107-112.

وسوف نعتمد فى تحديد الملامح الأساسية لهذه الثورة على برديتين تعرف أولاهما "ببردية الحكيم أيبور" وتعرف أحياناً " ببردية ليدن " Leyden، والثانية هى "بردية نفرتى" . أما اثار هذه الثورة والملامح الأساسية للعصر الوسيط الأول، فان مصادرها التاريخية أكثر نسبياً. ومن أهم هذه المصادر وصية " الملك اختوى " لابنه و" بردية القروى الفصيح "، وبعض آثار هذا العصر ، كالبرديات الأدبية والمراسيم الملكية والقبور التى وجدت فى سقارة ومصر الوسطى والصعيد، وخاصة فى زاوية الأموات وبنى حسن والبرشا وأسيوط ودير الجيزاوى والهجارسة وأخميم والمعلا وأسوان [١] .

---

(١) أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ١٥٩ وما بعدها ، وعبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، .... سبق ذكره، ص ١٥٥- ١٨١، وصوفى أبوطالب، تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٨، ص ١٩٢-١٩٣؛ محمد إبراهيم بكر، صفحات مشرقة من تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٤، ص ١٤٧-١٥٨، وكذلك :

Gardiner, A., op.cit., pp. 107-124 and Winlock, H.E, the Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes, New York, 1947.

المبحث الأول
الملامح الأساسية للعصر الوسيط الأول

يشمل العصر الوسيط الأول ، طبقاً للرأى الراجح فترة حكم الأسرات الآتية :

(١) الأسرة السابعة :

وكانت عاصمتها منف. ويقول " مانيتون السمنودى "[١] المؤرخ المصرى القديم، أن سبعين ملكاً من ملوك هذه الأسرة حكموا سبعين يوماً. ويشك جمهرة المؤرخين فى صحة هذه الرواية[٢] . ولكن يمكن أن تكون صادقة . وأياً كان الأمر فهى تعكس فى وضوح صارخ، ما اتسم به هذا العهد من فوضى وعدم استقرار منقطع النظير.

(٢) الأسرة الثامنة :

حكمت من " منف" [٣]، والراجح أنها تنتمى إلى البيت الملكى القديم. ويقال أنها حكمت من عام ٢٢٨٠ حتى ٢٢٤٢ قبل الميلاد. وخلال عهدها تفككت عرى وحدة البلاد، ووقعت الدلتا فريسة عصابات البدو الذين جاءوا من الشرق، وربما من الغرب، لينشروا بين أهلها الخوف والفزع وفى كل أرجائها الخراب. أما فى مصر الوسطى والصعيد، فكان الحال أفضل نسبياً، إذ استقل كل حاكم بإقليمه وفرض عليه سيطرته، وحاول أن يوسع رقعة سلطانه، الأمر الذى أدى إلى حروب طاحنة بين حكام الأقاليم. وقد أدت هذه الحروب إلى إراقة الكثير من الدماء وانتشار الخراب والدمار فى كل ارجاء البلاد، وتدهور الأحوال الاقتصادية إلى حد حدوث الكثير من المجاعات.

---

(١) " مانيتون" (مانيتوس فى إحدى البرديات) ، كان كاهناً مصرياً فى معبد سمنود فى الغربية، اشتهر بمعرفته بتاريخ مصر ولغتها. كلفه " بطليموس الثانى " حوالى عام ٢٨٠ قبل الميلاد، بكتابة تاريخ مصر اعتماداً على مصادره الفرعونية . كالوثائق التى كانت توجد فى المعابد ومكاتب الحكومة. ومن المؤسف أن ما كتبه هذا المؤرخ قد فقد فى حريق مكتبة الإسكندرية، وكل ما وصل إلينا منه هو مقتطفات منه نقلها المؤرخ اليهودى " يوسفيوس Josephus" فى كتابه الذى اسماه "الرد على أبيون " ، مدافعاً عن اليهود ضد ما كتبه " ابيون " الكاتب السكندرى . كذلك نقل بعض الكتاب وخاصة "جوليوس الأفريقى" (٢١٧ بعد الميلاد) عن "مانيتون" قائمة باسماء الملوك وسنوات حكمهم.

(٢) أنظر تفسير آخر لهذه الرواية في أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٣) يرى بعض المؤرخين أن هذه الاسرة حكمت فى قفط . انظر : احمد فخرى ، المرجع السابق ذكره ، ص ١٦٤ حاشيه رقم (٢) .

ولكن عهد الأسرة الثامنة لم يطل، إذ ظهر بيت قوى متمثلاً فى " بيت اختوى" فى اهناسيا المدينة على الشاطئ الغربى للنيل فى مواجهة بنى سويف وعند مدخل الفيوم، ليضع نهاية لحكم الأسرة الثامنة ، ويؤسس الأسرة التاسعة حوالى عام ٢٢٤٢ قبل الميلاد، مؤرخاً بداية " العصر الاهناسى " أو " عصر الاهناسيين ".

(٣) الأسرة التاسعة :

أسسها " اختوى الأول " وحكمت من عام ٢٢٤٢ حتى عام ٢١٣٣ قبل الميلاد تقريباً. وبتأسيس هذه الأسرة انتقل الحكم من منف إلى اهناسيا مؤرخاً بداية " عصر الاهناسيين. " وقد وصف " مانيتون" "الملك اختوى " بأنه كان ظالماً جباراً ، لاقى الشعب على يديه من الظلم والطغيان مالم يعرف مثيلاً له من قبل . وظل " اختوى " فى ظلمه، حتى أصيب بالجنون فى أواخر أيام حياته . ويقال أن تمساحاً فتك بالطاغية المجنون[1]. وقد ظلت أحوال مصر على ما كانت عليه فى أيام الأسرة الثامنة: قبائل من البدو المحاربين تسيطر على الدلتا وتنشر فيها الرعب والخراب، وبيت مالك ضعيف فى اهناسيا، يتمتع بالسلطة فى إقليم محدود ، يحاول ملوكه توطيد صلاتهم بحكام الأقاليم، الذين استقل كل منهم بحكم إقليمه، وينكر أغلبهم الولاء على البيت المالك، وان ظل بعض هؤلاء يدفع الجزية ويدين بالولاء لملوك اهناسيا. وهكذا ازداد تفكك عرى وحدة البلاد، واستمر نفوذ ملوك اهناسيا فى الضعف، بينما استفحل نفوذ حكام الأقاليم وتدعمت أسس الحكم الاقطاعى فى صعيد مصر. كما تدهورت حضارة البلاد وفنونها، وتدهورت الأحوال الاقتصادية إلى درجة خطيرة، وكثرت الحروب بين الأقاليم. كما استمر الصراع بين أمراء طيبة وأمراء اهناسيا.

(٤) الأسرة العاشرة:

حكمت خلال الفترة من عام ٢١٣٣ إلى عام ٢٠٥٢ قبل الميلاد تقريباً، وكانت اهناسيا هى عاصمتها. وخلال عهد هذه الأسرة بدأت مصر تنهض من كبوتها وترى بواكير عصر جديد. فقد أخذت الأحوال الاقتصادية فى التحسن، وخاصة فى الصعيد

١- Gardiner, op. cit., p. 107-108.

حيث قوى نفوذ وسيطرة ملوك اهناسيا. كما حدث تغير عميق فـى فلسـفة الحكم فكـان الملك يساعد رعاياه اقتصادياً، وخاصة فى أوقات الشدة. كما كان يحمى الضعيف من سطوة القوى، كما علت قيمـة الفـرد واشتد الوعـى الاجتمـاعى والسياسـى بين عامـة الشعب، كما سنرى فى وصية " الملك اختوى ". كما بدأت مصر تستعيد سيادتها علـى الدلتا وتقضى على عصابات البدو التى خربتها ونشرت فيها الخوف والفزع والدمـار . كما حاول هذا الملك القضاء على أمراء طيبة الأقويـاء، وانتصر عليهـم، ولكن أمـراء طيبة عادوا من جديد واستردوا ما فقدوا من أرض ونفوذ وامتد سلطانهم إلـى الشـمال حتى حدود أسيوط .

وفى عهد "الملك مريكا رع " ابن " الملك اختوى " ، تولى حكم طيبة أمير قـوى هو " منتوحتب "، الذى قاد الحرب مرة أخرى ضد أمراء اهناسـيا. فقضـى علـى أمـراء أسيوط واندفع شمالاً حتى استولى على الأشمونيين، فلم يبقـى لأمـراء اهناسـيا سـوى نفوذ قليل فى مصر الوسطى والدلتا. وفـى عهـد "أختـوى الخـامس" ، الـذى حدثـت فـى عصره قصة " القروى الفصيح "، نجح "الملك منتوحتب الأول"، فى القضاء تماماً علـى ملوك اهناسيا وفرض سيطرته علـى البـلاد، وأعـاد إلـى مصر وحدتهـا. وبهـذا انتهـى العصر الوسيط الأول، وبدأ عصر جديد هو عصر الدولـة الوسـطى مـع تأسـيس الملـك العظيم " منتوحتب الأول " الأسرة الحادية عشر ، التى تؤرخ بداية حكمها بداية العصـر الذى عرف أيضاً بعصر الرخاء الاقتصادى، وذلك حوالى عام ٢٠٥٢ قبل الميلاد [1].

---

(١) لمزيـد مـن التفصيـل عـن عصـر الفـترة الأولى أنظر : أحمـد فخرى، المرجـع السـابق، ص ١٦٢ - ١٨٢، وكذلـك :
Gardiner, op. cit., pp. 107-123

المبحث الثانى
الثـورة الاجتماعيـــة

الراجـح أن ثـورة مصـر الاجتماعيـة الأولـى قد حدثـت فـى أواخـر عهـد الملـك المسن "ببيى الثانى" ، آخر ملوك الأسرة السادسة. ولكـن لا نعرف كيف بـدأت الثـورة ومتى اتخذت طابعاً عنيفاً ، وما هى الشرارة التى أوقدت نارها الجامحة. وان كان لدينا صورة واضحة عما حدث خلالها، وما ترتب عليها من آثار بعيدة المدى، أدت إلى تغير جذرى فى نظام الحكم وفلسفته، وفى النظام الاجتماعى ، وفى مركز الفرد وحقوقه وما ترتب على هذه الثورة من تدهور فى حضارة مصر وأحوالها الاقتصادية.

لقد كـانت هـذه الثـورة أول ثـورة اجتماعيـة عرفهـا التـاريخ الانسـانى، تسـجل انتفاضة المغلوبين على أمرهم ضد أقلية طاغية مستبدة. ويتضح مـن دراسـة " برديـة الحكيم ايبوور " و "تبوْة الكاهن نفرتى" ، ما يأتى:

١- أن الثورة كانت قاسية إلى أبعد الحدود ، وأنها حفلـت بكثـير مـن المآسـى وتركت على وجـه مصـر ملامـح حزينـة لـم تفارقهـا أبـداً، وفـى روحها نزعـة للحـزن والتشاؤم غلفتها عبر القرون[1].

٢- قـام بـالثورة المغلوبين علـى أمرهـم مـن عامـة الشـعب، ضـد الطبقـة الأرستقراطية، ولم يسلم منها حتى شخص الملك. ويبدو انها كانت رد فعل عنيفا للظلم الاجتماعى الذى عرفته مصر فى أواخر الدولة القديمة، عندما تحول المجتمع إلى سادة وعبيد.

٣- اقـترنت الثـورة منـذ البدايـة بـانهيـار النظـام الملكـى وسـلطة الحكومـة المركزيـة، وضيـاع الأمـن وسيادة القـانون. فدمـرت مكـاتب الحكومـة ونهبت الأمـوال العامة ودمرت وثائق وسجلات الدولة. كما نهبت بيوت وقبور الأسرة المالكة والطبقة الأرستقراطية، وأصبح الحل والعقد فى أيدى العامة والغوغاء .

١- عبر الحكيم "ابوور" عن ذلك فى قوله بانتحار بعض الناس غرقاً وسخط الأطفال على ولادتهم ورغبة الجميع فى فناء العالم حتى تستريح الأرض من الضجيج . عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، سبق ذكره، ص ١٦٦-١٦٧.

٤- شهدت الفترة نهاية وحدة مصر السياسية، ووقعت الدلتا فريسة غزوات خارجية، قامت بها قبائل من البدو، جاءت من الشرق لتنشر فى الدلتا الفزع والرعب والخراب. أما الصعيد فانقسم إلى عدة أقاليم، استقل بالحكم فيها حكام حاول كل منهم الاستقلال بإقليمه وتدعيم نفوذه فيه، كما حاول توسيع رقعته. وقد أدى هذا إلى كثرة الحروب بين حكام الأقاليم، وخاصة بين أمراء طيبة وأمراء اهناسيا. ولم يعد للأسرة المالكة، سواء فى عصر المنفيين أو عصر الأهناسيين، سوى سلطة رمزية فى أغلب الأحوال. بينما استفحل نفوذ حكام الأقاليم ووصل النظام الإقطاعى فى الصعيد قمته.

٥- انهارت حضارات مصر حتى وصلت الحضيض، وتدهورت فنونها وحروفها، ودمرت الكثير من وثائق وأثار عصورها الذهبية ، وانهار الصرح الحضارى الشامخ ، الذى بنته مصر فى عهد الدولة القديمة .

٦- تدهورت أحوال مصر الاقتصادية بصورة لم يسبق لها مثيل، وقل إنتاجها الزراعى والحرفى، وانكمشت التجارة مع انتشار الفوضى والسلب والنهب وانهيار الأمن وسيادة القانون. وأدى ذلك إلى انتشار البطالة وتدهور مستوى معيشة السكان. وكثيراً ما تعرضت مصر لسنوات قحط ومجاعة،[١] وخاصة فى السنوات التى كان يقصر فيها فيضان النيل. كما رفض الناس دفع الضرائب، بل ونهبوا دواوين الحكومة وقصور الطبقة الحاكمة ومقابر الملوك .

٧- كانت فترة حكم الأسرتين السابعة والثامنة أسوء فترات العصر الوسيط. اما عهد الأسرتين التاسعة والعاشرة، فنعمت مصر خلاله بقدر من الأمن والإستقرار والرخاء. وكانت الدلتا اشد مناطق مصر معاناة خلال هذا العصر، نتيجة ما تعرضت له من غزوات خارجية. أما الصعيد ، وخاصة المنطقة بين منف وطيبه، فكانت اقل أقاليم مصر معاناة [٢].

وتتضمن الصفحات التالية مقتطفات من برديتى " الحكيم ايبوور " و " الكاهن نفرتى"، واللذان يمثلان أهم الوثائق التاريخية عن ثورة العصر الوسيط الأول .

١- Vandier, La Famine Dans l'Egypte Ancienne, Cairo , 1936, pp. 3-16.

٢- Gardiner, op. cit , p 107-110 and 114.

" بردية الحكيم ايبوور " :

توجد هذه البردية فى ليدن بهولندا، ولهذا تعرف أحيانا ببردية ليدن كما تعرف أيضاً بنبوءة حكيم مصرى قديم. وقد نشرت وترجمت عدة مرات. وقد درسها ونشرها "جاردنر"، أحد المبرزين فى المصريات، عام ١٩٠٩ تحت اسم :

The admonitions of an Egyptian Sage.

وترجع البردية إلى عصور الأسرة التاسعة عشر أو العشرين، ولكنها منقولة عن أصل كتب فى عهد الملك "بيبى الثانى" أخر ملوك الأسرة السادسة. وصاحب البردية هو "الحكيم ايبوور" أحد حكماء الدولة القديمة. وقد استطاع هذا الحكيم، أن يقتحم عزلة الملك "بيبى الثانى"، ليحدثه فى حزن وأسى، عن ثورة طاحنه، سحقت كل عود أخضر فى البلاد، ولم ينجو من نارها أحد. وبعد ذلك يطلب الحكيم من الملك إنقاذ البلاد مما تردت فيه. وفى أخرها يبشر حكيم الدولة القديمة بمقدم عصر "ذهبى جديد".

وفيما يلى نورد بعض مقتطفات من هذه البردية [١].

يتحدث "ايبوور"[٢] عن تقاعس الحاكم عن مسئولياته نحو الرعية، حتى أصبح لا يدرى شيئاً عما تردت فيه الدولة من بلاء، فيقول للملك المسن :

" أن الذين حوله كانوا يغذونه بالأكاذيب وأن عظماء البلاد لا تبلغهم أمورها،...... والكل آل إلى الدمار. أن جهل إنسان لذلك أمر يريح النفس وقد فعلت ما يرضى .... أفندتهم"

وعن كيف أنقلب رجال البلاط على الأسرة المالكة، يقول الحكيم مخاطباً الملك:

"أنظر أن النبيلات اصبحن يتضورن جوعاً، ولكن رجال الملك راضون عما فعلوه.. "

---

(١) اعتمدنا على مقتطفات من هذه البردية وردت فى المراجع الآتية :
أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ١٥٩، السقا، المرجع السابق، ص وكذلك Gardiner) التى سبقت الإشارة إليه، ص ١٠٨-١١٠، وسيد توفيق، المرجع السابق، ص ١٤٨-١٥١، وعبد العزيز صالح، حضارة مصر القديمة وآثارها، دار النهضة العربية، القاهرة، ص ٣٩٤-٣٩٩

(٢) أو إيوور او إيو العجور، وكان حكيماً من دعاة الإصلاح ويدرك مفاسد الحكم فى عصره، وكان يتمنى أن يقوم الملوك بالإصلاح دون أن يعرض عليهم الإصلاح جهراً. أنظر : عبدالعزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٩١، وبرستيد، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ترجمة زكى سوس، دار الكرنك، القاهرة، ١٩٦١، ص ٢٨٣-٣٥٢، خاصة ص ٢٨٩-٣٠٢.

ويتحدث عما اعترى الحكومة المركزية من انهيار فيقول :

" انظر الآن لقد وصل الأمر إلى (اسوء) الحدود، وحرمت البلاد من الملكية على يد فئة لا تعرف كيف تسير الأمور ...." "انظر، انه لم يعد هناك وجود للدواوين، وصار الناس أشبه بقطيع لا راعى له" .

ويصف "ايبوور" الثورة، فيقول للملك :

"أنظر، لقد ارتفعت السنة اللهيب، وامتدت نارها، وستكون حرباً على اعداء البلاد. قال حراس الأبــواب فلننطلق وننهب، وأبــى الحمالــون أن يحملوا أحمالهم. تسلــح صيــادو الطيــور بأسلحتهم.. وحدث شئ قدر فى عهد "حورس ...هوجمت الإدارات العامة ونهبت قوائمها ... وفى الحق لقد ذبح الموظفون وسلبت دفاترهــم ولم تعد لكبار الموظفين كلمة مسموعة، أن مجموعات القوانين قد طرحت على الأرض، وصار الناس يطؤنها بأقدامهم فى الساحات العامة. والفقراء يعبثون بها على قارعة الطريق. وكيف امتلأت البلاد بالعصابات، حتى ليذهب الرجل إلى الحرث حاملا درعاً وكيف أصبحت الطرق غير محروسة ويختبئ اللصوص بين الأشجار حتى إذا اتى المسافر ليلاً انقضوا عليه وسرقوا ما معه ويضرب بالعصاه حتى تخمد أنفاسه ثم يذبح ظلماً ...أن الرجل ليذبح بجوار أخيه فيتركه وحيداً لينجو بنفسه .... أن مخازن الملك أصبحت حقاً مباحاً للجميع"

ثم يتكلم "ايبوور" عن كيف انتشرت الثورة فى كل أرجاء البلاد، وكيف اشتركت فيها جميع طبقات الشعب فيقول مخاطباً الملك :

"انكشفت أسرار مملكة الصعيد والدلتا... وجرى بعض أهل الأقاليم مجرى أهل العاصمة فهاجموا المسيطرين عليها ... وكيف شارك فى الثورة حتى أصحاب أهدأ الحرف كبائع الحلوى وصانعى الجعة".

وكتب يقول لقد استمرت الثورة حتى جعلت الأرض تدور كعجلة صانع الفخار. وتعكس المقتطفات التالية ما آلت إليه الدولة من وهن، وما اعترى حضارتها وأحوالها الاقتصادية من تدهور :

"إن الدولة فى طريقها إلى أن تصب الماء (لغيرها) ومن أضاع الماء (أى أمكانيات البلاد) يكون قد شل الذارع الفتية وقيدها فى الأغلال".

وعن كيف هجر الناس الحرف والصناعات وعم الفقر والخراب يقول :

"وفى الحق .. لقد نفذت الغلال فى كل مكان وتجرد القوم من الملابس والزيوت والعطور، وصار كل إنسان يقول لم يبق عندى شئ ... "

وكيف أن أسوان وجرجا لم تعودا تؤديان الضرائب نتيجة شيوع الفتن فعزت الغلال ومنتجات المصانع... وعن كيف قلت سفن الصيد وتخريبت المدن وأصبح الصعيد خراباً ... وكيف أدى انكماش النشاط الاقتصادى إلى انتشار البطالة .. وأصبح الصناع جميعاً عاطلين، وافسد أعداء البلاد فنونها ....، وأصبح بناة الأهرام فلاحين... وكيف أدى كل هذا إلى أن أصبحت العاصمة فى خوف من العوز، وأصبح الناس يأكلون الحشائش، ويبتلعونه بالماء وقد يأخذون الطعام من أفواه الخنازير...."

ثم يتابع "ايبوور" قصته عن الخراب الذى حل بمصر فيقول :

"فقد انبث الوباء فى كل ارض، والدم صار فى كل مكان، واصبحت لفائف المومیات تتكلم دون أن يقترب منها إنسان ...".

ويصف "ايبوور" التغير العميق فى أحوال مصر الاجتماعية وكيف انقلب الوضع الاجتماعى الذى عرفته الدولة القديمة، فانهارت الملكية ومعها الطبقة الأرستقراطية، وأصبح المغلوب على امره فى القمة بعد أن كان فى القاع.

"أن مخازن الملك أصبحت حقا مستباحاً لكل إنسان .... وقالت كل مدينة دعونا نقصى العتاه بيننا ....".

وكيف صب العامة غضبهم على الأغنياء فصاروا يقذفون بأطفالهم إلى الجدران. وترك الأثرياء أطفالهم الذين تمنوا ولادتهم، والقوهم فى الطريق عساهم يجدوا من يمد يده إليهم وفى هذا يقول :

"أنظر أن السيدات النبيلات يهربن ويلقين بأطفالهم خشية الموت، أن أولاد رجال البلاد اصبحوا فى خرق باليه وأولاد الحكام يلقون فى الشوارع...

انظر أن السيدات النبيلات اصبحن يجمعن بقايا الحصاد...إن من لم يملك حفنة من القمح أصبح يملك مخازن، والذى لم يكن يملك ثوراً أصبح يملك الآن قطعاناً ... لقد أصبحت النبيلات يعملن بأيديهن ويعمل النبلاء فى حوانيت الحرف، وأصبح من كان ينام على حصير مالكاً لسرير.."

وكان لكل هذه التطورات آثاربعيدة المدى على الوضع الاجتماعى :

أصبح الحزن يملأ قلوب أصحاب الأصل الرفيع، أما الفقراء فقد امتلأوا ســـروراً، أصبحت كل بلده تقول فلنقصى أصحاب الجاه من بيننا .. وكيف اصبح الحكام ضياعاً وفى بؤس شديد ... وكيف ...حرمت البلاد من الملكية.

" أن من كان يرفل فى الحلل اصبح يرتدى السمال، ومن لم ينسج شيئاً لنفسه اصبح الآن مالكاً لأغلى ملابس الكتان .."

وكيف انهار التكافل الاجتماعى إلى حد :

"أن الرجل يذبح بجوار أخيه فيتركه وحيداً لينجو بنفسه ..."

"انظر الآن، لقد حدث ما لم يحدث منذ وقت طويل، لقد سرقت عامة الناس الملك واخذوه ". "انظر الآن، أن الذى دفن كما يدفن الصقر "حورس"، أصبح ملقى فوق نعش وأصبح الهرم خالياً مما كان فيه".

وعن كيف انهارت الدولة ، حتى أصبحت خيراتها نهباً مشـاعا للمرتزقة والأجانب ، كيف تمرد الجنود المرتزقة على الدولة، وكثر تعرض البلاد للإعتداءات الخارجية، يقول الحكيم ايبوور:

" والأجانب الذين كانوا يخشونها، والذين عرف الشعب (تفاهتهم) أصبحوا يقولون لن تستطيع مصر أن تأتى شيئاً، فالرمال (المحيطة بها) هى كل حمايتها، ...... " إن الجنود الذين جندناهم من أجل صالحنا أصبحوا ضمن الأسيويين، ألا بعداً للخراب الذى حدث (فى مصر). فقد جعل القبليين الأسيويين يعرفون أحوال البلاد " ..... " تخربت أقاليم البلاد، وتوافدت قبائل غريبة إلى مصر، ومنذ أن وصلوا لم يستقر المصريون فى أى مكان".......

" وأصبح الأجانب مصريين فى كل مكان ... ، وأولئك الذين كانوا مصريين أصبحوا أغراباوأهملوا جانباً . " [١]

أما عن تجارة مصر الخارجية بجيرانها، فيقول " الحكيم ايبوور " :

" ما عاد أحد يبحر اليوم نحو جبيل، فما الذى سوف نفعله إذن بخصوص أخشاب الأرز (التى اعتدنا أن نصنع منها) توابيتنا، والزيوت التى يحنط الكبراء بها، (وترد من) هناك، ومما يجاوز كفتيو. ما عاد يأتى من ذلك شئ حتى أصبح مجيء أهل الواحات بمنتجاتهم(البسيطة) شيئاً ذا بال . " [٢]

وتعكس العبارات الآتية نزعة تشاؤم ويأس، تظهر لأول مرة فى الأدب الفرعونى لكى تصير سمة من سماته الأساسية، حتى فى ظل ظروف لم تكن تبرر اليأس أو التشاؤم :

"حقا لماذا تدور الدنيا كما تدور عجلة الفخار، ليتها تكون النهاية للجميع، ليته لا يكون حملا ولا ميلاداً، وتخلو الأرض من الضوضاء والضجيج والنزاع".

بردية " نفرتى " :

توجد هذه البردية فى متحف مدينة "بطرسبرج"[٣]. وقد نشرت لأول مرة عام١٩١٣ ثم ترجمت إلى عدة لغات. والراجح أنها كتبت فى عهد الأسرة الثانية عشر، كدعاية للملك "امنمحات الأول" مؤسس هذه الاسرة التى حكمت فيما بين عامى ١٩٩١و١٧٧٨ قبل الميلاد. وتنسب احداثها إلى عهد الملك "سنفرو" احد ملوك الاسرة الرابعة، الذى طلب من رئيس الكهنة فى معبد "الألهة باست" ويسمى "نفرتى" أن يحدثه عن حدث من أحداث المستقبل، فقص عليه ما سوف تتردى فيه البلاد من فوضى، وعما يلم بها من خراب ودمار، حتى يأتى ملك أسمه "امينى" (اختصار أمنمحات) ليخلص مصر من هذه المحنة. وان "امينى" سيأتى من الجنوب ويولد فى الصعيد من أم نوبية.

---

(١)و(٢) عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ، سبق ذكره ، ص ٣٩٢

(٣) سميت هذه المدينة "لينينجراد" خلال فترة الحكم الشيوعى، ثم استعادت اسمها القديم أخيراً.

يقول الكاهن "تفرتى" يصف ما تردت فيه البلاد من فوضى وحزن ويأس :

"سأريك البلاد وقد أصبحت رأسا على عقب وحدث فيها ما لم يحدث من قبل. سيمسك الناس بأسلحة القتال، وتعيش البلاد فى فزع سيصنع الناس سهاماً من النحاس. وسيسعى النَاس للحصول على الخبز بإراقة الدماء. يضحك الناس ضحكات الألم، ولن يكون هناك من يبكى على ميت أو يقضى الليل صائماً حزنا على من توافيه منيته، ولن يهتم رجلاً إلا بنفسه . لن يعنى أحد بترجيل شعره، ويجلس الإنسان لا يحرك ساكنا، بينما يرى الناس يقتلون بعضهم البعض. سأريك (حالة البلاد) وقد اصبح الابن ضد ابيه وصار الأخ عدوا (لاخيه) وصار الرجل يقتل اباه. لقد انتهى كل شئ جميل وصار الناس يفعلون ما لم يفعلوه من قبل. أنهم يأخذون أملاك الرجل ويعطونها للغريب. سأريك المالك وقد اصبح فى عوز وحاجة، والغريب وقد اثرى وشبع". " وأصبح للكلام فى قلوب الناس وقع كوقع النار، ولم يعد أحد يصبر على سماع النصيحة. "

ثم يصف الكاهن "تفرتى" ما طرأ من تغير فى الأحوال الزراعية، وانكماش الإنتاج الزراعى وتغير الأوضاع الاجتماعية، فيقول :

"لقد قلت مساحة الاراضى، ولكن عدد ملاكها تضاعف ، ومن كان يمتلك الكثير اصبح لا يملك شيئاً، ما اقل كمية القمح سأريك البلاد وقد أصبحت شذراً بذراً، وصار من كان لا حول له صاحب سلطة ويملك السلاح ... سأريك البلاد وقد اصبح فى القمة من كان فى الدرك الأسفل، وسيعيش الناس فى القبور، وسيتمكن الفقير من الأثرياء، والمتسولون هم الذين سيأكلون خبز القرابين، بينما يبتهج الخدم بما حدث".

وأخيراً يصل كاتب البردية إلى هدفه فيقول على لسان الكاهن "تفرتى" :

"وعندئذ سيأتى ملك من أهل الجنوب، اسمه "أمينى" له المجد، ابن إمرأة من ارض النوبة يولد فى الوجه القبلى، سيلبس التاج الابيض، ويلبس التاج الاحمر، ويوحد القطرين بما يشتهيانه".

آثار الثورة الاجتماعية :

رأينا فيما سبق كيف فتكت الثورة بمصر، وما ترددت فيه البلاد من فوضى وخراب، وكيف انهك الألم والأحزان قواها. ولكنها خرجت من محنتها وقد تعلمت أشياء جديدة عن قيمة الفرد، وفلسفة الحكم، ومسئولية الراعى عن رعيته، وأسس الحكم الصالح، وعن مسئولية الكل أمام الخالق يوم الحساب.

كانت المحنة قاسية، كان ثمن المعرفة دماء ودموع والم. ولكن كان لابد لها أن تحياها حتى يعرف الإنسان ويعى حقه فى الحرية وحقه فى الحياة.

وسوف نعتمد، فى محاولتنا تتبع آثار هذه الثورة على وثيقتين من أخطر وثائق التاريخ الفرعونى هما وثيقة "الملك اختوى لابنه" الملك "مريكا رع"، "وقصة القروى الفصيح".

وصية الملك "اختوى" لابنه (مريكا رع) :

توجد البردية التى تضمنت هذه الوصية فى متحف "مدينة بطرسبرج". وقد نشرت لاول مرة عام ١٩١٣، ثم ترجمت لعدة لغات. وترجع هذه البردية إلى عهد الاسرة الثامنة عشر، وتعتبر من أهم الوثائق فى دراسة بعض جوانب الحياة فى مصر فى أخر "عصر الاهناسيين".

وتتضمن البردية النصائح والتعاليم، التى وصل إليها "اختوى" خلال تجربة الحياة. وكان يهدف من ورائها أن يجنب ابنه "مريكا رع" ما وقع فيه هو من أخطاء. كما تتضمن البردية معلومات هامة عن التغيرات العميقة، التى طرأت على فلسفة الحكم، واسس الحكم الصالح، والعقائد والقيم الدينية والاجتماعية، وأخلاقيات المجتمع ومنزلة الفرد، فى أواخر "العصر الأهناسى".

وفيما يلى مقتطفات من وصية "اختوى لابنه" :

"يا بنى تحل بالفضائل حتى يثبت عرشك فى الأرض .. هدئ من روع الباكى ولا تظلم الأرملة، ولا تحرم أنسانا من ثروة أبيه، ولا تطرد موظفاً من عمله، ولا تكن فظاً بل كن رحيم القلب ...... لا تقتل فإن ذلك لن يكون ذا فائدة لك، بل عاقب بالضرب والحبس فإن ذلك يقيم دعائم هذه البلاد، اللهم ألا من يثور عليك وتتضح لك مقاصده، فإن الله يعلم خافية القلب والإله هو الذى يعاقب اخطاءه بيديه. لا تقتل رجلاً اذا كنت تعرف جميل مزاياه، رجل كنت تتلو معه الكتابات".(١)

"لا تميز بين ابن شخص (ذى حيثيه) على شخص فقير، بل قرب إليك اى إنسان بسبب عمل يديه. أقم الحدود وشيد الحصون لأن الجيوش تنفع سيدها.. انظر أيها الملك. يا من أريد له دوام السرور ، أنه لا يمكنك ان تتقاعس وتنام مطمئناً إلى قوتك ، وتفعل ما يرغب فيه قلبك اعتماداً على ما فعلته انا قبلك، فتظن أنه لا يوجد لك أعداء داخل حدودك . ما أعظم الشخص العظيم عندما يكون رجاله المقربون عظماء".

ويستمر : " أختوى " فى تعاليمه فيحذر ابنه من الاعتماد على الضعفاء ، ويذكره بان الثورة قامت بسبب تمييز طبقة على أخرى ، كما يحذره من أن يعاقب الناس دون خطأ جنوه .

ويتابع " اختوى " وصيته فيتكلم عن وجود محكمة بعد الموت ، يقف امامها الانسان صاغراً، لاينفعه أمام قضائها الا العمل الصالح ، لأن ما فعله فى دنياه يكدس بجواره .

ثم يأمره بطاعة الله والخوف منه فهو يعلم ما يخفى ، وان لا ينسى آخرته، وأن يعمل لليوم الآخر ، وان يذكر نعم الله عليه ، الله الذى خلق انفاس الحياة فى خياشيمهم (أى الناس) .. انه يشرق فى السماء ليلبى رغبتهم، انه خلق لهم النباتات والحيوانات والطيور والأسماك ليقتاتوا منها .. " .

---

١ - أى كان زميلاً لك فى الدراسة .

ثم يذكره بأن الله يقبل اخلاق الرجل المستقيم الضمير ، اكثر من قبوله للثور الذى يقدمه الغنى .

ويفسر اختوى لابنه فلسفة الجزاء الألهى فيقول :

"أنه (اى الله) يقضى على من يملأ الشر قلبه بينهم (أى الناس) ، كما يضرب الأب ابنه اكراماً لاخيه ، لأن الله يعرف كل الناس".

ويتضح من دراسة نصوص البردية السابقة، حدوث تغيرات عميقة فى الفكر السياسى والاجتماعى ، وفى المعتقدات والقيم الدينية والاخلاقية فى مصر فى اواخر العصر الاهناسى، كما يتضح من الملاحظات الآتية :

١- يبدو الملك بشرا كسائر البشر، يمكن ان يخطئ ويصيب ، كما يمكن ان يملأ قلبه الندم على ما وقع فيه من خطأ . كما تعكس لهجة الملك قدرا كبيراً من التواضع والخوف من الله والرغبة فى إرضائه. لم يعد إلهاً فوق البشر، يصلى الكل له ويتقربون إليه فى حياته ومماته ، ويسعون إلى كسب محبته ورضائه .

٢- تعكس الوثيقة تغيراً واضحاً فى فلسفة الحكم وفى معايير تقدير عظمة الرجال. فهى تجعل ما يتسم به الملك من فضائل اساس لما يتمتع به الملك من استقرار. وتدعو إلى العدل، واقامة الحق بين الناس، كأساس للحكم الصالح. وترى أن الملك العظيم هو الذى يعتمد على عظماء الرجال لا ضعافهم ، وهو الذى يساوى بين الناس . ويفاضل بينهم على اساس ما يتمتع به كل منهم من كفاءه . وباختصار : إن الوثيقة تضع منهاجاً واضحاً لاسس الحكم الصالح .

٣- تعتبر هذه الوثيقة من أوائل الوثائق فى تاريخ مصر الفرعونية التى تتكلم عن محاكمة او حساب بعد الموت ، حيث يقف جميع البشر سواء أمام الله ، حيث لا ينفع الفرد فى اليوم الاخر إلا ما قدمت يداه من خير . كما تتضمن الوثيقة تفسيراً لحكمة الجزاء الألهى بانه لصالح الفرد والمجتمع [1].

١- يقول أحد ملوك اهناسيا لولده : " أصلح مكانك فى العالم الآخر بالاستقامة وأداء العدالة فإن قلوب الأرباب ترتاح إليهما." ثم يواصل حديثه فيقول : " لا تثق فى امتداد السنين، فإن (قضاة العالم الآخر) يرون العمر كأنه ساعة . وأذكر أن الإنسان يبعث ثانية بعد وفاته وتوضع أعماله على هيئة الكوم بجانبه . وان الحياة هناك معناها الخلود، وأن الغبى هو من يستخف بها ، أنظر عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٦٧-١٦٨.

٤- تتضمن الوثيقة أيضاً معلومات هامة عن الحروب والمنازعات التى شهدها هذا العصر. وعن الاستراتيجية العسكرية. إذ يذكر " اختوى " ابنه، بانه إذا ضعف مركزه فى الصعيد ضاع عليه شمال مصر. كما تدعو إلى زيادة السكان فى مناطق الحدود حتى يمكن الدفاع عنها، وعن أهمية منطقة البحيرات المرة فى الدفاع عن مصر، وعن كيفية محاربة قبائل البدو الاسيوية التى نشرت الرعب والفساد فى شمال مصر.

٥- تعكس الوثيقة وعياً كافياً بخطورة تمييز طبقة من طبقات المجتمع على اخرى ، وكيف كان هذا الظلم الاجتماعى سبباً فى الثورة التى خربت البلاد .

وعلى العموم، يمكن القول إن مصر تعلمت الكثير من محنتها ، وان الملوك حفظوا تماماً درس الثورة فلم تعد الليلة اشبه بالبارحة : وما كان لها أن تكون . ولكن ذلك كان إلى حين !!

قصة القروى الفصيح " خو إن أنوب " :

نشرت كاملة عام ١٩١٣ ثم ترجمت إلى عدة لغات (١) . وقد كتبت هذه البردية ووقعت احداثها فى عهد الملك "نب كاوو رع "، آخر ملوك الاسرة العاشرة فى اهناسيا. وكانت من أحب قطع الادب وأكثرها رواجاً فى عهد الدولة الوسطى ، لأنها كانت تعبيراً بليغاً عن آمال الشعوب فى الحياة فى ظل عدالة خالدة .

وهذه البردية عبارة عن خطاب ، كتب فى بلاغة نادرة ، موجه رأساً إلى كبير رجال البلاط فى عصور الملك " نب كاوو رع "، وتتكون من مقدمة تحكى قصة من قصص الظلم الذى حاق بإنسان بسيط دون ما ذنب جناه، ويتبع القصة تسع شكاوى تنادى فى جرأة وعن وعى وادراك ، برد الظلم ونصرة الحق.

وتعتبر هذه البردية من الوثائق الخالدة فى تاريخ الفكر السياسى والاجتماعى للإنسانية جمعاء، لأنها تقنن ، فى بلاغة رائعة ، آمال الشعوب فى العدل والحكم الصالح والعدل الاجتماعى . كما توضح فى دقة السند الشرعى الذى يربط بين الحاكم

---

(١) نشرت بالعربية أكثر من مرة . انظر مثلا : على منصور ، المرجع السابق ذكره .

والمحكوم . بل يرى البعض أنها أول وثيقة فى تاريخ الفكر الانسانى ، تدعوا إلى الديمقراطيـة وحقـوق الانسان، وتربط فى ذكاء بالغ بين المسئولية والسلطة كأساس للحكم ، وان الحاكم ما هو إلا راع مسئول عن رعيته [١] .

فضلاً عن هذا ، فان هذه الوثيقة تصور المناخ الذى ساد مصر فى ظل العصر الاقطاعى فى اواخر " عهد الاهناسيين " ، وتعكس تقدماً منقطع النظير فى الوعى السياسى والاجتماعى بين عامة الشعب ، كما تعكس حنين مصر إلى عدالة خالدة .

وتؤكد هذه البردية مرة أخرى، أن مصر قد تعلمت الكثير من تجربة المحنة والألم التى مرت بها خلال ثورة العصر الوسيط الأول ، ويكفى لبيان ذلك أن تقرأ الفقرة التالية :

يقول القروى الفصيح مخاطباً الملك :

"لقد وليت لتقضى فيما بين الناس من خصام وتعاقب المجرم، كن رحيماً محسناً، ونقب عن الحقيقة ، ولا تكن ظالما حتى لا تدور عليك الدوائر يوماً، ولا تسلب فقيراً ماله ولا تنهب ضعيفاً تعرفه . ان مال الفقير حياته ومن اخذه فقد خنقه".

وهذه كلمة موجزة فى القصة :

حدث ذات يوم ان قرويا من وادى النطرون يدعى " خو ان أنوب " ، اراد الذهاب إلى اهناسيا [٢]، ليبيع بعض الحاصلات ، ويشترى بثمنها غلالاً لاسرته. فلما صار على مقربة من اهناسيا ، رآه من بعيد شخص يسمى " تحوتى نخت " ، كان من اتباع " رنس بن مرو " الذى كان رئيس البلاط فى قصر الملك " نب كاوو رع" أحد ملوك الأسرة العاشرة . وعزم " تحوتى نخت " على اغتصاب ما مع القروى مستغلاً فى ذلك منصبه فى البلاط الملكى، ودبر لذلك حيلة .

---

(١) محمود السقا ، فلسفة وتاريخ النظم الاجتماعية والقانونية ، سبق ذكره ، ص ١٧٢ - ١٩٧٣ ، تاريخ القانون المصرى ، نفس الناشر ، القاهرة ، برستيد ، المرجع السابق ، ص ٣٠٤ - ٣١٥ .

(٢) كانت عاصمة مصر فى ذلك العصر .

أمر " تحوتى نخت " أحد خدمه ان يحضر من بيته ، وكان قريباً، قطعه من نسيج ووضعها فوق عرض الطريق. فلما قدم " خو إن أنوب " حذره " تحوتى نخت " من ان تدوس حميره على النسيج . فلما ساق القروى حميره على حافة الطريق من ناحية حقل شعير ، كان يملكه " تحوتى نخت ". نهره " تحوتى نخت " لأنه جعل من حقله طريقاً لحميره. فأجاب " خو ان أنوب "، انه لم يقصد الاضرار به. فالطريق مغطى بنسيجه، وليس امامه من سبيل للمرور سوى حقل الشعير. واثناء حوارهما أكل أحد الحمير شيئاً من الحقل. فاتخذ " تحوتى نخت " من ذلك ذريعه ليستولى على الحمار وما يحمل، ثمناً لما اكله من شعير . فصرخ القروى أمن العدل أن تأخذ حمارى مقابل قبضه من شعير، وصاح قائلاً انه يعرف صاحب هذه الضيعه " رنسى بن مرو ". انه يقف فى وجه اللصوص فى ارجاء البلاد، فهل اسرق فى ضيعته . فنهره " تحوتى نخت" واوسعه ضرباً حتى بكى من الالم ، ثم أخذ حميره . ظل القروى يستجديه عشرة أيام أن يعيد إليه حماره، ولكن دون جدوى. فلما يأس ذهب إلى رئيس البلاط يشكو إليه.

وراى " خو ان أنوب " رئيس البلاط وهو يهم بالخروج من بيته ، فقال له: "هل لى ان ارفع إليك امرا ؟ ارجوك ان ترسل لى تابعك حتى ابلغه ما اريد " فارسل له "رنسى" تابعه ، فشرح له القروى مظلمته . وعندئذ رفع " رنسى " قضية ضد " تحوتى نخت " أمام القضاه الذين كانوا معه .

قال القضاة أن هذا القروى لابد أن يكون احد فلاحى " تحوتى نخت " الذى ترك العمل عنده ليعمل عنده غيره ، وان ما حدث هو ما يستحقه كل من يفعل فعلته وأن على " رنسى " الا يعاقب " تحوتى نخت " ، ويكفى أن يأمره بأن يعوض القروى عما فقده من ملح ونطرون. ولكن " رنسى " لزم الصمت فلم يرد على القضاة ولم يرد على القروى .

وجاء القروى مرة ثانية ليشكو، ويطلب منه ان يقيم العدل حتى ينال العدل بعد موته. ويقول له :

" انك ابواليتيم، وزوج المرأة المهجورة ، ودثار من لا أم له".

فذهب " رنسى " إلى الملك " نب كاوو رع " ليحكى له قصة القروى الفصيح. فنصحه الملك ان يجعل ذلك القروى يطيل اقامته ليستمر فى الشكوى، وامر " رنسى " ان يسجل كل ما يقوله القروى. وفى نفس الوقت أمر بأن يعنى بأمر القروى واسرته ويكفل لهم ما يحتاجونه من قوت، على الا يعرف القروى شيئاً من ذلك. وجاء القروى مرة تلو الأخرى، وفى كل مرة يعبر عن شكاواه فى أسلوب بليغ وبقدر أكبر من الجرأة والشجاعة، حتى بلغت شكاواه تسعا ، تعتبر من روائع الادب الفرعونى . وفى آخر شكواه يئس القروى وصمم على قتل نفسه . وأفحص شكواه فى جرأة شديدة بقوله :

"انظر انى اشكو إليك ولكنك لم تسمع فهل تريد منى ان اذهب واشكوك إلى "انوبيس" اله الموتى."

وترك القروى "رنسى" ليذهب ، فأرسل " رنسى " من جاء به . وكان القروى يخشى ان يحل به عقاب من " رنسى " . فلما رآه ابتدره قائلاً :

" انى تواق إلى الموت كما يتوق الظمآن عندما يقترب من الماء، وكما يتوق فم الرضيع إلى لبن (امه) " .

"فقال له " رنسى " :

" لا تخف ايها القروى . انظر : انك ستقيم معى " .

"فرد القروى فى يأس" :

" لن أكل خبزك أو اشرب من جعتك ما حييت " .

"فرد عليه رئيس البلاط قائلاً" :

" تعال من هنا حتى تسمع ما قلته من شكاوى " .

ثم أمر "رنسى" ان تقرأ شكاوى القروى من بردية سطرت عليها. ثم أرسل "رنسى" البردية إلى الملك. وطلب الملك من "رنسى" ان يحكم بنفسه فى قضية القروى .

فأرسل لاحضار "تحوتى نخت"، وعوض القروى عن كل ما فقده ، كما انتقم له ممن ظلمه دون وجه حق، بان اعطى القروى كل ما كان يمتلكه " تحوتى نخت ".

وهكذا انتصر العدل، واوفى الحاكم مسئوليته نحو رعاياه، فحمى المظلوم من بطش الظالم، حتى لو كان هذا الظالم احد اتباع رئيس البلاط فى قصر الملك نفسه .

وهكذا أكمل التاريخ دورة من دوراته ، واشرق على مصر فجر عصر جديد، نعمت فيه مصر بالرخاء وعدالة الحكم[1].

١- وهذه بعض مقتطفات من بردية القروى الفصيح، تؤكد ما ورد فى المتن :
يقول الفلاح الفصيح مخاطباً " رنسى " :
" إذا كنت حقاً أباً لليتم، وزوجاً للأرمل، وأخاً للمطلقة، ورداء لمن لا أم له، فشجعنى على أن أنشر سمعتك فى هذه الأرض بما يتفق مع كل قانون قويم، وعساك تكون حاكماً برئياً من الجشع، ونبيلاً منزهاً عن الدنية ، تزهق الباطل وتحق الحق وتلبى نداءه. وهاأنذا أقول وانت تسمع. أقم العدل امدحك ويمدحك المداحون ... " .
ويتابع القول :
" ها أنت رئيس وبيدك ميزان، إذا اختل الميزان فأنت مختل ... فإذا سترت وجهك عمن يطفطف فمن يرفع العار ؟ " ... . " أقم العدل لرب العدل الذى عدل عدالته موجود "...." والعدل خالد إلى الأبد يهبط مع صاحبه إلى الجبانة، فإذا دفن احتوته الأرض معه، ولن تزول سمعته من هذه الدنيا، ولسوف يذكر بالخير ..... " " قل الحق إذن وافعل الصواب فالعدل عظيم وخالد....".
وفى جرأة شديدة يعنف القروى الفصيح رجل البلاط الملكى فى قوله :
" إنك قادر ومقتدر، وذراعك طائلة، ولكن فؤادك قاس، والرحمة قد تجاوزتك ..... " .
وكان نتيجة هذه الجرأة، أن أمر " رنسى " ، يضرب الفلاح بالسياط، ولكنه لم يرتعد، بل تابع جرأته فى قوله :
" ضل ابن مرو طريقه، وعمى وجهة عما يراه، وأصيب بالصمم عما يسمعه، وضل ضميره عما يذكر به. إنك أشبه بقرية من غير عمدة، وجماعة لا كبير لها ، ومركب لا ربان فيها، وعصبة لا هادى لها أنت نبيل نهاب، وحاكم مرتش، وكبير لمنطقة كان ينبغى أن يمنع الاختلاس ، ولكنه أصبح نموذجاً لمن يود أن يختلس ".
ثم يوجه الفلاح الفصيح قوله للملك :
" انت رع رب السماء وسط حاشيتك، ومنك قوام الخلق جميعهم ... فاقطع إذن دابر النهب وأوقفه وأكرم البائس، ولا تكن غضبانا ضد الشاكى، واحذر قرب الآخرة :-" أنظر فيما سبق، عبدالعزيز صالح، المرجع السابق، ص ٣٩٦-٣٩٧، برستيد ، المرجع السابق ، ص ٣٠٤ - ٣١٤ .

الفصل الخامس

عصر الدولة الوسطى : عصر الرخاء الاقتصادى

(حوالى ٢١٣٤-١١٧٨ قبل الميلاد)

تمهيد :

يبدأ عصر الدولة الوسطى، كما سبق القول ، حوالى عام ٢٠٦٠ قبل الميلاد المجيد بتولى ملوك الأسرة الحادية عشر عرش مصر . وخلال هذا العصر استردت مصر وحدتها المفقودة ، وشهدت فترة ازدهار اقتصادى ، أقترن فى نفس الوقت ، بتغيرات عميقة فى الأوضاع السياسية والاجتماعية . ولكن فى أواخر عهد الأسرة الثانية عشر ، أخذت جحافل الفوضى والانحلال والظلم ، تدمر كل شئ مرة أخرى ، كما فقدت مصر وحدتها، وعرف المغلوبون على أمرهم من أبنائها الظلم والاستبداد على يد أمرائهم وسادتهم [١].

ونفصل فيما يلى ما سبق إجماله .

ظهر خلال الفترة المتأخرة من العصر الاهناسى ، أى عصر الأسرة العاشرة ، أسرة قوية فى طيبة ، أسسها " منتوحتب الأكبر " ، أو " اينوتيف " أو " انتفف الأكبر"، كما يسمى أيضاً . وقد استطاعت هذه الأسرة ان تحقق قدراً من الاستقلال الذاتى فى حكم إقليم طيبة ، وان تجمع جيرانها فى حلف ضد ملوك اهناسيا . وبعد فترة من المنازعات والصراع ، سقطت اهناسيا فى يد أمراء طيبة ، ثم قدر لهؤلاء فرض سيطرتهم على مصر كلها وأعادوا إليها وحدتها .

وهكذا انتهى العصر الوسيط الأول ، ويبدأ عصر جديد هو عصر الدولة الوسطى، الذى يشمل فترة حكم الأسرتين الحادية عشر ، وقد حكمت فيما بين عامى ٢٠٦٠و١٩٩١ قبل الميلاد ، والثانية عشر التى حكمت فيما بين عامى ١٩٩١ و١٧٨٦ قبل الميلاد .

تبدأ فترة حكم الأسرة الحادية عشر[٢] فى الحقيقة ، فى عهد الملك "إنيوتف" أو " أنتف الثانى "، حوالى عام٢١٣٠ قبل الميلاد كما ذكرنا حالاً .

١- لمزيد من التفصيل أنظر :

Gardiner, op. cit , pp. 107-145 and Winlock , H.E ., the Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes, New york , 1947 and Modles of Daily Life in Anicent Egypt , Combridge , Mass, 1955.

٢- يرى البعض ان فترة حكم الأسرة الحادية عشر تبدأ عام ٢١٣٤ قبل الميلاد فى عهد " منتوحتب الأكبر " . ولكن الراجح ان هذه الأسرة لم تستطع فرض سيطرتها على مصر كلها الا فى عهد منتوحتب الثانى ، أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، ص١٨٣ وما بعدها . وانظر فى الرأى المخالف عبدالعزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ، ص١٧١ وما بعدها .

وبدأت طيبة تنعم بعرش فرعون ، وتدفقت الضرائب على خزائنها من جميع أرجاء البلاد . وقد عمل ملوك هذه الأسرة كل ما في وسعهم لتوطيد دعائم حكمهم ووحدة مصر ، كما بذلوا جهوداً عظيمة للنهوض بمصر من كبوتها ، ونشر الامن والطمأنينة والعدل الاجتماعي في ربوعها ، والنهوض بحضارتها واقتصادها . وقد خلف "منتوحتب الثاني" على عرش مصر ابنه منتوحتب الثالث" الذى سار مقتفياً خطى والده ، ثم خلفه بعض ملوك ضعاف ، اتسم عهدهم بعدم الاستقرار.

ثم انهارت الأسرة الحادية عشر لأسباب غير معروفة ، وخلفها على عرش مصر ملوك الأسرة الثانية عشر حوالى عام ١٩٩١ قبل الميلاد ، التى أسسها الملك "امنحات الأول" [١] . وكان هذا الملك رجلاً نبيلاً عصامى النشأة، ولد فى صعيد مصر لام من النوبه . وقد استطاع بذكائه، وحسن إدراكه وجهده ، ان يعتلى عرش مصر وينتصر على القوى الرجعية التى عارضته . وفى عصره عاد إلى مصر استقرارها كما أمنت حدودها ، وامتد نفوذها إلى خارج حدودها شرقا وجنوباً . وفى عهد هذا الملك انتقلت عاصمة مصر من طيبة شمالاً إلى موقع جنوب منف ، حيث توجد قرية اللشت الحالية . وقد وجدت آثار هذا الملك فى أنحاء كثيرة من البلاد [٢] .

ويبدو ان أيام "امنمحات الأول " كانت مليئة بالمتاعب . فقد اغتاله حراسه فى القصر ربما لصراع داخل الأسرة على عرش مصر [٣] ، وخلفه " سنوسرت الأول"

(١) سمى هذا الملك نفسه باسم آخر هو " وحم مسوت " ، وهى تعنى " معيد النهضة " ، عبدالعزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٨٢ وكذلك : Gardiner , op. cit.,p . 147-149 .

(٢) تقول " بردية نفرتى " وهى محفوظة فى متحف بطرسبرج ، التى كتبت فى عصر الملك " امنمحات الأول " ، ولكن كاتبها نسبها إلى أيام " سنفرو " من ملوك الدولة القديمة ، ان " الملك سنفرو " طلب من كاهن فى معبد " الإله باست " فى الزقازيق ان يحدثه عن الماضى ويذكر له شيئاً ياتى به الغد . فطلب الكاهن ان يترك الماضى ويتحدث عن المستقبل ، وأخذ يصف المآسى التى تحل بمصر فى المستقبل حتى يظهر ملك يدعى " أمينى" (امنمحات الأول)، اختارته الآلهة منذ أبعد الأزمنة لينقذ البلاد من ويلاتها ويعيدها إلى ما كانت عليه . ويعتقد المؤرخون ان هذه البردية كتبت لتمجيد ملوك الأسرة الثانية عشر، وإيهام الشعب ان العناية الإلهية ، قد بعثت " بأمنمحات " لإنقاذ مصر . وقد سبقت الإشارة إلى هذه البردية . انظر ، أحمد فخرى ، الأدب المصرى .

(٣) أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، سبق ذكره ، ص ٢١٥ ، وعن العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ، سبق ذكره ، ص١٧١ -٢٠٤، ويلاحظ أن بعض المؤرخين لا يؤيد فكرة مقتل هذا الملك .

الذى بسط نفوذه على كل مصر وكذلك البلاد المتاخمة لها . وقد اتسم عهده بالاستقرار والأمن . وقد خلف " امنمحات الثانى " ، " سنوسرت الثانى " ، الذى كان أول من اهتم بمشروعات الرى العظيمة فى إقليم الفيوم . وأعقب " سنوسرت الثانى " ، البطل العظيم " سنوسرت الثالث " ، الذى اعتبره كثير من المؤرخين اعظم ملك جلس على عرش مصر . فقد قضى تماماً على نفوذ أمراء الأقاليم وألقابهم وامتيازاتهم . وكان أول من كون جيشاً نظامياً فى التاريخ ، كما اشتهر بأعمال العسكرية التى ردت لمصر هيبتها وأمنها .

وقد مجدت الأجيال اللاحقة " الملك سنوسرت الثالث " ، وأنزلته منزلة الآلهة ، وشيدت المعابد لعبادة هذا البطل الأسطورة، وقد خلفه على العرش ابنه " امنمحات الثالث"، وكان إدارياً حازماً ، ومصلحاً عظيماً ، وسياسياً حكيماً ، وبناءاً كبيراً، وقد نعم الابن كثيراً بثمرة أعمال والده العظيم، وقد اشتهر هذا الملك بطول مدة حكمه التى ناهزت الخمسين عاما، وفى أواخر أيامه ضعفت سلطة العرش، وقد خلفه ملوك ضعاف ، كان من بينهم "الملكة سبيك نوفرو " Sebeknofru " التى رأى أحد المؤرخين فى اعتلائها عرش مصر نذير شر وخراب .

ثم انهارت الأسرة الثانية عشر، ربما لوجود أعداء أقوياء لمصر فى فلسطين، وربما بسبب الصراع على العرش ، وربما نتيجة استرداد أمراء الأقاليم سلطتهم التى فقدوها، عندما ظهرْ فى تاريخ الأسرة الثانية عشر ملوك ضعاف، ولكننا لا نعرف على وجه اليقين لماذا انهارت هذه الأسرة العظيمة [١] .

وبسقوط الأسرة الثانية عشر ، انتهى عصر من امجد عصور مصر الفرعونية، ودخلت مصر عصرها الوسيط الثانى ، حيث حل بها الخراب والدمار ولفها الظلم والظلام[٢].

---

(١) أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، سبق ذكره ، ص ٢٢٢ .

(٢) لمزيد من التفصيل عن عهد الدولة الوسطى ، يمكن الرجوع إلى الأعمال الآتية ، أحمد فخرى ، مصر الفرعونية، سبق ذكره، ص ١٨٣-٢٣٣ ، محمد جمال الدين مختار ، لمحة عن تاريخ مصر السياسى والحضارى ، تاريخ مصر الحضارى فى العصر الفرعونى ، سبق ذكره ص ١٠٠ - ١٠١ وكذلك :

Gardiner, op. cit ., pp. 107 - 146 and 147.

المبحث الأول
سمات العصر

لقد واجهت الدولة الوسطى تحديات خطيرة ، تمثلت أساساً فيما حل بمصر من خراب وظلم وظلام وتمزق خلال عصرها الوسيط الأول .

ويرى بعض المؤرخين أن نظام الإدارة فى عهد الدولة الوسطى ، لم يكن يختلف فى جوهره عن النظام الذى ساد فى عهد الدولة القديمة ، وان كل ما يوجد من اختلاف بين العهدين ، إنما يتمثل فى تغيير أسماء بعض الوظائف [١] .

ولكننا نعترض على هذا الرأى ، نظراً لحدوث تغيرات هامة فى نظام الإدارة، كما يتضح مما يأتى :

١- تدل وثائق العصر على اختفاء التركيز الواضح فى السلطة ، وهو من سمات نظام الإدارة فى عهد الدولة القديمة ، حيث كان عدداً من الوظائف الهامة يركز فى يد شخص واحد . ففى خلال هذا العصر وجد وزيران ، أحدهما للشمال والآخر للجنوب ، بدلاً من وزير واحد لكل مصر[٢]. كما كثر عدد صغار الموظفين واتسعت سلطاتهم وعلا شأنهم.

ونلاحظ نفس الشئ بالنسبة للملوك أنفسهم . إذ لم يعد الملك ينفرد بحكم مصر وحده، بل جرت عادة ملوك الأسرة الثانية عشر ، على إشراك أبناءهم فى حكم البلاد أثناء حياة الملك ، الأمر الذى ساعد على الإقلال إلى حد كبير ، من الصراع داخل الأسرة الحاكمة على عرش مصر .

٢- كان منصب الوزير قاصراً ، فى النصف الأول من عهد الدولة القديمة ، على أبناء الملك . أما فى عهد الدولة الوسطى ، فقد تولى هذا المنصب أشخاص لم تكن تربطهم بالملك رابطة قرابة . ونلاحظ نفس الظاهرة حتى بالنسبة لمنصب الملك نفسه ، فقد كان مؤسس الأسرة الثانية عشر ، رجلاً عصامى النشأة .

---

(١) السقا ، المرجع السابق ذكره ، ص٢٩٩ حاشية رقم ١ .

(٢)المرجع السابق ، ص ٢٩٩ رقم (١) .

٣- تضاءلت سلطة حكام الأقاليم بشكل ملحوظ ، وخاصة خلال عصر الأسرة الثانية عشر ، واصبحوا مجرد موظفين لدى الملك . وكثيراً ما كان الملك يرسل مندوبين عنه لزيارة الأقاليم وكتابة تقارير عن أحوالها [١] .

٤- اتسع نطاق تدخل الدولة فى النشاط الاقتصادى عما كان عليه فى عهد الدولة القديمة ، كما سنرى فيما بعد ، الأمر الذى أدى إلى تزايد أعباء الإدارة وتعقد مشكلاتها . بل لقد وصل التدخل فى عهد الأسرة الثانية عشر، إلى درجة التنظيم الدقيق للحياة اليومية للناس[٢].

٥ - شهد هذا العصر تغييراً واضحاً فى فلسفة الإدارة والحكم .

٦- شهد هذا العصر ظهور ما يعرف بمجالس الطوائف والحرف ، كما سنرى فى حينه .

ونورد فيما يلى كلمة موجزة عن حكام الأقاليم ، وعن التغير الذى اعترى فلسفة الحكم والإدارة فى عهد الدولة الوسطى .

أولاً : حكام الأقاليم :

سبق أن رأينا أن حكام الأقاليم قد تمتعوا بقدر عظيم من النفوذ فى أواخر أيام الدولة القديمة ، حتى اصبحوا أشبه بالملوك داخل أقاليمهم . ولكن ثورة العصر الوسيط الأول، والتى قوضت دعائم الملكية ، حدت فى نفس الوقت من سلطة أمراء الأقاليم خلال هذا العصر، رغم استقلالهم بحكم أقاليمهم .

وقد حاول ملوك الأسرة الحادية عشر ، تارة بالقهر وتارة بالحيلة ، كسر شوكة حكام الأقاليم أو كسب ولاءهم ، ولكنهم لم يستطيعوا العودة بهذا الولاء إلى ما كان عليه الحال فى العصر الذهبى للدولة القديمة. كانوا مخلصين للملك أحياناً، وكان ما يتمتعون به من نفوذ يتناسب عكسياً مع ما كان يتمتع به الملوك من نفوذ. ولكنهم

---

(١) عبدالمنعم أبو بكر ، المرجع السابق ذكره ، ص٩١-٩٨ .

(٢) كما تدل على ذلك بعض الوثائق التى وجدت فى " مدينة كاهون " التى ترجع إلى عهد الأسرة الثانية عشر ، كما سنرى فيما بعد . انظر فى ذلك :

Gardiner , op. cit., p. 144.

لم يعودا خداماً للملك . كانوا يدفعون الضرائب للملوك ويرسلون ما يطلبه هؤلاء من رجال لأعمالهم الحربية، ولكن اهتمامهم وولاءهم كان لأنفسهم وأقاليمهم أولا وللملك ثانيا [١] .

وخلال فترة حكم الأسرة الثانية عشر ، استطاع الملك " امنمحات الثالث " ، القضاء على نفوذ الحكام وتجريدهم من ألقابهم ، كما قضى "الملك سنوسرت الثالث" على نفوذهم وامتيازاتهم ، وحولهم إلى موظفين تابعين للملك . ولكن يبدو ان ذلك كان إلى حين .

ويلاحظ فى نفس الوقت ، ان حاكم الإقليم لم يعد يتمتع بسلطة مطلقة ، أو يحكم وفقاً لهواه ، كما كان عليه الحال فى أواخر عهد الدولة القديمة أو خلال العصر الوسيط الأول . بل تدل وثائق عهد الدولة الوسطى ، على انكماش سلطتهم وعلى تغير واضح فى فلسفة الحكم فى اقاليمهم .

ثانياً : فلسفة الحكم :

أسفرت ثورة المغلوبين على أمرهم فى العصر الوسيط الأول ، عن تغيير عميق فى فلسفة الحكم فى عصر الدولة الوسطى . ولقد اهتزت فكرة الملك الإله ، وخاصة فى العهود الأولى من عصر الدولة الوسطى ، وتفاخر الملوك وحكام الأقاليم فى هذا العصر، بعدالتهم بين الناس ، وسهرهم على رعايتهم ، فاطمأن الناس إليهم ومجدوهم مختارين لا عن قهر . بل لقد ذهب بعض الباحثين ، إلى ان عصر الدولة الوسطى هو عصر الحكم العادل ، وان هدف الحاكم تمثل أساساً فى القانون العادل .

---

(١) يقول جاردنر فى كتابه التى سبقت الإشارة إليه عن مصر خلال هذا العصر :

"Egypt was feudal state more than ever before or after " , op . cit., p.12 et seq "

ويؤيد " هرمان كيس " هذا الرأى . ولكن يلاحظ ان هذا ينطبق على النصف الأول من عهد الأسرة الثانية عشر ، كما أنه كان اقطاع من نوع جديد ، لم تضعف معه سلطة الملك ، ولكن زادت فيه سلطات حكام الأقاليم برضاء الملوك ولصالح الرعية، خاصة فى عهد " الملك سنوسرت الثالث " الذى اخضعهم لسلطاته ، كما ألغى حقهم فى توريث وظائفهم لابنائهم. انظر ، عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ، سبق ذكره ، ص١٨٥ وأحمد فخرى ، المرجع السابق ، ص ٣٢٣.

وتعكس نصوص كثيرة هذا التغير في فلسفة الحكم ، واتسام الملوك بنزعة إنسانية واضحة . ومن أهم الأمثلة على ذلك بردية " القروى الفصيح " والتى يرى البعض أنها كتبت فى عصر الدولة الوسطى ، وقد سبق دراسة هذه البردية . ونورد فيما يلى بعض النصوص التى تعكس فى وضوح التغير فى طبيعة الذات الملكية وفى فلسفة الحكم .

يقول الوزير " بتاح حتب" [1] ، وقد بلغ من الهرم عتياً وسرت آلام الشيخوخة فى اوصاله ، موجهاً كلامه ليكون مثلا لابناء العظماء:

" لا يدخلنك الغرور بسبب علمك ، ولاتتعال لانك رجل عالم، استشر الجاهل كما تستشر العالم ... ". "إذا كنت زعيماً فلا تسع الا وراء كل ما اكتملت محاسنه، حتى تظل صفاتك الخلقية دون ثغره فيها. ما أعظم الحق، فان قيمته خالدة لم ينل منها أحد منذ أيام "اوزوريس" .. انه (أى الحق) مثل الطريق السوى أمام الضال، ولم يحدث أبداً أن (عرف عن) عمل السوء انه اوصل صاحبه سالماً فى مأمنه. أحنى ظهرك لمن هو أعلى منك، لرئيسك فى العمل، وسيعمر بيتك خيراته وتنال مكفأتك فى موعدها المقدر .. لها ... " .

ويعكس النص السابق افكار ذات اهمية بالغة . فالنص يصور الملك بشر يمكن ان توجه إليه النصيحة من وزيره ، الذى يطلب منه البعد عن الغرور كما يطلب منه ان يستشير الناس ، ويلتزم جانب الحق حتى يكون مثلاً يحتذى به . بعبارة أخرى ، انتفت صفة الالوهية عن الملك وأصبح كسائر البشر .

(١) توجد هذه البردية فى " متحف اللوفر " ، وترجع إلى عهد الاسرة الثانية عشر ، وقد ترجمت إلى عدة لغات . انظر دراسة لها فى : أحمد فخرى ، الادب المصرى ، سبق ذكره ص ٤٣١ .

ويفخر " امنمحات الأول " وهو ينصح ابنه " سنوسرت الأول " [1] ، بما فعله كى يعيد إلى مصر الطمأنينة والعدل ويؤمن حدودها ، كما يفخر بما اقامه من معابد وحصون، وبما اخمده من فتن فى الشمال والجنوب ، كما يقول فى فخر :

" لقد اعطيت الفقير وربيت اليتيم ، وجعلت من كان لا شئ يصل إلى (غرضه) مثل ذلك الذى كان شيئاً مذكوراً .... " .

وعلى الرغم من ان النص السابق لا يقطع بما إذا كان هذا الملك ، قد فعل ما ذكره ام لا ، الا انه يعكس فلسفة جديدة فى الحكم ، جعلت الملك يجد فخراً فى انه فعل الخير من اجل بلاده ، وشملت رعايته الفقير واليتيم .

ويفخر " أمينى " ، الذى اقطعه " الملك سنوسوت الاول " الاقليم السادس عشر من اقليم مصر ، قائلاً :

" أنى لم استعمل القوة مع أى ابنه من بنات الاهالى ، ولم اظلم ابنه ارمله ولم اقبض على عامل ما ، ولم اطرد راعياً ما ، ولم يكن هناك رئيس .. اخذت منه عماله اثناء العمل . ولم يكن هناك فقير ... ولا جائع فى عصرى، وعندما حلت سنة المجاعة حرثت جميع اراضى الاقليم ... وابقيت الاهالى احياناً واعطيتهم طعاماً ، حتى لم يوجد بينهم جائع واحد ، وقد اعطيت الارملة كما اعطيت المتزوجة ، ولم اوثر العظيم على الصغير... " وعندما عادت الفيضانات العالية وتوافر كل شئ ، تجاوزت عن متأخرات ضرائب المزارعين" .

وسواء كان " امينى " صادقاً فيما ادعى أنه فعل أم لا ، فمما لاشك فيه ان النص السابق يسجل الافكار التى سادت فى هذا العصر عن الحاكم العادل ، وما يتعين عليه ان يفعل من أجل ابناء اقليمه .

---

(١) وردت هذه النصائح فى بردية ترجع إلى الاسرة الثانية عشر ، وقد اشار إليها أحمد فخرى فى كتابه عن الادب المصرى القديم ، ص ٤٤٢ ،وقد سبقت الاشارة إليه .

وكذلك كان " امينى " يفخر بأنه لم يسرق أو يأخذ شيئاً لنفسه ، بل كان يسلم كل الضرائب للبلاط ، وكان الولاء للملك فى هذا العهد عملاً يستحق الفخر والمباهاة[١].

ويقول أحد ملوك الاسرة الثانية عشر لوزيره :

" إذا جاءك الخصوم فاعمل ان تقيم كل شئ وفقاً للقانون ، بحيث يحصل كل صاحب حق على حقه[٢] .

ليس غريباً ان نجد هذه التغيرات العميقة فى فلسفة الحكم ومقومات الحكم العادل، خلال عصر الدولة الوسطى. لقد جاء ملوك هذه الدولة وامامهم تاريخ ثورة دامية ، غيرت كثير من المفاهيم التى سادت خاصة فى أواخر عهد الدولة القديمة، واعلت من شأن الفرد وحدت من سلطة الملوك وأمراء الاقاليم، وانزلتهم منزلة البشر.

ويؤيد هذا الاتجاه نحو فلسفة جديدة فى الحكم الصالح ، تلك الثورة الدينية التى بدأت فى اواخر عهد الدولة القديمة ، وامتدت حتى شملت عهد الدولة الوسطى ، تلك الثورة التى تمثلت فى التحول عن عبادة " رع إله الشمس " أو دين الملوك إلى "عابدة أوزوريس"، الاله الطيب ، الذى يكفى العمل الطيب ليكسب الفرد رضاه وتبرأ ساحته قبل الموت ، فيكتب له الخلود. فقد كان فى هذا التحول انتصار للخير، الذى مثله " اوزوريس " ، على الشر ، الذى مثله "ست" ، كما كان فيه تمجيد للرابطة الاسرية ، ووفاء الزوجة لزوجها، ووفاء الابن لابيه [٣] . وقد اتخذ الشعب

(١) عبدالمنعم ابوبكر ، المرجع السابق ذكره ، ص١١٩ والسقا ، المرجع السابق ، ص٢٩٧ حاشية رقم (٢) ، وعبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم ، سبق ذكره ، ص١٨٥. مع ملاحظة وجود اختلاف ضئيل فى ترجمة النص الفرعونى .

(٢) السقا ، المرجع السابق ، ص ٢٩٧ حاشية رقم (٢) .

(٣) استحوذت " عقيدة اوزوريس " على عقول الناس وعواطفهم . ويمكن ان نلخص هذه العقيدة فيما يأتى : نشأ صراع بين " اوزوريس " ، اله الخير ، و "ست " اله الشر على عرش مصر ، وان كانا اخوين ولدا للالاهين " جب ونوت " اللذين انحدرا من نسل "رع" الخالق الاعظم . ونجح "ست" فى اغتيال "اوزوريس" . ثم عادت الحياة مرة اخرى إلى " اوزوريس" ، بفضل وفاء احته "ايزيس" ، التى بكت وتضرعت للآلهة حتى يعيدوا إليه الحياة . ولما عادت الحياة إلى "اوزوريس " ، ترك دنيا الغدر وهبط إلى العالم السفلى ، بعد ان تنزل عن عرش مصر لابنه "حور" . وبدأ صراع جديد بين "حور" ، الذى كان مؤمنا بعدالة قضية والده ، وعمه "ست" . وعندما احتكما إلى الالهة ، قررت اخيرا ، ان "حور " هو الوارث الشرعى لعرش مصر . ومنذ هذه اللحظة أصبح الملك يسمى فى حياته "حور" وبعد وفاة "اوزوريس" . وقد بدأ فراعنة مصر فى اعتناق مذهب "اوزير" أو" اوزوريس" فى عهد الاسرة الخامسة ، بعد أن ساد الاعتقاد بأن من اعتنق هذا صار بعد الموت " اوزيرا " . هذا وقد وردت قصة "اوزوريس" فى وثائق كثيرة مثل " متون الاهرام " وأناشيد الدولة الوسطى " ومتون العرابة المدفونة " . انظر سليم حسن، ص ٢١٤ – ٢١٥ . ويذهب برستيد إلى أن مراثى " ايزيس " و " نفتيس " ظلت اقدس تعبير عن الحزن عرفه قلب المصرى ، واتخذت صورا متنوعة إلى أن ظهرت فى روايات المعجزات الاوزورية فى اوربا ، بعد ذلك بثلاث ألف سنة . ص ٥٩ .

من عبادة " اوزوريس " نبراسا فى معـاملتهم ، حتى سـادت فـى مصـر تباشير دعوة السيد المسيح .

ولكن يبدو ان الفترة الاخيرة من عصر الدولة الوسطى ، قد شهدت انتكاسـة فى فلسفة الحكم وما حققته من تقدم . فقد عاد للملوك ما كان لهم من نفوذ وسلطان ، وعاد الموظفون إلى مداهنة الملك والتمسح فـى اعتابـه ، واختفت ، أو كـادت ، فكـرة الاعلاء من شأن الفرد واعتماده ، على ما يقدمه من عمل صالح، حتى يضمن النجـاح فى الدنيا والآخرة، وحلت محلها النغمة القديمة ، وهى ان الخير كل الخـير فـى عطـف الملك ورضاه .

ولكن ، يمكن ان نقرر كقاعدة ، ان أكثر ملوك الدولة الوسطى لم يكونوا عتـاه أو متجبرين فـى الأرض ،بل أننـا نعرف انهم كـانوا فخورين بعدالتهـم بيـن النـاس وسهرهم على رعايتهم .

ثالثاً : نهضة الفنون والاداب والعمارة :

شهد عصر الدولة الوسطى ، محاولات عظيمة للنهوض بفنـون مصـر وادابهـا وعمارتها ، بغية الرجوع إلى ما كانت عليه فى العصـر الذهبـى للدولـة القديمـة . وقد اسفرت هذه المحاولات، عن اضافة الكثير من عنـاصر الحيويـة والابـداع إلـى الفنـون والآداب وهندسة العمـارة وتخطيط المدن ، حتى أصبحت مصر أعظم أمم الشـرق القديم حضارة وقوة.

ومن المعروف أن قواعد الفن واتجاهاته الأساسية فـى مصـر الفرعونيـة ، قد بدأت فى العصر العتيق ، واخذت شكلها النهائى فى العصر الذهبى لبناة الاهرام . ومـع ذلك ، فإن آثار الدولة الوسطى تعكس فـى وضـوح،حدوث تطـورات هامـة فـى الفنـون والادب والعمارة ، خلال هذا العصر . كما تؤكد ان هذه التطورات لم تكـن تفتقـر علـى الاطلاق للابداع والاصاله الفنية[١] .

(١) أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، ص ٢٣٣ ، وعبدالعزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ١٨٢-١٩٣ وكذلك :
Badawy, op. cit ., pp .24-25, 37-38, 44,53 and 58 and Heicht H., History of the World's Art, Spring Book, London , pp. 130 -131 .

لقد حاول فنانو الدولة الوسطى ، من نحاتين ونقاشين ورسامين ، الفكاك من إسار القواعد الصارمة المثالية التى فرضها فنانو " مدرسة منف " ، على النحت والنقش خلال عصر الدولة القديمة . أما فنانو الدولة الوسطى فحاولو الجمع بين الواقعية والمثالية فى اعمالهم . وان كانت الغلبة للمثالية . يصورون الوجه والبدن كما هى فى واقع الحياة، ولكنهم كانوا يضفون على التماثيل ، وخاصة تماثيل ملوك هذه الدولة،هيبة مطلقة مترفعة سامية ، وتقاسيم متناسقة ، وانتصابة قوية كاملة ، ونظرة إلى الافق البعيد ترنو إلى الخلود، فى جلال وهدوء .

كما حاول فنانو الدولة الوسطى صبغ اعمالهم بصبغة واقعية ، متأثرين فى ذلك باتجاه بدأ يظهر عفواً فى طيبة خلال عصر الانتقال الاول . واهتموا بدراسة الوجوه التى عبرت عن ملامح اصحابها كما هى فى واقع الحياة ، كما حاولوا ان يترجموا الخصائص الذاتية التى تفرق بين ملك وآخر . وقد بلغ هذا الاتجاه ذروة نجاحه فى عصر الاسرة الثانية عشر ، كما يبدو فى الملامح الصارمة لوجه " سنوسرت الثالث "، والرحمة والوداعة والهدوء ، التى يعبر عنها فى روعة تمثال " امنمحات الثالث "، الذى احب السلم والعمران.

كل هذا مع الاحتفاظ لملوك هذا العصر بطابع اسرى معروف ، تمثل اساساً فى بروز عظام الوجنتين [١] .

حقاً : لقد ترك هذا العصر اعمالاً فنية تعتبر ، دون شك ، من أروع ما أنتجه فنانو مصر فى كل العصور .

وقد ازدهرت الآداب فى هذا العصر ازدهاراً عظيماً ، جعل غالبية الباحثين يعتبرون عصر الدولة الوسطى ، ازهى عصور الادب فى تاريخ مصر الفرعونية ، كما اعتبرتها الاجيال اللاحقة المثل الكلاسيكى للادب الجيد . وقد ظلت الاجيال اللاحقة تردد تعاليم "الملك امنمحات الأول " ، وحكمة " الوزير بتاح حوتب " ، وتقرأ رسائل "تخت"

(١) عبدالعزيز صالح ، المرجع السابق ذكره ، ص٣٤٠-٣٤٢ ، وثروت عكاشه ، الفن المصرى القديم ،٢ - النحت والتصوير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩١، ص ٥٨٣ وما بعدها .وانظر أيضاً :

Gardiner,op.cit., pp. 143-145.

لابنه [1] ، وتعيد قصة " القروى الفصيح " وقصة " الملاح الغريق " . لقد نجح مفكرو هذا العصر فى التعبير عن فلسفة الحكم الصالح ، وعن العدالة والحق ، وعواطف الحب والوفاء والحقد ، وعن الخير والشر . كما كانت بعض اعمالهم تصويراً صادقاً لبعض جوانب حية من المجتمع . ومن المؤكد ، اننا مدينين لمفكرى هذا العصر ، بأروع ما ابدعته مصر الفرعونية من قصص،نجد حتى يومنا هذا متعة فى قراءتها[2].

هذا ، وقد تركت الدولة الوسطى معابدها وأهراماتها وما شيدته من حصون وقصور وبيوت فى كل أرجاء مصر . وقد حققت العمارة خلال هذا العصر درجة عالية من التطور والرقى ، كما تشهد بذلك معابد ومقابر الدولة الوسطى فى بنى حسنى والبرشا وأسيوط والدير البحرى والعرابة المدفوعة والفيوم . الأمر الذى يؤكد ما تمتعت به الدولة الوسطى من ازدهار ورخاء اقتصادى.

أما تخطيط المدن فقد وصل إلى درجة عالية من التقدم لم تكن متوقعة فى هذا العصر المبكر . وأوضح دليل على ذلك ، الخطة التى أعدت لبناء " مدينة كاهون" أى اللاهون، التى بناها " الملك منتوحتب الثانى " كمقر للحكم ، قرب هوارة فى الفيوم[3]. وتعطى هذه الخطة ، وهى لازالت باقية حتى اليوم ، فكرة واضحة عن المدينة فى هذا العصر. وقد قسمت المدينة إلى قسمين أساسيين : أحدهما به قصر الملك وعلية القوم، والآخر منازل من الراجح أنها كانت للعمال والعامة . ويمر بالمدينة عدد من الطرق الرئيسية والفرعية . وتتسم بيوت العمال بالبساطة والتواضع، أما قصور الملك وعلية القوم والتى تتميز بحدائقها وبساتينها ، فتدل دلالة واضحة على ما تمتع به هؤلاء من رفاهية ونعيم .

---

(١) أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، ص٢٠٤-٢٠٧ .

(٢) عبدالمنعم ابوبكر ، المرجع السابق ، ص١٨٣ ، عبدالعزيز صالح ، المرجع السابق ، ص٢٢٨-٢٤٣ ، أحمد فخرى ، الادب المصرى ، سبق ذكره ، ص٢٨٣ وانظر أيضاً .

Gardiner, op. cit.,. p.130-131.

(٣) الراجح أنها أول محاولة فى تاريخ البشرية لبناء مدينة ، وفقاً لخطة مسبقة ، وذلك فى حدود ما نعلم وأنظر :

Gardiner , op. cit., p.143.

كما تعكس خطة بناء " مدينة كاهون " التقسيم الطبقى الذى عرفته الدولة الوسطى ، وكذلك التفاوت الواضح فى توزيع الثروة بين أفراد المجتمع [١] . كما تدل الخطة ، وما ادخل عليها من تعديلات قبل عملية بناء المدينة ، على درجة عالية من التقدم فى هذا الفن ، وكيف حاول القائمون بعملية التخطيط الاقتصاد فى نفقات البناء[٢].

المبحث الثانى

النهضة الاقتصادية والرخاء الاقتصادى

تؤكد وثائق عصر الدولة الوسطى، أن مصر قد عرفت خلال هذا العصر ، نهضة اقتصادية لم تعرف مثيلا لها من قبل . وقد شملت هذه النهضة كل أوجه النشاط الاقتصادى: كالزراعة والحرف والصناعات التحويلية والاستخراجية ، والتجارة الداخلية والخارجية . وقد أسفرت النهضة عن انتشار العمران وتحقيق قدر كبير من الرفاهية الاقتصادية ، جعلت غالبية المؤرخين تصف هذا العصر ،بأنه عصر الرخاء الاقتصادى " وعصر التنمية الاقتصادية " .

وهذه كلمة موجزة عن الأنشطة الاقتصادية الرئيسية .

١- الزراعة :

كانت الزراعة، وخاصة فى الصعيد ، المصدر الأساسى للدخل بالنسبة لغالبية السكان. وقد أولى حكام الدولة الوسطى ، وخاصة فى عهد الأسرة الثانية عشر ، الزراعة عناية بالغة، شملت طرق الزراعة ، وأدوات الإنتاج الزراعى ، وفن إدارة المزارع ، والرقابة على العمليات الزراعية ، وتجميع وحفظ الإنتاج الزراعى . إذ كانت الدولة، وخاصة فى عهد هذه الأسرة، توزع الأراضى الزراعية على الأسر

(١) بلغت مساحة أحد القصور حوالى ٤٥ × ٦٠ مترا ، وهى لا تقل كثيرا عن المساحة المخصصة لحى العمال بأكمله . وكان القصر عالماً ومقسماً إلى قسمين رئيسيين أحدهما للرجال والأخر للنساء .

(٢) أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، سبق ذكره ، ص وكذلك : Gardiner, op. cit., pp. 130-131.

وقد ظلت المدينة قائمة ، على الأقل حتى زيارة "هيرودوت" لمصر قبل الميلاد بقليل . وقد اعتبر " هيرودوت" وغيره من الرحالة الاغريق والرومان هذه المدينة إحدى عجائب الدنيا . وقد وجد فى هذه المدينة الكثير من الوثائق الهامة ، والأمتعة والأدوات التى تمدنا بالكثير عن الحياة فى هذا العصر . ومن بينها وصايا وكتابات عن أمراض النساء والحيوانات وإحصاءات وبيانات عن الأسر ، وكذلك وثائق عن مدى تدخل الحكومة لتنظيم حياة الناس.

بالتساوى، وتراقب عملية استغلالها. وكانت تستعيد الأرض من الأسر التى تهمل فى زراعتها. كما كان الإنتاج الزراعى يخضع لحصر وإحصاء دقيق، حفظاً لما تم انتاجه من حاصلات.

لقد ادرك المصريون منذ فجر التاريخ ، ان النهر العظيم هو عماد الحياة ، فهذبوا مجراه ، وشقوا القنوات والمصارف وأقاموا الجسور ، ودأبوا على رعايتها وتطهيرها ، حتى يمكن الاستفادة من مائه والسيطرة عليه . فكثيراً ما كان قصور النيل، كما كانت فيضاناته العالية ، سبباً فى قصور الأقوات ، مما أدى احياناً إلى حدوث مجاعات خطيرة[1]. وقد سار ملوك الدولة الوسطى فى خطى أسلافهم واهتموا اهتماماً بالغاً بمشروعات الرى، بهدف الاستفادة من ماء النيل والسيطرة عليه . فحرصوا على تسجيل منسوب مياه النيل[2]. كما اشتهروا بمشروعات الرى العظيمة ، خاصة فى إقليم الفيوم .ففى عهد الملك "سنوسرت الثانى" بدأ الاهتمام بمشروعات الرى فى الفيوم، وفى عهد " امنمحات الثالث " ، أقيم سد عند مدخل إقليم الفيوم بالقرب من قرية اللاهون ، لمنع الفيضان من إغراق أراضى هذا الإقليم ، وتخزين مياه الفيضان للاستفادة منها ، عندما تدعو الحاجة . وقد اقترن هذا المشروع العظيم ، بشق الكثير من القنوات والمصارف والجسور فى إقليم الفيوم . وقد مكن هذا المشروع من استصلاح ما يقرب من نحو ٢٧ ألف فدان [3] . ولكن يبدو أن الاهتمام بمشروعات الرى لم يكن قاصراً على هذا الإقليم ، بل شمل مصر كلها [4] .

(١) ظلت مصر تعانى من المآسى والمجاعات ، التى كان بسببها قصور النيل ، عبر تاريخها الطويل وحتى العصر الحديث ، عندما نجحت فى تجنب هذه الآثار من خلال بناء القناطر والسدود لحفظ مياه النيل . وكانت البداية عند بناء القناطر الخيرية فى عصر محمد على الكبير .

(٢) توجد وثائق ترجع إلى عهد " امنمحات الثالث " تدل على ان الحكومة كانت تقوم بتسجيل منسوب مياه النهر عند الحصون والقلاع التى انشأها هذا الملك فى سمنه وقمة فى جنوب مصر ، انظر فى ذلك : نجيب ميخائيل ، الزراعة ، منشور فى تاريخ الحضارة المصرية ، وقد سبق ذكره .

(٣) ترتب على إقامة " سد اللاهون " انكماش بحيرة " مر-ور " وهى البحيرة التى سماها اليونيون موبرس (أى البحر) وانحسار الماء عن مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية . إذ كانت مدينة الفيوم الحالية تقع على شاطئ هذه البحيرة ، فى ذلك العصر. وبعد إقامة السد وانكماش البحيرة ، أصبحت الفيوم تقع على بعد حوالى ٢٠ كيلو من البحيرة . وتعرف هذه البحيرة الآن ببحيرة قارون . ولا زال ارتفاع منسوب المياه فى البحيرة ، وما يترتب عليه من طغيان مائها على الأرض الزراعية، يمثل مشكلة تحاول الدولة مواجهتها بإيجاد منافذ جديدة لمياه الصرف فى إقليم الفيوم . ومن المعروف ان مياه البحيرة فى العصور القديمة كانت عذبة ، أما الآن فهى مالحة وغير صالحة للرى .

(٤) أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، سبق ذكره ، ص٢٣٢ وكذلك :
Shfai. Ali, Fayum Irrigation, Bull. de la Soc. Royal de l'Egypte ,xx , 1940 ; Petrie , Jllabun ,Kaham and Gurob, London 1891; and Caton- Thompson and Gardiner, E.. , the Desert Fayum , ;,London 1934

وقد ظل سد اللاهون قائماً ، على الأقل حتى عام ٢٤ قبل الميلاد [١] .

كذلك عمل بعض ملوك الدولة الوسطى على توفير ماء الشرب في بعض المناطق النائية. والمثل على ذلك مخازن المياه والآبار التي أقامها " منتوحتب الثاني " في الطريق الموصل للبحر الأحمر مارا بوادي الحمامات ، وذلك لتوفير الماء للقوافل التجارية ، التي كانت تذهب إلى بلاد " بونت " عن طريق البحر الأحمر [٢] .

وعلى الرغم من ظهور نظام مجالس الطوائف والحرف في عهد الدولة الوسطى ، وهي المجالس التي كانت تهدف إلى رعاية مصالح أعضاء الطائفة أو الحرفة ، فقد كان الرعاة والمزارعون وعمال الحرف والصناعات يعيشون حياة متواضعة وضيعة ، وكثيراً ما عانوا من الفقر وشظف العيش ، يستحقون الرحمة والرثاء [٣] .

كما ان هناك بعض الوثائق التي تشير إلى تعرض أفراد الطوائف الدنيا في مجتمع الدولة الوسطى ، لصور من الاضطهاد الفظيع والقسوة الظالمة ، التي كانت تصل أحياناً إلى حد سلب حقهم في الحياة . فهناك وثائق تشير إلى دفن خادمة وابنتها أحياء ، حتى تكون في خدمة سيدها في الحياة الأخرى [٤] . كذلك هناك نص يشير إلى أن الفلاح كان يرمى هو وأسرته في الماء ليغرق دون رحمة ، بعد ان يضرب ويعذب، إذا عجز عن تقديم المحصول لمالك الأرض [٥] . كما تدل وثائق وآثار " مدينة كاهون " على ان حياة العمال كانت وضيعة وتتسم بشظف العيش .

---

(١) المرجع السابق ذكره ، ص ٥٠٠ -٥٠١ ، وكذلك عبدالعزيز صالح ، الأرض والفلاح في مصر الفرعونية، منشور في : الأرض والفلاح في مصر على مر العصور ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٣٤-٣٥.

(٢) احمد فخرى ، المرجع السابق ، ص٢٠٨ .

(٣) عبدالعزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٥٥-٦٨ ومحمد ادهم بكر ، صفحات مشرقة من تاريخ مصر الفرعونية ، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ١٥٢ -١٥٤ ، و ديورانت ، قصة الحضارة ، الجزء الأول من المجلد الأول ، القاهرة ١٩٦٥ (الطبعة الثالثة) ص ٣٦ -٣٨ .

(٤) احمد فخرى ، مصر الفرعونية ، المرجع السابق ذكره ، ص٢٣ ، وكان ذلك في عهد الأسرة الثانية عشر ، حيث بدأت فكرة حرية الفرد وحقوقه تضعف مرة أخرى ، كما سبق ان اشرنا .ولكنا لا نعرف ما إذا كان دفن الخدم أحياء مع سادتهم يمثل العادة التي كانت سائدة في هذا العصر .

(٥) أحمد فخرى ، المرجع السابق ،ص٢٠٤ ، ونجيب ميخائيل ، المرجع السابق ، ص٤٩٥-٥٠١ .

ولكننا لا نعرف ما إذا كانت الوثائق السابقة تشير إلى حالات فردية ، أم أنها كانت تعكس الوضع العام السائد فى ذلك العصر . ولكننا نميل إلى اعتبارها حالات فردية، لأن القول بأن هذه الوثائق تعكس الوضع الغالب ، لا يتفق مع المناخ العام وفلسفة الحكم فى عهد الدولة الوسطى ، حيث كان الملك وحكام الأقاليم يفخرون بعدالتهم وإحقاقهم للحق ورعايتهم لشئون رعاياهم، كما سبق أن رأينا [١] .

٢– تربية الحيوان :

لقد اشتهر المصريون منذ فجر التاريخ وعلى مر العصور ، بحبهم الشديد للحيوان ورفقهم به. وقد شهد عهد الدولة الوسطى اهتماماً بالغاً بتربية الحيوان . فقد كان أصحاب الماشية يتركون أمر القطيع لطائفة من الرعاة المحترفين المجربين ، الذين عرفوا بكفاءتهم وخبرتهم فى هذا المجال . كما كان أصحاب الماشية يحاولون انتقاء السلالات الجيدة من الماشية ، ويعنون بطرق تغذية وتسمين الحيوانات بتقديم غذاء خاص لها ، تمثل أساسا فى عجين الخبز .

ومن الثابت تاريخياً أن مصر كانت تملك فى هذا العصر ، ثروة حيوانية ضخمة. كما أنه من الثابت تاريخياً أن تربية الحيوان كانت أكثر ازدهاراً فى منطقة الدلتا ، نظراً لانتشار المراعى الطبيعية . لهذا كان أصحاب الماشية فى جنوب مصر يرسلون حيواناتهم إلى الشمال للرعى .

ويبدو أن الرعاة كانوا يكونون طائفة قائمة بذاتها ، اتخذت من الرعى وتربية الحيوان طريقة حياة . وكان للرعاة سمات خاصة بهم ، كانوا اقرب إلى الوحشية ، يطلقون شعورهم ، ويسيرون عراة إلا من نقبة لاتكاد تستر عورتهم . وكانوا يعيشون حياة بوهيمية تتسم بشظف العيش . فضلاً عن هذا ، فقد اشتهروا بدراية وخبرة فى تربية الحيوان ، ولكنهم غالباً ما كانوا يحترفون مهن أخرى بجانب الرعى ، مثل صيد الطيور والحيوانات والأسماك ، وصناعة الحصر والقوارب فى وقت فراغهم .

(١) سبق أن رأينا أيضاً أن بعض الدارسين يرى أن عصر الدولة الوسطى ، إنما يمثل عصر العدالة والقانون العادل والحاكم العادل . انظر أيضاً ، نجيب ميخائيل المرجع السابق ، ص٤٩٨ – ٤٩٩ ، حيث يعترض الكاتب اعتراضاً شديداً على فكرة استغلال الطبقة الأرستقراطية للطبقة العامة .

وكان أصحاب الماشية يراقبون الرعاة رقابة صارمة ، ويحاسبونهم حساباً دقيقاً على القطيع الذى يترك لهم أمر رعايته . وكان صاحب القطيع يميز حيواناته عادة بعلامة خاصة، حتى لا يختلط بقطيع غيره من الملاك [1] .

٣- الصناعات والحرف :

فضلاً عما سبق ، فقد شهدت الدولة الوسطى جهودا صادقة وجادة للنهوض بالصناعات والحرف وتطويرها ، بعد أن تدهورت خلال العصر الوسيط الأول .

وقد ساعد على تحقيق هذه الغاية ، زيادة معرفة العامل المصرى بخصائص وأسرار المواد الأولية ، وارتقاء خبرته وكفاءته بعد أن توارث المهنة جيلاً بعد جيل . فضلاً عن هذا، فان ازدهار أوجه النشاط الاقتصادى الأخرى ، قد ساعد على تقدم الصناعات والحرف المصرية فى هذا العصر ، وهى صناعات كانت تقوم أساساً على تحويل مواد أولية محلية إلى منتجات صناعية لإشباع السوق المحلية التى ازدهرت هى الأخرى فى هذا العصر. كما ساعد على تقدم الصناعات التحويلية ما بذلته الدولة من جهود لتوفير المواد الأولية خاصة من المعادن . كما أن زيادة صلات مصر بالدول المجاورة سهل عليها مهمة الحصول على المواد الأولية الضرورية للصناعة، والتى كانت مصر تفتقرها مثل الأخشاب الجيدة .

ويلاحظ أن بعض وثائق هذا العصر ، تدل على زيادة تدخل الدولة فى الصناعات الاستخراجية وبعض الصناعات التحويلية ، وخاصة صناعة الذهب . إذ كانت هذه الصناعة تخضع لإشراف دقيق ، وكان العاملون بها يعتبرون من موظفى الدولة . لهذا فإنا نسمع بين موظفى الملك عن " المشرف على صهر الذهب " أو " المشرف على الصياغ"[2].

---

(١) شعيب ميخائيل ، المرجع السابق ذكره ، ص٤٩٤٠ ٥١٩

(٢) عبدالمنعم أبوبكر ، المرجع السابق ، ص ٤٥٤ .

وهذه كلمة موجزة عن أهم الصناعات الاستخراجية والتحويلية فى هذا العهد :

٣/١- الصناعات الاستخراجية :

تعرضت الصناعات الاستخراجية لإهمال كبير فى العصر الوسيط الأول ، نظراً للظروف غير الملائمة التى سادت فى هذا العصر [١] . أما فى عهد الدولة الوسطى ، فقد نالت هذه الصناعات اهتماماً بالغاً ، وعمل ملوك الدولة الوسطى على إرسال بعثات التعدين لاستخراج الذهب والنحاس والأحجار المختلفة ، من مناجم ومحاجر الصحراء الشرقية وسيناء وأسوان ووادى الحمامات وتل العمارنة . وكان لاستخراج الذهب أهمية خاصة فى هذا العصر ، وكان هذا من بين الأسباب التى دفعت ملوك الدولة الوسطى للاستيلاء على مناجم الذهب فى النوبة ، حتى نجحوا فى ضم النوبة نهائياً إلى مصر فى عهد "سنوسرت الثالث".

وقد تقدمت خلال هذا العصر طرق صهر المعادن ومزجها ، فعرفت طريقة مزج النحاس بالقصدير لإنتاج البرونز ، الذى كان أفضل من النحاس لصلابته وسهولة صبه فى قوالب .

ويبدو ان استخراج المعادن، كان احتكاراً حكومياً، أو خضع على الأقل لتدخل الدولة المباشر، نظراً لأن الظروف التى كانت سائدة فى الكثير من الأماكن النائية،حيث تستخرج المعادن، لم تكن ملائمة للمبادرة الفردية . إذ لم يكن فى مقدور الأفراد توفير الأمن والطمأنينة للعاملين فى استخراج المعادن والأحجار فى تلك المناطق .

٣/٢- الصناعات التحويلية :

تقدمت الحرف والصناعات التحويلية عموماً خلال هذا العصر ، كما تقدمت طرق الإنتاج والمنتجات . وتدل بعض آثار هذا العصر ، على أن بعض الصناعات الدقيقة ، وخاصة صياغة الذهب ، قد وصلت إلى حد الإعجاز .

وهذه كلمة موجزة عن أهم الحرف والصناعات التحويلية فى عهد الدولة الوسطى :

---

(١) محمد جمال مختار ، المرجع السابق ، ص١٠١ .

٣/٢/١- الصناعات المعدنية : ومن أهمها صياغة الذهب والفضة والذهب الأبيض ، وصناعة البرونز وبعض الأدوات المعدنية التى كانت تستعمل فى المنازل ، أو كأدوات إنتاج فى مجالات أخرى كالصناعة والتجارة والزراعة مثلا .

وقد وصلت صياغة الذهب درجة من التكامل الفنى النادر فى كل العصور . فقد استطاع الصائغ المصرى، أن يصنع رقائق من الذهب ، كان سمكها يتراوح ما بين ١٧٪ و ٥٠٪ من المليمتر. بل لقد وجدت رقائق كان سمكها ١٪ من المليمتر[١]. ونشاهد نفس الدرجة من الإعجاز الفنى فى بعض الحلى الذهبية والتيجان الذهبية التى وجدت فى اللاهون بالفيوم، وهى ترجع إلى نفس العصر . هذا وقد تقدمت طرق تلوين الذهب وأيضا صناعة الفضة والذهب الأبيض .

وقد ساعد على تقدم هذه الصناعة وفرة المادة الخام ، والمهارات البشرية الفائقة . هذا فضلا عما أولاه الملوك لهذه الصناعة من رعاية وتشجيع دائب . إذ كان الملوك يقدمون مكافآت لمن يتميز فى هذه الصناعة . ويبدو أن الملوك كانوا يلحقون ببلاطهم صياغا يعملون كموظفين لديهم ، إذ نسمع بين موظفى القصر عن " المشرف على صهر الذهب " و "المشرف على الصياغ " . كما سبق أن ذكرنا .

ونلاحظ أن صياغة الذهب ، قد انحصرت فى عائلات معينة ، يتوارث أفرادها هذه الحرفة جيلا بعد جيل ، الأمر الذى ساعد على اكتسابهم خبرة وكفاءة عالية فى هذا الفن .

وقد اكتشف البرونز فى عهد الدولة الوسطى . وكان يستخدم على نطاق محدود فى صناعة التماثيل الصغيرة . وقد تقدمت طريقة صناعة هذه التماثيل بشكل ملحوظ ، إذ كان المثال يبدأ بصناعة التمثال الذى يريده من شمع العسل ، ثم يغطى الشمع بطبقة من الطين . وبعد أن يجف الطين يذاب الشمع ، ثم يصب البرونز فى قالب الطين للحصول على التمثال المطلوب [٢] .

(١) ليس هناك ما يقطع بصحة هذا .

(٢) عبد المنعم ابو بكر ، المرجع السابق ، ص ٤٥٧ وثروت عكاشة ، المرجع السابق ، ص ٦٢٩ - ٦٣٨ و ص ١٠٤٣ - ١٠٤٨ .

٣/٢/٢- الصناعات الغذائية : وكان من بينها وأقدمها صناعة الجعة والنبيذ والزيوت النباتية من الخردل والخروع والخس والزيتون . ولا بد أن هذه الصناعات قد تقدمت نظرا لزيادة حجم الطلب المحلى، مع ازدهار الأحوال الاقتصادية فى هذا العصر.

٣/٢/٣- الغزل والنسيج والحصر والحبال : وهى من أقدم الصناعات المصرية. وعلى الرغم من أنها لم تتقدم كثيرا وظلت عملية النسيج بسيطة للغاية بالمقارنة بالمستوى الذى ارتقت اليه خلال عصر الدولة الحديثة ، إلا أن آثار هذا العصر تدل على أن عمال هذه الصناعة كانوا من النساجين المبدعين . وقد تنوعت منتجات الغزل والنسيج ، خاصة غزل ونسيج الكتان ، وتدل وثائق هذا العصر على سيطرة العمل النسائى على صناعة الغزل والنسيج [1].

٣/٢/٤- صناعة الجلود : تقدمت هى الأخرى وتنوعت وكثرت منتجاتها التى كانت تستعمل فى الاستعمال الخاص ، كالأحذية وفى المنازل كالمقاعد وفى بعض الصناعات كصناعة المركبات وغيرها . ولكنا لا نعرف حتى الآن ، طريقة دبغ الجلود فى الدولة الوسطى .

٣/٢/٥- صناعة المنتجات الخشبية : لم تتقدم كثيرا نظرا لرداءة الأخشاب المحلية . ورغم ذلك فقد نجح عمال هذه الصناعة ، على الرغم من بساطة أدوات الإنتاج التى كانوا يستخدمونها، فى تطوير المادة الخام المحلية وتكييف طرق الإنتاج بما يلائم أغراضهم .

وخلال هذا العصر ظهر أو تقدم فن الحفر على الخشب ، وتطعيم الخشب بالعاج والأبنوس والذهب . كما ظهرت صناعة " الأبلاكاج " ، إذ وجدت بين آثار هذا العصر قطعة من الخشب مكونة من ست طبقات .

وكانت هذه الصناعة تعتمد على البلدان المجاورة ، وخاصة فى إقليم شرق البحر الأبيض المتوسط والشاطىء الإفريقي الشرقي ، للحصول على حاجتها من الأخشاب الجيدة، مثل الأبنوس والزان والآرز .

١- كانت هذه الحرفة تزاول فى مكان ملحق بالدار تعمل فيه طائفة من النساء، عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، سبق ذكره، ص ١٧٧.

ومن أهم الأسباب التى ساعدت على تقدم هذه الصناعة ، انتشار استخدام المعادن فى صناعة أدوات الإنتاج المستخدمة فى صناعة المنتجات الخشبية .

٣/٢/٦- صناعة الورق : وهى من أقدم الصناعات التى اشتهرت بها مصر الفرعونية . وقد تقدمت هذه الصناعة خلال هذا العصر إلى حد بعيد ، كما ظهرت صناعة الخشب المقوى . ومن المعروف أنها اعتمدت على البردى الذى وجد بوفرة فى هذا العصر .

٣/٢/٧- صناعات الفخار والزجاج والقيشانى : تقدمت هذه الصناعات وتنوعت منتجاتها. ويلاحظ أن صناعة الفخار بصفة خاصة قد تقدمت ، نظرا لوفرة المادة الخام والمهارات البشرية التى ارتقت على مر العصور ، بعد أن عرفت مصر هذه الصناعة منذ فجر التاريخ . وقد سبق أن رأينا أن بعض سكان الجزر قد عرفوا فى عصور ما قبل التاريخ " بشعب الفخار الملون " ، نظرا لمهارتهم الفائقة فى صناعة الفخار فى عصر لم تكن قد اكتشفت فيه بعد عجلة صانع الفخار .

أما صناعات الزجاج والقيشانى : فلم تتقدم كثيرا ، كما أننا لا نعرف حتى الآن طريقة صناعة الزجاج فى هذا العصر [١].

٣/٢/٨- صناعة السفن والقوارب : تقدمت وزاد إنتاجها ، وقد ساعد على ذلك رواج التجارة الخارجية والداخلية فى هذا العصر . وقد وجدت بعض آثار هذه الصناعة فى بعض الأماكن على ساحل البحر الأحمر .

٣/٢/٩- صناعة الأسلحة : تنوعت وارتقت هى الأخرى ، وخاصة فى عصر الأسرة الثانية عشرة، التى اشتهرت بأعمالها العسكرية من أجل تأمين حدود مصر ، ونشر نفوذها فى البلاد المجاورة ، وخاصة فى عهد " سنوسرت الأول " الذى أنشأ أول جيش منظم عرفه التاريخ[٢] .

---

(١) كان هناك اعتقاد أن صناعة الزجاج من ابتكار الفينيقيين، ولكن الأبحاث الحديثة أظهرت أن المصريين سبقوا شعوب الأرض فى ذلك، حين اهتدوا إلى عناصر الزجاج في رمال الصحراء، أنظر في ذلك محمد جمال الدين مختار وهنرى رياض وعبدالعزيز صادق، مصر وحضارات العالم القديم، وزارة التربية والتعليم، القاهرة ١٩٩٥-١٩٩٦، ص ٦١.

(٢) المرجع السابق ذكره ، ص ٤٥٤ - ٤٨٩ . وعبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم، ص ١٨٢ - ١٩٣ .

ويبدو أن عمال الصناعة والحرفيين كانوا يحبون حرفهم ، إذ نجد الكثير من الصور التى تصور العمال فى حالة سرور وبهجة يتبادلون النكات خلال العمل ، وكثيرا ما كانوا يستمعون إلى الموسيقى أيضا .

ومما لا شك فيه ان كفاءة وخبره العمال فى بعض الصناعات ، قد وصلت إلى حد الإعجاز ، وخاصة بعد ان عرفوا مع الزمن ، خصائص وأسرار المواد الخام التى كانوا يستخدمونها .

ويلاحظ أن الحرف كثيرا ما كانت وراثية ، الأمر الذى أدى إلى احتكار عائلات معينة لبعض الحرف . ولكن لم يكن هناك ما يحول من الناحية القانونية ، دون انتقال العامل من صناعة إلى أخرى .

ولم يكن عمال الصناعات والحرف عموما أكثر حظا من فلاحى الأرض [١] . ولكن يلاحظ فى نفس الوقت ، أن عمال بعض الصناعات الدقيقة مثل صناعة الذهب كانوا يتمتعون بمركز ممتاز ، ويلقون رعاية بالغة ، ومساعدات كثيرة من الملوك .

٤- التجارة الداخلية والخارجية :

كذلك ازدهرت فى عهد الدولة الوسطى تجارة مصر الداخلية والخارجية ، التى عمل الملوك على تشجيعها وتوفير المناخ الملائم لنموها . فقد عملوا على نشر الأمن فى كل أرجاء البلاد، وأقاموا المحطات والمخازن التجارية [٢] والكثير من التحصينات على حدود مصر الشرقية والغربية والجنوبية، لتسهيل تجارة مصر الخارجية مع الأمم المجاورة . كما نجحوا فى نشر نفوذ مصر فى البلاد المتاخمة، وخاصة مناطق النوبة والسودان وبلاد بونت والساحل الفينيقى وسورية والعراق وإيران والأناضول وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط مثل قبرص وكريت،

(١) سبق أن رأينا أن آثار مدينة "كاهون" أو اللاهون بالفيوم تدل على ان عمال الصناعة كانوا يعيشون فى بيوت وضيعة. كما تدل على تفاوت صارخ فى توزيع الثروة والدخل بين الطبقة الارستقراطية وطبقة العمال فى هذه المدينة . إذ كانت الساحة المخصصة لبناء ٢٠٠ أو ٢٥٠ منزل من منازل العمال ، ربع المساحة الكلية للمدينة . أما الباقى فقد خصص لبناء عدد عدود من القصور للنبلاء ورجال البلاط. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك ، عبد العزيز صالح ، الأرض والفلاح فى مصر الفرعونية، سبق ذكره ، ص ٥٩ - ٦٨ وحاشية رقم (٤٠).

(٢) مثل المراكز التجارية التى بنيت فى عهد الأسرة الثانية عشر عند بلدة كرمه فى شمال السودان .

خاصة فى عهد " سنوسرت الثالث " و "إمنمحات الثالث "[١] . كذلك زادت صلة داخل البلاد بالواحات . وكانت الواحات تتميز بإنتاج بعض السلع الجيدة ، مثل الخمور والزيوت والأملاح المعدنية (النطرون) التى كانت تستخدم فى التحنيط ، كما كانت مصر تستعين بعمال إقليم الهلال الخصيب فى استغلال الفيروز فى شبه جزيرة سيناء[٢] .

وخلال هذا العصر ، زادت صلات مصر بالخارج واتسع نفوذها ، لأنها كانت أقوى أمم الشرق القديم وأكثرها ثقافة فى هذا العصر ، خاصة أيام الأسرة الثانية عشرة، حيث كانت الجاليات المصرية تقيم فى سورية وفلسطين . كما سمحت مصر لأهل الشام بالعمل فى مصر .

ومن المعروف أن مصر كانت تعتمد على الخارج فى الحصول على بعض السلع التى كانت تفتقر إليها ، مثل الأخشاب الجيدة والفضة والمعادن والأحجار الكريمة والزيوت . كما كانت تصدر للخارج الكثير من منتجاتها مثل الورق والأوانى والمنسوجات والمصوغات [٣].

هذا ، وقد أسفرت الجهود السابقة وتقدم الإنتاج الزراعى والحيوانى والصناعى، عن نهضة اقتصادية بعيدة المدى ، أدت إلى انتشار العمران وتحسن مستوى معيشة السكان وزيادة عددهم .

ولعل ما سبق ، يفسر لنا ، إصرار بعض المؤرخين على تسمية عصر الدولة الوسطى ، بعصر الرخاء الاقتصادى والتنمية الاقتصادية .

---

(١) أحمد محرى ، المرجع السابق ، ٢١١ ، ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٢) محمد ابراهيم بكر ، المرجع السابق ، ص ٢٧٨ - ٢٩٨ ، وعبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم، ص ٢٠٠ .

(٣) عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ، سبق ذكره ، حتى ١٩٣ - ٢٠٠ .

المبحث الثالث

النظم الاجتماعية والاقتصادية

رأينا أن المجتمع المصرى فى عهد الدولة القديمة قد انقسم أساسا إلى طبقتين: الطبقة الأرستقراطية وطبقة العامة . وأن الملك الإله ، كان قمة التنظيم الاجتماعى ، يسعى الجميع إلى كسب رضاه وعطفه . ويعيشون فى ظله مخلصين . كما رأينا كيف هزت ثورة العصر الوسيط الأول المجتمع من جذوره وكادت تدمر كل شئ ، وكان عصر الدولة الوسطى هو العصر الذى نعم بثمار الثورة الاجتماعية .

لقد هزت الثورة الاجتماعية فكرة ألوهية الملك . ونزل الملوك إلى مستوى البشر ، وعرف هذا العصر بعصر الملوك المصلحين الشرعيين ، وعصر القوانين العادلة التى تسرى على الملك والشعب معا .

أما حكام الأقاليم ، فقد اهتزت أيضا سلطاتهم ، بل وتحولوا فى أواخر عهد الأسرة الثانية عشرة، إلى مجرد موظفين لدى الملك ،ولكنهم لم يعودوا إطلاقا خداما أو تابعين له ، كما كان عليه الحال أيام العصر الذهبى للدولة القديمة .

وفى نفس الوقت ، شهد عصر الدولة الوسطى ظهور طبقة وسطى ، تكونت أساسا من بعض صغار الموظفين وأعيان البلاد . كما نسمع عن وجود " عبيد " جاءوا من خارج مصر .

ويرى البعض أن العامة قد اصبح لهم ، ابتداء من عهد الدولة الوسطى ، حق تولى المناصب العامة . ويعتمد هذا الرأى على كثرة المقابر الكبيرة التى أقامها العامة أسوة بالكهنة والأشراف ، الأمر الذى يعنى أن العامة قد أصبح لهم حق فى الخلود ، كالأشراف سواء بسواء . كما يدعم هؤلاء رأيهم بأن الثورة الاجتماعية قد حطمت القيود التى فرضها الإقطاع على الشعب ، وخلصت الشعب من ربقة التبعية وأعادت للفرد حريته . وينكر البعض هذا الرأى ويعتقدون أن تحقيق المساواة الدينية فى عصر الدولة الوسطى ، لا يعنى بالضرورة تحقق المساواة السياسية ، ولا يعنى بالضرورة ن العامة أصبح لهم حق تولى المناصب العامة .

ونميل إلى ترجيح الرأى الأول ، لأنه الأكثر اتفاقا مع روح عصر الدولة الوسطى ، العصر الذى شهد نزول الملوك إلى مستوى البشر ، كما شهد انهيار تركيز السلطة فى شخص الملك ، كما كان عليه الحال فى عهد الدولة القديمة ، كما أنه العصر الذى تولى فيه عرش مصر ، رجل عصامى النشأة ولد فى الصعيد لأم من النوبة .

ولكننا نرى أيضا أن فكرتى المساواة الدينية والسياسية قد اهتزتا فى أواخر عهد الدولة الوسطى ، نتيجة تزايد سلطان الملوك العتاة ، مثل " سنوسرت الثالث " ، الذى اصبح إلاها أو كاد . ونسى الملوك التجربة المريرة الدامية ، التى عاشها أسلافهم خلال العصر الوسيط الأول ، حيث أودت الثورة بالعرش وصاحب العرش وأتباع صاحب العرش ، ودمرت قصورهم وحتى قبورهم وأشلاءهم ، وألقت بهم ونسائهم وأبنائهم فى عرض الطريق ، لا يجدون ما يستر عوراتهم أو فتات العيش ليسدوا رمقهم .

وقد شهد عصر الدولة الوسطى أيضا ، ظهور نظام اقتصادى جديد بظهور المجالس الطائفية والحرفية . وكانت المجالس مكونة من أعضاء الطائفة أو الحرفة ، بقصد الدفاع عن مصالح الطوائف أو الحرف التى تمثلها .

وكانت الطائفة عبارة عن هيئة تجمع بين أفراد المهنة الواحدة . فهناك طائفة الفلاحين وطائفة الصناع وطائفة الكهنة وطائفة الجنود . وقد رأينا أن المهن كانت تورث بحكم العادة والظروف الاقتصادية ، ولكن لم يكن هناك مانع قانونى يحول دون احتراف الشخص مهنة أو حرفة جديدة كما سبق أن ذكرنا .

وكانت هذه المجالس تنظر فى شئون الطائفة ، وتساعد الموظفين الإداريين على التعرف على رغبات الحرفيين ومشكلاتهم ، وتنظر فى شكايات الموظفين ضد رؤسائهم . فضلا عن هذا ، فقد كانت هذه المجالس تتولى التوفيق فى المنازعات التى تحدث بين أفراد الطائفة . وكان لكل طائفة رئيس ومراقب يقومان بالتفتيش عليها .

ويشبه هذا النظام، إلى حد ما، نظام الطوائف الذى عرفته أوربا فيما بعد ، ولكنه لم يكن نظاماً مغلقا مثل النظام الأوربى .

لقد جعل نظام الطوائف للدولة حق الإشراف والرقابة على شئون العمال والزراع ، الأمر الذى دفع بعض الباحثين إلى القول بأن مصر عرفت فى عهد الدولة الوسطى ، "نظاما اشتراكيا " يشبه إلى حد كبير، النظام الاقتصادى المعروف باسم اشتراكية الدولة [1] . ويقوم هذا الرأى على أن نظام الطوائف جعل للدولة حق الرقابة على شئون العمال والفلاحين . ونظرا لأن الدولة كانت تقوم بمهمة التوجيه والإرشاد للمنتمين للطوائف ، وأن حق الرقابة والتوجيه ، كان يقوم على أساس اعتقاد الدولة أن كل من يحترف مهنة ما ، إنما يقوم بوظيفة اجتماعية ، الأمر الذى يفرض على الدولة أن تحدد فى وضوح حقوق والتزامات كل من الزارع والعامل .

ويرى أصحاب هذا الرأى ، أن هذه النزعة "الاشتراكية" تبدو أكثر وضوحا فى مجال الزراعة ، حيث كانت الدولة تقوم بتقسيم الأراضي الزراعية إلى مساحات متساوية وتوزيعها على الأسر . وكان رب الأسرة ، أو من يحل محله ، يعتبر مسئولا أمام الدولة عن زراعة نصيب الأسرة من الأرض ، كما كان مسئولا عن التبليغ سنويا عن عدد أفراد الأسر التى زاد عدد أفرادها . إذ كانت الدولة تعطى الأسرة قطعة جديدة من الأرض فى مثل هذه الحالة . وكذلك إذا أغرق الفيضان القطعة التى كانت ممنوحة لها ، أو إذا لم يصل هذه القطعة ماء النهر . كذلك كانت الدولة تحرم الأسرة من الأرض الموزعة عليها ، إذا ما ثبت إهمالها أو تقصيرها فى زراعتها .

وتظهر نفس النزعة "الاشتراكية" عند تحصيل المالك الضريبية المقررة على الأرض . إذ كان المالك يعفى المزارعين من جزء من الضريبة ، يتناسب مع ما أصاب الأرض من نقص فى المساحة بسبب النهر ، وذلك حتى تتكافأ الضريبة المحصلة مع

---

(١) من أهم انصار هذا الرأى: Daramnes, S ,Un Socialism d' Etat, Quinxe siecle avant, G. C., Paris1934. كما ورد فى السقا ، المرجع السابق ، ص ٢٠٤ حاشية رقم (١).

ما تبقى من الأرض الموزعة على الأسرة [١] . كذلك كانت الدولة تراعى عند فرض الضرائب على ثروة الفرد حالة الفيضان ، الأمر الذى استلزم حصر أملاك الأفراد وتسجيل مستوى ماء النهر . هذا فى حين اتسم العصر الوسيط الأول بالظلم فى جباية الضرائب ، وكيف كان جباة الضرائب " يكيلون حتى يطفح الكيل " [٢] .

ويعترض فريق آخر من الكتاب على هذا الرأى ، ويرون أن النظام الاقتصادى الذى عرفته مصر فى عصر الدولة الوسطى هو نظام الاقتصاد الموجه ، وأنه كان بعيدا كل البعد عن اشتراكية الدولة ، لأن الأفراد كانوا يتمتعون بحرية واسعة فى مزاولة النشاط الاقتصادى .

فعلى الرغم من أن الدولة لم تترك الزارع وشأنه ، إلا انها لم تأخذ على عاتقها مهمة الاستغلال الزراعى حيث يعمل الفلاح بأجر تدفعه الدولة ، بل كان الفلاح هو الذى يقوم بالاستغلال ودفع الضريبة للدولة ، ويأخذ فائض الإنتاج الزراعى . ولكن لا يمكن أن نعتبر هذا الفائض أجرا ثابتا ، يبرر القول بأن الفلاح كان أجيراً يعمل لحساب الدولة، أو بأن النظام الاقتصادى الذى كان سائدا فى هذا العصر ، يمثل صورة من صور اشتراكية الدولة ، ذلك لأن مقدار الفائض للفلاح بعد دفع الضريبة يتوقف على عوامل كثيرة من بينها ما يقوم به الفلاح من جهد ، وما يبذله من رعاية لأرضه.

فضلا عما سبق ، فإن الدولة لم تكن تحل محل الأفراد فى كافة فروع الإنتاج الأخرى، بل كانت تكتفى بتوجيه الفرد بما يكفل تحقيق مصلحة المجتمع ، وتوفر له من العمل ما يكفى حاجته [٣] . وتبرير ذلك هو أن الدولة كانت تعتبر الزارع يقوم بوظيفة اجتماعية . ولهذا كانت الدولة تعوض الفرد عما أصابه من خسارة بسبب كارثة طبيعية، أو إذا طغى الفيضان على الأرض التى يزرعها . ويبدو لنا أن " الماعت " أو العدالة، الأصيلة فى وجدان مصر، كانت دائماً وراء هذه النزعة.

---

(١) السقا ، المرجع السابق ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٢) عبد المنعم ابوبكر ، المرجع السابق ، ص ١١٣ ، ونجيب ميخائيل ، المرجع السابق ص ٥٠٠ .

(٣) ولكن على الرغم من دلك فان كثيرا من الوثائق تشير الى تدخل الدولة فى النشاط الاقتصادى فى هذا العصر ، ومن الأمثلة على ذلك التعدين وبعض الصناعات التحويلية مثل صناعة الذهب ، أو السفن ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

ونرى أنه من الضرورى لتقدير وجهات النظر السابقة ، أن نناقش مسألة أخرى هى مشكلة الملكية الفردية فى عهد الدولة الوسطى .

يرى بعض الباحثين أن الملك كان المالك الوحيد للأرض الزراعية ، وأن الأفراد لم يكن لهم حق الملكية الخاصة . لقد وجدت الملكية الفردية فى عصر الدولة القديمة ، وكان حق الملكية حقا مطلقا ، يتضمن كل عناصر هذا الحق من استعمال واستغلال وتصرف . ولكن فى فى أواخر عهد الدولة القديمة ، أدى استبداد الملوك إلى استحواذهم على جميع الأراضي ، أى أصبحت الأرض كلها مملوكة للملك ، ولم تعد الأرض ابتداء من عصر الأسرة الخامسة ، من بين عناصر الثروة الفردية . وقد استمر هذا الوضع قائما فى عصر الدولة الوسطى .

ويعترض بعض الكتاب على الرأى السابق ، ويرون أنه حتى فى عهد الإقطاع لم تكن ملكية الأرض الزراعية خالصه للملك وحده، وأن إغفال ذكر الأرض ، كعنصر من عناصر الثروة الفردية ، إنما يرجع إلى أن الملوك فى العهد الاقطاعى ، كانوا يعفون ممتلكات المعابد والأرض المقطعة من الضرائب . هذا علما بأن الملوك قد توسعوا فى آخر عهد الدولة القديمة ، فى منح هذه الاقطاعيات ، الأمر الذى أدى إلى كثرة الأراضي المعفاة من الضرائب .

وحتى لو سلمنا بأن ملكية الأراضي الزراعية كانت خالصة للملك وحده ، فيجب ملاحظة أن هناك فارقا جوهريا بين ملكية الملك للأرض فى تلك العصور ، وملكية الدولة أو الملكية العامة للمجتمع ، فى النظم الشيوعية والاشتراكية .

ففى العصر الفرعونى، لم يكن للدولة شخصية معنوية مستقلة عن شخصية الملك، بل كان الملك هو الدولة . لهذا ، فان ملكية الملك لجميع الأراضي كانت ملكية خاصة خالصة له .

فضلا عن هذا ، فإن القول بملكية الملك لجميع أراضى مصر فى كل العصور ، إنما كان يعنى ملكيته لها من الناحية النظرية ، أو كان ينصرف إلى ملكية الرقبة من

الناحية النظرية ، فى حين كان حق الانتفاع بالأرض حقا خالصاً للأفراد أو المعابد أو الآلهة .

أما فى عصر الدولة الوسطى ، فقد عادت للملكية الفردية قوتها ، كما هو ثابت فى كثير من وثائق العصر [1] . ونحن نميل إلى تقبل هذا الرأى [2] .

نخلص مما سبق ، إلى أن النظام الاقتصادى الذى ساد فى عصر الدولة الوسطى ، باستثناء الفترة المتأخرة من حكم الأسرة الثانية عشرة، إنما يمثل صورة من صور الاقتصاد الموجه ، الذى يقوم على تدخل الدولة فى كثير من أوجه النشاط الاقتصادى ، لتحقيق أهداف معينة .

ويتضح مما سبق ، أن هذه الأهداف قد تباينت فى طبيعتها . بعبارة أخرى لم تكن هذه الأهداف دائما وليدة الرغبة فى تحقيق فلسفة معينة ، يسعى النظام الاقتصادى إلى تحقيقها . فمثلا كان قيام الدولة بإرسال بعثات للتعدين ، يرجع إلى عجز الأفراد عن القيام بمثل هذا النشاط ، نظرا للظروف القاسية التى سادت فى مناطق التعدين ، وكثيرا منها كانت مناطق نائية وغير آمنة. وأحيانا كان تدخل الدولة سببه رغبة الملوك فى الارتقاء بصناعة معينة لأسباب شخصية بحتة ، مثل تدخل الملوك فى صناعة الذهب ، والتى كانوا يولونها عناية فائقة ، حتى يمكنها أن توفر لهم منتجات راقية ترضى ذوقهم ومزاجهم الخاص . وأحيانا كان تدخل الدولة سببه الرغبة فى زيادة الإنتاج، كما هو الحال فى تدخل الدولة فى المجال الزراعى . ولكن هناك أمثلة لتدخل الدولة بغية تحقيق نوع من الرعاية الاجتماعية، أو العدالة

(١) و (٢) يستند الرأى الذى ينفى وجود حق الملكية الفردية فى عهد الدولة الوسطى ، على نصوص غامضة لا يمكن أن تكون دليلا قاطعا على صحة هذا الرأى . فهناك نص يقول إن الملك قد تكفل فى هذا العصر بزراعة جميع الأراضي ، وهذا قد يعنى أن الملك يرعى الزراعة . كما أن عملية الحرث كانت أصلا مسئولية الفرد ، ولظروف خاصة تدخل الحاكم "امينى" ليتحمل هذه المسئولية ، وقد سبق دراسة هذا النص . أما النص القائل بأن سيدنا يوسف ، قد اشترى كل الأرض من المزارعين لصالح الفرعون (سفر التكوين ، الإصحاح السابع والاربعين)، إنما يدل على ان الأرض كانت أصلا مملوكة للأفراد . فضلا عن هذا ، فإن وثيقة سيدنا يوسف تتضمن فى موضوع آخر قول المزارعين "لم يبق لناشئ إلا أنفسنا وأرضنا.." أما الرأى المخالف، فهناك وثائق واضحة تؤكده ، ومنها الوثائق التى تسجل تصرفات بين الأفراد محلها أرض زراعية ، كما تؤكد هذه الوثائق أن هذا الحق كان مطلقا. انظر ، السقا ، المرجع السابق ،ص ٣١٣ - ١٣٦ ، وشفيق شحاته ، المرجع السابق ، ص١٦٥.

الاجتماعية ، كما هو الحال فى تقسيم الأراضى الزراعية بين الأسر بالتساوى ، وتعويض الأسرة عن الأرض التى أغرقتها مياه النهر، أو زيادة نصيبها من الأراضى وإنقاصه ، تبعا لما يطرأ من تغير فى عدد أفراد الأسرة . فضلا عن هذا ، كانت الدولة تراعى اعتبارات متعلقة بالعدالة عند فرض الضريبة على الأفراد . ولا شك أن فى كل ما سبق تأكيداً لمدى استقرار فكرة العدالة أو" الماعت " فى ضمير ملوك مصر ، عبر كل تاريخها، كما أكدنا مراراً [1]. بل لقد بلغ الأمر حد تقديس وعبادة " الماعت " ، باعتبارها إلهة ، كانت تسمى "ابنة رع" و "سيدة السماء " وأحياناً " حاكمة القطرين " .

أما القول بأن هذا النظام كان يمثل صور اشتراكية الدولة، فإننا نعترض عليه للأسباب الآتية :

١- لقد وجدت الملكية الفردية فى هذا العصر ، كما اكتملت لها كل عناصر الحق المطلق ، وليس صحيحا أن الملك كان المالك الوحيد للأراضي الزراعية . ويصدق نفس الرأى على أوجه النشاط الاقتصادى الأخرى .

٢- أن النشاط الاقتصادى فى هذا العصر ترك أساسا ، فى كل صوره للمبادرة الفردية، وأن الأفراد كانوا يتمتعون بحريات واسعة عند قيامهم بالنشاط الاقتصادى .

٣- على الرغم من تزايد تدخل الدولة فى النشاط الاقتصادى ، فإن الهدف الرئيسى لهذا التدخل لم يكن تحقيق الاشتراكية بمفهومها المعاصر، كما أنه لم يصل إلى حد افتراض الدولة مسئولية الاستغلال الزراعى أو الصناعى أو التجارى اعتمادا على عمال أو موظفين يعملون لديها فى مقابل أجر ثابت . هذا ، وإن كنا لا ننكر وجود الكثير من المشروعات العامة فى هذا العصر .

ولكن مما لاشك فيه أيضا، أن ثورة العصر الوسيط لم تذهب كلها هباء. إذ يتضح مما سبق أن مسائل العدل الاجتماعى ورعاية الدولة للفرد، قد بدأت تترك بصماتها على السياسة الاقتصادية للدولة. هذا وإن كنا نعتقد أن العهد المتأخر من

١- انظر لمزيد من التفصيل حول تأثير العوامل الاجتماعية على الدين وظهور المصلحين الاجتماعيين فى مصر الفرعونية : برستيد ، المرجع السابق ذكره ص ٢٨٣-٣٥٢ .

عصر الدولة الوسطى، يمثل عودة إلى عصر ما قبل الثورة الاجتماعية. لقد بدأت فكرة حقــوق الفــرد تضــمحل، وعادت فكرة ألوهيـــة الملك، وأصبحت مصر على حد تعبير جاردنر، وهو من أعظم علماء "المصريات" فـى عصرنـا، دولـة إقطاعية كما لـم تكن من قبل أو من بعد !!! (١).

وهكذا نسى فراعنة مصر مرة أخرى ، التجربـة الداميـة التـى طحنـت أسلافهم عندما تقاعسوا عن مسئوليتهم نحو رعاياهم ، وامعنـوا فـى القسـوة والظلـم عليهـم ، حتـى جعلوهم ينطـوون علـى أنفسـهم ، ينسـجون مـن مواردهـم الروحيـة ، الأمـل فـى الخلاص ، بعد أن جعلهم الملوك يعيشون غرباء فـى بلادهـم ، لا يعرفـون مـن مظـاهر الحياة إلا وجود مادى ، هو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة !!! .

وهكذا تهيأت الظروف لكى يعم الظلام مرة آخرى مع جحافل " الهكسوس " .

١- انظر ما دكره الكاهن " خع خبر رع - سنبر " عن مـدى تـردى الأوضـاع الاجتماعيـة وانتشـار الظلـم وتفشـى النـواح والأحزان ، فى كتاب برستيد الذى سبق ذكره ، ص ٢٨٣-٢٨٦ . إن قراءة ما ذكـره هـذا الكـاهن مـازالت ، تثير فـى النفس إحساساً قاتماً اسوداً على الرغم من أنها كتبت منذ نحو أربعـة آلاف عـام ، أى فـى أواخـر عصـر الدولـة الوسـطى (فيما بين عامى ١٩٠٦ - ١٨٨٧ قبل الميلاد) . وهذه مقتطفات منها :

" إنى أتأمل فى الأشياء التى حدثت ، الحوادث التى وقعـت فـى البـلاد . إن التحـولات تسـير قدمـاً، ليـس علـى مثـال السـنة الماضية، والسنة أثقل عبئاً من الأخرى....... الاستقامة نبذت خارجاً، والجور يوجد فى وسط ردهة المجلس. إن خطـط الآلهـة تنتهك ، وتصاريفهم يغض النظر عنها . إن البلاد فى حزن ، والحداد فى كل مكان ، والبلدان والأقـاليم فـى نـواح . إن كـل الناس ، على السواء ، يرزحون تحت مظالم ، اما عن الاحترام ، فقد وضعت له نهايـة . أن أسياد الهـدوء أقلقـوا . إن صباحـاً يجيىء كل يوم ويرجع مرة اخرى إلى ما (سبق) أن كان . عندما أريد أن اتحدث (عنه) فإن أعضائى تقع تحت عبء ثقيـل. لقد ألم بى حزن بسبب قلبي . إنه بحلبة للألم أن أسكت عما يتصل به . إن قلباً آخر ، كان لينوء تحت العبء (ولكن) قلبـاً جسوراً فى الخطب هو رفيق سيده . كنت أرجو أن يكون لى قلب قادراً على أن يتحمل . ... ، "

" ...... إن الأرزاء تجيىء اليوم وغداً لاتكون مرت (المحن). كلّ الناس صامتون فيما يتعلق به ، (مـع أن) الأرض كلهـا فـى اضطراب عظيم . لايوجد أحد خالياً من السوء ، كل الناس على السواء يفعلونه . إن القلوب يستولى عليها الحزن........".

الفصل السادس
العصر الوسيط الثانى : محنة الهكسوس

(حوالى ١٧٧٨ - ١٥٧٥ قبل الميلاد المجيد)

تمهيد :

تستغرق هذه الحقبة ، والتى تواضع المؤرخون على تسميتها بالعصر الوسيط الثانى أو عصر الاضمحلال الثانى ، مدة من الزمان تزيد قليلا على القرنين ، تبدأ بنهاية حكم "الملكة سبكنفرو " [١] ، آخر ملوك الأسرة الثانية عشرة ، حوالى عام ١٧٧٨قبل الميلاد المجيد . هذا وينتهى العصر الوسيط الثانى ، حوالى عام ١٥٧٥ قبل الميلاد المجيد ، عندما نجح " الملك أحمس الأول " فى تحقيق أحلام أسلافه العظام وطرد "الهكسوس" " Hyksos " من مصر ، وأسس فى طيبة الأسرة الثامنة عشرة ، مؤرخا بذلك بداية "عصر الإمبراطورية " الذى يعرف " بعصر الدولة الحديثة " .

ويكتنف تاريخ هذه الحقبة من تاريخ مصر الفرعونية ، الكثير من الغموض والمتناقضات ، نظرا للندرة الوثائق التاريخية التى يمكن الوثوق بها [٢] . وقد ترتب على ذلك وجود خلافات عميقة بين المؤرخين ، بصدد الكثير من المسائل الجوهرية الخاصة بهذا العصر ، مثل الأسباب التى أدت إلى انهيار " الأسرة الثانية عشر " ونهاية عصر الدولة الوسطى ، ومن هم الهكسوس ؟ ومتى وكيف تمكنوا من اعتلاء عرش مصر ؟ وكيف كانت العلاقة بينهم وبين أبناء مصر ؟ .... إلخ .

ونوجز فيما يلى السمات الأساسية للعصر الوسيط الثانى .

يشمل هذا العصر فترة حكم الأسرات من الثالثة عشرة حتى الأسرة السابعة عشرة ، وخلاله ساد مصر الفوضى والخراب والظلام ، وعانى أبناءها ظلم الأجنبى الدخيل المتمثل فى " حكم الهكسوس " .

---

(١) Sebeknofra Or Sebeknofrure

(٢) وعلى سبيل المثال : يعتمد المؤرخون في دراسة هذه الحقبة على كتاب المؤرخ اليهودى "فلافيوس جوزيفيوس" "Flavius Josephus" المعروف " بضد ابيون " " Against Opion" ، والذى كتبه دفاعا عن بنى جنسه ضد ما كتبه العالم السكندرى " ابون " عن اليهود . ويشك الكثير من المؤرخين فى صدق " جوزيفيوس " فيما ادعى انه نقله عن المؤرخ المصرى " مانيتون السمنودى " عن تاريخ العصر الوسيط الثانى . كذلك يشك بعض المؤرخين المعاصرين ، فى صدق بعض الوثائق الفرعونية التى كتبت فى عصر الدولة الحديثة عن العصر الوسيط الثانى ، نظرا لاعتقادهم ان هذه الوثائق ، كانت تهدر الحقيقة رغبة فى تجسيم بطولات وامجاد ملوك " عصر الامبراطورية " . ويرى هؤلاء المؤرخون ، ان " عصر الدولة الحديثة " قد شهد محاولات عديدة لتزييف وقائع التاريخ . انظر فى ذلك : Gandiner A.,op- cit ., 147 et. seq.

ويشبه هذا العصر إلى حد كبير العصر الوسيط الأول . فكلاهما سبقه مجموعة من الملوك الضعاف ، التى كثرت فى عهودهم دسائس ومؤامرات القصر والصراع من اجل اغتصاب عرش مصر [١] . الأمر الذى أدى إلى انهيار السلطة المركزية ، وزيادة سطوة ونفوذ كبار ملاك الأراضي والنبلاء وحكام الأقاليم [٢] ، ثم ضياع وحدة مصر السياسية فى نهاية الأمر . وفى كلا العصرين تعرضت مصر لهجمات من الخارج ، جاءت من الشرق وشملت الدلتا ، بل وامتدت إلى الوادى حتى مصر الوسطى . وفى كلا العصرين كان خلاص مصر على يد أمراء " بيت طيبة " العظيم .

من الصعب على الإنسان أن يجد سببا واضحا مقنعا ، يفسر لماذا اخذ نجم الأسرة الثانية عشرة فى الأفول ، وما أعقب ذلك من ضعف شامل تفشى فى أرجاء البلاد[٣] . وقد فسر بعض الباحثين ما أصاب مصر من وهن ، بظهور أعداء لها فى الشرق وفى الجنوب . ويميل البعض إلى افتراض أن ظاهرة الضعف ، إنما ترجع إلى كثرة الدسائس والمؤامرات والخلافات التى حدثت داخل " البيت المالك " ، حتى قطعت أوصاله ، وما ترتب على ذلك من عجز ملوك هذه الأسرة عن الحد من سلطة حكام الأقاليم ، الذين قوى نفوذهم واستقل كل منهم بالتصرف فى إقليمه أو اقطاعيته ، كما لو كان ملكا له [٤] . وقد أدى هذا فى نهاية الأمر ، إلى انهيار الأسرة الثانية عشرة[٥].

(١) خاصة أيام الأسرة السادسة حيث قتل الحراس ملكهم "تتى الأول" ، كما كانت هناك محاولة لقتل "الملك بيبى الأول" أحد ملوك نفس الأسرة ، دبرتها زوجته . اما اسوء أيام العصر الوسيط الثانى ، فكانت أيام الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة .

(٢) Heicht, H., op. cit., p. 129 - 130

(٣) عندما وجد المصريون أن جيوش بلادهم قد عجزت عن مقاومة الأجنبى الدخيل الذى احتل ارضهم ، استعانوا بالسحر لمواجهته لاعتقادهم أن الاجنبى إنما استعان هو الآخر بالسحر لسحق بلادهم. انظر فى ذلك : أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٦ .

(٤) اسرف الملوك فى العطايا للكهنة والنبلاء ، بدوى ، ص ٩ .

(٥) أحمد فخرى ، المرجع السابق ، ص ٢٣٤ - ٢٣٦ .

وقد تنازع حكم مصر بعد الأسرة الثانية عشرة ، الأسرتان الثالثة عشرة ، والتى حكمت من منف ، والأسرة الرابعة عشرة ، والتى حكمت من "سخا" فى غرب الدلتا . وخلال هذه الحقبة انهارت وحدة مصر السياسية . إذ الراجح أن هاتين الأسرتين قد حكمتا فى وقت واحد ، كل منهما فى جزء من مصر . بالإضافة إلى ذلك ، فإن بعض البيوت أو العائلات الكبيرة ، مثل "بيت طيبة" ، و "بيت قفط" ، و "بيت أسيوط" ، وغيرهم قد نازعوا الأسرتين "الثالثة عشرة" و "الرابعة عشرة" ، سلطة الحكم وانفرد كل منهم بالحكم فى منطقة معينة [1].

وفى نفس الوقت الذى كانت فيه الأسرة الرابعة عشرة تحكم من سخا فى غرب الدلتا، ظهر على مسرح الأحداث "الهكسوس" فى شرق الدلتا .

وهكذا تقطعت أوصال مصر ، حتى كتب لها الخلاص حوالى عام ١٥٧٥ قبل الميلاد المجيد .ولكن من هم " الهكسوس " ؟

الراجح انهم جماعات يطلق عليها " الجنس السامى " ، جاءت أصلا من أواسط آسيا، واستقرت فى فلسطين حقبة من الزمن ، ثم بدأوا فى التسلل إلى شرق الدلتا أيام الأسرة الثالثة عشرة بحثا عن لقمة العيش [2] . ومع الزمن ، ونتيجة لما أصاب مصر من ضعف ، قوى نفوذهم حتى بلغ حدا من القوة ، شجع أحد رؤساءهم على ادعاء عرش مصر ، وتأسيس عاصمة لهم فى "آواريس " فى شرق الدلتا [3] . وقد تمكن "الهكسوس" من السيطرة على كل الدلتا ، ثم امتد نفوذهم إلى الوادى حتى مصر الوسطى شمال " الاشمونين " .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣٧ - ٢٤٠ .

(٢) ربما كانوا اسرى من فلسطين أو احراء جاءوا للعمل كخدم فى مصر . انظر فى ذلك : Gardiner, op., cit., p. 147 . هذا ويذهب المؤرخ اليهودى "يوسيفوس" ، الى أن "الهكسوس" كانوا يهودا ، وكانوا ملوكا ذوى سطوة وجاه وحضارة ومجد وتاريخ . ويقول هذا المؤرخ أنه نقل ذلك عن "مانيتون السمنودى" ولكن يرى البعض أنه ليس هناك ما يؤكد ان المؤرخ اليهودى قد نقل بأمانة عن "مانيتون" . أحمد فخرى ، المرجع السابق ، ص ٢٤٤ ، حاشيه (٣) . وكذلك : Gardiner, op., cit ., p157.

(٣) من المسلم به الآن بين الباحثين المعاصرين أن كلمة "الهكسوس" مشتقه من الكلمة الفرعونية "حقا خاسوت" التى كانت تطلق ايام الدولة الوسطى على حكام البلاد الاجنبية ، ولكنها لم تكن تشمل افراد هذه المجموعات التى هاجرت الى مصر . وكان المصريون القدماء يطلقون عليهم اصطلاح "عامو" اى الاسيويون . وهذا الرأى هو رأى جاردنر، ويقبله معظم الباحثين المعاصرين . انظر فى تفصيل ذلك : Gardiner, op., cit., p. 155-160. وكذلك : أحمد فخرى ، المرجع السابق ، ص ٢٤٨ - ٢٥٩ وسيد توفيق ، معالم وتاريخ وحضارة مصر ، دار النهضة العربية، القاهرة ، طبعة ١٩٨٧ ، ص ٢٥١ - ٢٦٠ .

أولا : الأحوال الاقتصادية والنظام الاقتصادى :

تكاد تجمع الوثائق الفرعونية وكذلك كثير من المؤرخين [١] ، القدماء والمحدثين ، على أن العصر الوسيط الثانى ، كان عصر فوضى وخراب وصراع على الحكم . ولقد لخص جاردنر وصف هذه الحال بقوله إن هذا العصر كان [٢] :

state of dire havoc and confusion.

وقد وصلت حالة البلاد درجة من الفوضى ، بحيث كانت بلا ملك ، أو يتنازع حكمها أكثر من ملك فى وقت واحد .

وقد أدى ذلك إلى تدهور أحوال مصر الاقتصادية إلى حد بعيد ، وأهملت الزراعة ونظم الرى والحرف ، وانكمشت تجارة مصر بسبب الحروب الداخلية بين حكام الأقاليم المصريين ، وبينهم وبين "الهكسوس" ، نتيجة لانهيار السلطة المركزية .

كما يكاد يجمع المؤرخون ، خاصة المصريون [٣] ، على أن مصر عانت لأول مرة فى تاريخها قدرا كبيرا من الذل والمهانة من "الهكسوس" ، الذين عاملوا أبناءها بقسوة ودون رحمة ، وحرقوا مدنها ، و دمروا معابدها ، وذبحوا البعض ، واسترقوا زوجات وأطفال البعض الآخر .

فضلا عن هذا ، فقد عبدوا الإله "الأسيوى سوتخ" ، أحد مظاهر "الإله ست" . وقد سبق أن رأينا "ست" كان قاتل "الإله اوزوريس" الطيب الذى أحبه المصريون كثيرا[٤] . ويشذ عن هذا الاتجاه ، عالم المصريات "جاردنر" ، الذى لم ير فى عبادة "الهكسوس" للإله "ست" إهانه لمشاعر المصريين ، لأن الإله "ست" كان يعبده المصريون أنفسهم . كذلك يذهب "جاردنر" إلى أن جزءا كبيرا من المصريين تقبل حكم "الهكسوس" ، كما قامت بينهم علاقات كانت ذات نفع للطرفين. بل ويرى "جاردنر" أن

---

(١) على سبيل المثال ما نقله "جوسيفيوس" عن المؤرخ المصرى "مانيتون السمنودى" ، وكذلك الآثار التى وجدت بمعبد الملكة حتشبسوت فى بنى حسن ، أحمد فخرى ، المرجع السابق ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ، سيد توفيق ، المرجع السابق ، ص

(٢) Gardiner, op., cit., p. 149 - 150

(٣) أحمد فخرى ، المرجع السابق ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٤) آثار ذلك حفيظة المصريين ، بما فى ذلك ملوكهم ، فلم يرض " الملك سقننرع " أن يعبد الهكسوس " سوتخ " بدلا من " آمون رع". ونجد نفس المشاعر ضمن الآثار التى وجدت فى معبد "الملكة حتشبسوت" فى بنى حسن ، انظر أحمد فخرى ، المرجع السابق ص ٢٥٤ وما بعدها .

"الهكسوس" بذلوا جهدا صادقا لكسب ود المصريين وإرضائهم ، وأن ما أحدثه أمراء بيت طيبة من خراب ودمار فى مصر ، يفوق كثيرا ما أحدثه " الهكسوس " [1] .

وخلال هذا العصر ، انتهز حكام الأقاليم ما أصاب الملوك والسلطة المركزية من انهيار ، وعملوا على تقوية دعائم نفوذهم واستقل كل منهم بإقليم وتصرف فيه كما لو كان ملكا ، دون أن يقيم وزنا يذكر للفرعون ، أو للفراعنة الذين اقتسموا حكم البلاد . ويرى "جاردنر" ان النظام الاقطاعى كان أساس اقتصاديات البلاد ، وانه وصل فى هذا العصر قدرا بالغا من القوة نتيجة ضعف الملوك وحدة الصراع بينهم .

ويلاحظ ، أن تأثير " الهكسوس " على حضارة مصر كان محدودا وكان مقصورا على الجانب المادى فقط ، وتمثل فى رأى البعض فى إدخال الحصان والعربات التى تجرها الخيول[2] وبعض الأسلحة كالخناجر والسيوف البرونزية ، والأقواس المركبة ذات المدى القوى البعيد . كذلك أثر "الهكسوس" فى فن بناء الحصون ، لأنهم اتبعوا فى بناء حصونهم ، طرقا كانت جديدة على المصريين [3] .

نخلص مما سبق ، إلى أن انهيار السلطة المركزية للدولة ، والصراع من أجل السلطة ، وانقسام البلاد إلى دويلات أو أقاليم ، وما جرى من حروب أهلية والاحتلال الاجنبى لجزء كبير منها ، أدى إلى تدهور أحوال مصر الاقتصادية وسيطرة النظام الاقطاعى على اقتصاديات البلاد .

ولكن ما كان لهذا الوضع أن يدوم . إذ بدأ المصريون يشعرون بمرارة الاحتلال الاجنبى البغيض ، وتيقنوا من حقيقة " أن الويل دائما للمغلوب من الغالب"[4]. ومع الزمن تجمعت القوى الوطنية بزعامة "أمراء طيبة" ، الذين كتب لمصر الخلاص على أيديهم من محنة "الهكسوس" ، كما كان خلاص مصر على أيديهم من محنة العصر الوسيط الأول .

---

(١) Gardiner, op., cit., pp. 147-175 .

(٢) يرى بعض المؤرخين أنه لايوجد دليل حاسم على أن "الهكسوس" جاءوا بالخيل والعربات ، وأنهم لم يستعملوها إلا فى اواسط فترة حكمهم بعد اكثر من قرن ونصف من بداية هذا الحكم . انظر أحمد فخرى ، المرجع السابق ، ص ٢٤٦ ، ولمزيد من التفصيل انظر Save. Saderbergh , The Hyksos Rule in Egypt , J. E. A. ,37 , 1951 , p. 59 .

(٣) Gardiner, op., cit., pp. 171 .

(٤) تعكس كتابات المصريين حتى اليوم ، نفس الشعور بالمرارة من احتلال "الهكسوس" لبلادهم ، رغم مضى قرون عديدة .

لقد بلغ " بيت طيبة " درجة من القوة أقلقت ملوك " الهكسوس " ، ودفعتهم إلى التحرش بأمراء هذا البيت . فقد أرسل ملك الهكسوس إلى "سقننرع" كبير بيت طيبة ، يشكو من أن أفراس النهر فى طيبة تقلق نومه وهو فى "افاريس" فى شرق الدلتا ، ويطلب من "سقننرع" أن يسكتها . وانتهز "سقننرع" الفرصة ، وبدأ حروب أسرته الطويلة من أجل تحرير مصر من "الهكسوس" . ولكن القدر حال بينه وبين تحقيق النصر النهائى ، إذ مات ، وكما يبدو ، شهيدا بعد إصابته بجروح بالغة [١] .

وبعد موت "سقننرع" حمل الراية بعده ابنه "كامس" Kamose . وتدل وثائق هذه الحقبة ، على أن "كامس" كان غيورا على وحدة مصر واستقلالها . جمع ذات يوم كبار رجاله وقال لهم :

" أريد أن أعرف ما جدوى قوتى ، فهناك ملك فى "افاريس" وأخر فى "كوش".
وها أنا ذا احكم بين أسيوى ونوبى ، وكل منا يحكم جزء من مصر ولا
أستطيع الوصول إلى "منف" .إنه (أى ملك الهكسوس) يحتل الاشمونين .
والتعب أحل بالناس بسبب خدمتهم للأسيويين . سأحارب حتى أبقر بطنه .
إن رغبتى هى أن أنقذ مصر وسحق الأسيويين . "

وكم كانت خيبة أمله فى كبار رجاله عظيمة . إذ تعكس نصائحهم له قدرا لا يحسدون عليه من الجبن والتقاعس واللامبالاة للاحتلال الاجنبى لأرض بلادهم ، وإذلالهم لبنى وطنهم . يقول كبار رجاله :

" ان احتلال الاسيويين امتد حتى مدينة القوصية شمال أسيوط ، ولكننا
مطمئنون هنا فى مصر ... إما إذا جاء أحد وحاربنا فإننا سوف نقاومه".

وحزن " كامس " ولكنه كان مصرا على تحرير بلاده فحارب " الهكسوس " وهزمهم فى "معركة نفروسى" فى إقليم الأشمونين . ويقول "كامس" وكله عزة وفخر :

---

(١) وجدت فى رأسه ورقبته جروح خطيرة ، ربما اصابته خلال احدى المعارك . ويرى "جاردنر" انه ليس هناك دليل يبرر القول بأن "سقنرع" مات شهيدا . انظر فى ذلك : Gardiner, op , cit., p. 163-164.

" لقد دمرت مدنهم وحرقت ديارهم حتى أصبحت تلالا حمراء ، جزاء التخريب الذى ألحقوه بمصر " .

ولكن القدر لم يكتب "لكامس" أن يكون القاهر الأخير لأعداء بلاده ، بل احتفظ بهذا الشرف المقدس لأخيه "أحمس الأول" . سار "أحمس" فى خطى أبيه وأخيه ، فواصل حرب التحرير ، وانتصر على أعداء وطنه واستولى على عاصمتهم "افاريس" بعد معركة طويلة . ولما فروا نحو الشرق تبعهم إلى جنوب فلسطين ، وحاصرهم فى مركز تجمعهم فى شاروهين(١) سنوات ثلاث ، حتى سقطت فى أيديه وفرق شملهم ، ثم عاد منتصرا لتستقبله طيبه استقبال الأبطال . وهكذا انتهى العصر الوسيط الثاني ، وبدأ عصر الدولة الحديثة أو "عصر الإمبراطورية" بتأسيس " أحمس الأول " الأسرة الثامنة عشر (٢) .

(١) لم تكن نهاية "الهكسوس" فى شاروهين ، فقد استمر وجودهم فى جنوب فلسطين حتى كان " للملك تحتمس الأول " شرف القضاء عليهم تماما ومحو ذكرهم من التاريخ كأمة لها كيانها أو كقوة حربية .

(٢) من أهم الوثائق فى تاريخ هذه الحقبة لوحة " كامس " التى عثر عليها عام ١٩٥٤ عند ترميم معبد الكرنك ، ولوحة "كارنارفون" وهى عبارة عن لوحات صبى تتضمن ما أملاه عليه مدرسه ، وكذلك البردية المعروفة "ببردية-سالية " التى ترجع إلى " عصر الرعامسة " ، والنصوص التى وجدت فى مقبرة "أحمس الأول " . وتوجد هذه المقبرة فى الكاب بالقرب من ادفو . هذا ويبدو لنا ان أهم المراجع المعاصرة عن تاريخ هذه الحقبة هو كتاب "جاردنر" الذى سبقت الإشارة إليه ، والمراجع المشار إليها فى هذا الكتاب . وانظر أيضا : أحمد فخرى ، المرجع السابق ، ص٢٥١-٢٦٠ .

الفصل السابع

عصر الدولة الحديثة : العصر الإمبراطورى

(١٥٧٥ - ٩٤٥ قبل الميلاد)

تمهيد :

يمتد عصر الدولة الحديثة، والذى يعرف أيضاً بالعصر الإمبراطورى، أو "عصر الدولة العالم " على حد قول " برستيد "[١] من عام ١٥٧٥ حتى ٩٥٠ أو ٩٤٥ قبل ميلاد السيد المسيح، ويشمل فترات حكم الأسرات الثامنة عشر والتاسعة عشر والعشرين.

يمثل هذا العصر فى رأى البعض[٢] ، الدورة التاريخية الثالثة من تاريخ مصر الفرعونية، نظراً لأنه شهد مولد الإمبراطورية، وإعلاء صرحها، ثم انطفاء جذوتها وانهيارها. وإن كنا نعتقد، إنه كان يمثل واحدة من المحاولات المستميتة، لبث الحياة فى شجرة الحضارة الفرعونية، التى بدأت تفقد قدرتها على الخلق والإبداع، بعد أن ذهب الرعيل الأول من بناة الحضارة فى عصر الدولة القديمة، أو عصر بناة الأهرام. تلك الصروح التى لازالت، حتى يومنا هذا، تمثل واحدة من كبرى معجزات الخلق الحضارى وأحد ألغازها، التى لازالت حتى يومنا هذا، تستحوذ على اهتمام الفكر الانسانى وتثير فضوله، على أمل أن يميط اللثام عن أسرارها. ويبدو لنا، أنها ستبقى هكذا، تتحدى فى عزة صارمة كل قدرات البشر.

ونعرض فيما يلى فى إيجاز شديد، لأهم ملوك أسرات عصر الدولة الحديثة.

الأسرة الثامنة عشر :

حكمت الأسرة الثامنة عشر، أكثر من قرنين ونصف من الزمان. كان عصرها عصراً بطولياً. شهدت بدايته ظهور ملوك عظام شيدوا صرح الإمبراطورية المصرية، بحب وعزيمة. وكان من بين هؤلاء.

١ – "الملك أحمس الأول"، بطل تحرير " تامرى "، أى مصر، الذى أعاد إلى ترابها قدسيته، وطهرها من دنس الهكسوس.

٢ – "الملك تحوتمس الأول"، الذى وضع اللمسات الأولى فى صرح الإمبراطورية، وقد قيل عنه فى أحد الوثائق :

١- Gardiner , op. cit , p 177.

٢- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، المرجع السابق الذكر، ص ٢١٥

"أطلق حدود تامرى إلى ما تحيط به الشمس، وعــوض أهلها بعد خوفهم، واقصى الشر عنها، وجعلها فوق رأس الدنيا كلها، وجعل الجميع اتباعاً لها "[١].

٣- "الملك تحوتمس الثالث" : كان عصره عصر إعـلاء القيم النبيلـة، وتدعيم بناء الإمبراطورية، وكان أعظم العظماء، إذ كان قائداً عسكرياً فـذاً، وفـى نفس الوقت فناناً مرهف الحس، يقدس قيم الجمال والفن والحق والعدالة.

قال عنه حاجبه " انتف " :

" كان خادم الفقير وأب اليتيم ".

وخاطبه وزيره " رخميرع " قائلاً :

" لقد سموت بالعدالة إلى عنان السماء " .

٤- الملكة حتشبسوت :

ابنة "الملك تحوتمس الأول"، و"الملكة أحمس" وزوجة "الملك تحوتمس الثالث". كانت قوية الشكيمة ، لا حدود لطموحها. كما كانت تميل إلى التشبه بالرجال. تركزت فيها السلطة أثناء فترة حكم تحوتمس الثانى، وبعد وفاته وتولى الملك تحوتمس الثالث الحكم. وهو صغير السن، استطاعت حتشبسوت أن تنحيه جانباً. بل ونجحت فـى ارغامه على العزلة فى معبد آمون، وتوجت نفسها ملكة على مصر .

أبدت اهتماماً خاصاً بالصناعات الاستراتيجية، خاصة مناطق الفيروز فـى سيناء، كما عملت على تنمية علاقات مصر التجارية ببلاد بنت، وجلب النباتات والسلع الأجنبية إلى مصر، كما سنرى فيما بعد. ولكن رغم كل هذا فقد نجح تحوتمس الثالث فى إقصاءها عن العرش، وتدمير الكثير من آثارها.

٥- الملك أمنحوتب الثالث:

بدأ عهده بمظاهر الفتوة التى بدأها عصر أبيه، وخرجت جيوشه لتأكد سيطرة "تامرى" على كل أرجاء امبراطوريتها، وكان يحب أن يقال عنه أنه :

١- لمزيد من التفصيل حول عصر تحوتمس الثالث ، أنظر : Gardiner, op. cit., pp188-198.

" حاكـم ينـال مـا يشـاء بسيفـه ويعمـل بـيديـه ".

بلغ ثراء مصر وخيراتها فى عصره، قدراً لم تعرفه من قبل[1]. ولكنه أخذ بعد بدايته الصارمة، يستكين إلى الدعة، وينساق وراء نزواته. فأسرف إسرافاً كبيراً فـى الـزواج بـأميرات مصريـات وآشـوريات وبابليـات وميتانيـات. بـل لقـد ذهـب بعـض المؤرخين إلى القول بأنه تـزوج إحدى بناتـه [2]. وامتـلأت حجـرات قصـره بـالجوارى الجميلات، ومع ذلك ضن بأميرات بيته على أى ملك أجنبى، أيا كان شأنه.

وهكذا غرق فى ملذاته حتى القاع، ولم يعـر مـا بـدأ يصيب الامبراطوريـة مـن تفكك ووهن أى اهتمام، وصم أذنيه عن شكوى أوفيائـه مـن انهيـار هيبـة مصـر، فـى الكثير من أرجاء الامبراطورية. وكتب احد هؤلاء إليه :

" كـان حكـام كنعـان إذا رأوا جنديا مصريا ولـوا الأدبـار، امـــا الآن "

" فـــإن أبنـــاء "عبـدو عشـرتا" [3] يستخفون بـالمصريين ويهددونـــى "

" بأسلحة فتاكـة "

ولما كان النـاس على دين ملوكهـم، فقـد انسـاق المصريين فـى نفـس الاتجـاه، وحفلـت حـانـات ومشـارب طيبـة، بـاقداح الجعـة والنبيـذ وأهـل الطـرب والراقصـــات المحترفات، وعم الفساد[4][5].

٦- الملك امنوحتب الرابع أو " اخناتون " :

تولى العرش بعد وفاة أبيه "الملك أمنحوتب الثالث"، ولم يكن قـد تجـاوز السـتة عشـر ربيعـــاً، وقد سار فى نفس درب أسلافه . فقدم ولاءه للإله آمون . ثم تزوج من

١- المرجع السابق، ص ٢٠٥ - ٢١٠.

٢- المرجع السابق، ص ٢١٢.

٣- أحد حكام الاشوريين فى أواسط سوريا، الذين قويت شوكتهم وبسط نفوذه عنوة على حساب جيرانه، أنظر : عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر القديمة، سبق ذكره، ص ٢٣٩.

٤- إنعكس كل هذا فى وثائق العصر، واقلقت ظاهرة الفساد المدرسين فى ذلك العصر، الذين حفلت كتاباتهم بالخوف على تلاميذهم، وأكثروا من نصحهم حتى يبعدوا عن الشر المستتر، الذى مثلته حانات ومشارب الجعة فى طيبة.

٥- أنظر فى أثر الرفاهية والرخاء على الدولة أو الحضارة، مقدمة ابن خلدون، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٦، ص ١١٦ - ١١٩ ، حيث يقول : "ثم إذ اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفة، دعاهم إلى السكون والدعة وتعاونوا فى الزائد على الضرورة واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر".

أشهر ملكات التاريخ " الملكة نفرتيتى " . كان صوفياً حالماً أنصرف كل فكرة إلى التأمل فى الكون وأمور الدين ، حتى اهتدى، أو كاد ، إلى وحدانية الإله ، كما سنرى فيما بعد.

لم يحدث خلاف بين المؤرخين والباحثين فى تاريخ مصر الفرعونية بقدر ما حدث بشأن اخناتون . فقد اعتبره البعض مارقاً دمر الامبراطورية، فى حين نظر إليه آخرون باعتباره رسولاً أو نبياً . وأيا كان الرأى فمن المؤكد انه ترك بصماته على تاريخ الانسانية حتى يومنا هذا.

٧- الملك توت عنخ آمون :

تولى عرش مصر بعد اخناتون وهو طفل صغير لم يتخاوز ثمانى سنوات ، ومات وهو فى ريعان الشباب . اتجه فى البداية إلى عبادة آتون، ثم اضطر إرضاء لكهنة آمون الذين كانوا قد نجحوا فى القضاء على الدين الجديد إلى تغيير اسمه من "توت عنخ آتون " إلى توت عنخ آمون " على الرغم من أنه كان نكرة بين ملوك هذا العصر العظام إلا أن محتويات مقبرته ، خاصة قناعه وتابوته الذهبى واثاثه الجنائزى، أذهل العالم نظراً لما تجسد فى كل هذا من عبقرية الاداء والصنع [١] .

٨- الملك " حور محب " :

وانتقل الحكم بعد ذلك إلى حكام غرباء عن الأسرة. وكان من بين هؤلاء، "حور محب" الذى أحزنه ما آلت إليه مصر من فوضى وخراب [٢] ، فحاول ما استطاع، إصلاح ما أفسده آخر ملوك الأسرة الثامنة عشر. ولكن لم يقدر لإصلاحاته الإدارية والقانونية النجاح. كما لقيت نفس المصير محاولته المشينة، إخفاء آثار " دعوة اخناتون " داخل الصروح التى أقامها لنفسه فى معبد الكرنك [٣].

١- اكتشفت مقبرته فى نوفمبر ١٩٢٢ ، تحت مقبرة الملك رمسيس السادس ، ومن حسن الحظ أنها وجدت سليمة لم تعبث بها أيدى لصوص المقابر. ويذهب بعض الخبراء المعاصرين إلى أن قناعه الذهبى ، يعتبر أروع قناع انتجته يدى فنان على مر العصور .

٢- ورد فى أحد الوثائق انه حاول الاصلاح بعد أن راعه " أعمال الظلم التى كانت تقترف فى مصر " احمد فخرى، المرجع السابق، ص ٣٣٨.

٣- تحفل "رسائل تل العمارنة" ومقابرها بأثار تلك الفترة وحالة التردى والأنهيار التى عمت مصر فى آخر عصر الأسرة الثامنة عشر، انظر لمزيد من التفصيل، عبدالعزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٣٧ - ٢٤٣، واحمد فخرى، المرجع السابق الذكر، ص٣٠٠ - ٣٣٨.

لقد حاول " حور – محب "، وقف مظاهر التفكك والفوضى التى أصابت مصر، كما أدت إلى تدهور واضح فى الأحوال الاقتصادية. وتؤكد بعض الوثائق، أن " حور محب " كان يقضى الليل والنهار فى التفكير، فيما يمكن عمله لإصلاح مصر، وأنه قد أخذ قلماً وقرطاساً من البردى، ثم أصدر التشريعات الآتية :

التشريع الأوز : ويحدد العقوبات التى توقع، على كل من يعوق السفن التى تحمل الضرائب إلى مـ ائن الدولة. وكان عقاب ذلك جدع الأنف والنفى إلى حصن "تارو" على مقربة من القنطرة.

التشريع الثانى : فيحدد الإجراءات التى يتعين اتخاذها، فى حالة سرقة سفن محملة بالضرائب الخاصة بالدولة، وتكون مرسلة إلى الملك.

التشريع الثالث : فخاص بالإجراءات التى تتخذ ضد من يحاول سرقة، أو يحول دون وصول سفن محملة بأشياء مستحقة لزوجة الملك أو مرسلة إلى المعابد.

التشريع الرابع : فيختص بمعاقبة الموظفين الملحقين، بمكتب قرابين الملك، الذين يذهبون إلى قرية من القرى، لاخذ نبات "كث" ويجعلون أرقاء بعض الناس، يشتغلون فترة من الزمن دون رضى سادتهم.

التشريع الخامس : فخاص بالجنود الذين يذهبون إلى الفلاحين للاستيلاء على جلود الحيوانات، دون وجه حق.

التشريع السادس : فخاص بالاجراءات التى تتخذ ضد ما يقع من ظلم على بعض الفلاحين، وما يحدث من تلاعب من موظفى الضرائب.

التشريع السابع: فيحدد العقاب الذى يوقع على من يأخذ من الفلاحين النبات المسمى " سم "، الذى كان ضروريا لصناعة الجعة، بحجة أنه يؤخذ للوفاء بضرائب الملك.

التشريع الثامن : خاص بالعقوبات التى توقع على من يأخذ الخبوب أو الخضروات من الفلاحين دون وجه حق.

أما التشريع التاسع فقد تعذر على المؤرخين فهم هدفه.

أما التشريع العاشر: فيحرم القسوة أوكثرة العمل على الأرقاء.

وإلى جانب الإصلاحات التشريعية التى كانت تهدف إلى إعادة الأمن والطمأنينة إلى البلاد، قام " حور محب " بالكثير من الاصلاحات الادارية. وكذلك حاول إصلاح مرفق القضاء، بأن حسن أحوال القضاة المادية، كما اعتبر أن اعتداء أحد أعضاء السلطة القضائية على العدل وظلمه للناس بسبب رشوة أو غيرها، إنما يعتبر من الجرائم الكبرى التى عقوبتها القتل.

بالإضافة إلى ماسبق، فقد أعاد تنظيم الجيش، وكفل لجنوده وضباطه حياة كريمة، كما قرر لهم أياماً للراحة. كما حاول إعادة تنظيم البلاط الملكى.

وتدل بعض الدراسات المعاصرة الخاصة بعصر الدولة الحديثة، أن " حور محب" قد نجح إلى حد كبير فى إصلاح أحوال مصر، ووقف أعمال الظلم التى كانت تتعرض لها، الأمر الذى أعاد لمصر ثقتها بنفسها وأعاد الطمأنينة إلى نفوس أبنائها[١].

انتقل الحكم بعد " حور محب "، إلى شيخ طاعن فى السن، كان زميلا له فى الجيش ويسمى " رمسيس " أو " رع – مس – سو " ولم يعمر طويلا، وخلفه فى الحكم " الملك سيتى الأول ".

الأسرة التاسعة عشر:

يمتد حكمها أكثر من قرن من الزمان، خلال الفترة من ١٣٠٨ إلى ١١٩٤ قبل ميلاد السيد المسيح. وظهرت على مسرح الأحداث فى أعقاب " عصر المتاعب "، الذى أودى بالأسرة الثامنة عشر، بعد أن شيدت الامبراطورية، وأدت رسالتها نحو مصر . وبهذه الأسرة يبدأ " عصر الرعامسة " وكان من أعظم ملوكها :

١ – " الملك سيتى الأول " : المؤسس الحقيقى للأسرة التاسعة عشر، واعتبر المصريون عهده مبشراً باستعادة المجد السالف، ولهذا سمى " وحم مسوت"، أى "معيد المواليد "،[٢] بمعنى باعث النهضة من جديد. أما خارج مصر، فقد

١– أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٣٣٦ – ٣٣٨، وعبد الرحيم صدقى محمد حسنى، القانون الجنائى عند الفراعنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦، ص ١٧ – ٢١وكذلك : Gardiner ,op.cit ., p. 248

٢– الاصطلاح الانجليزى المرادف "Repetition of Birth "

تصور أعدائهـا أن حداثـة عهــده تمثل فرصــة سانحــة للقضــاء علـى مـا بقـى لمصـر مـن نفـوذ خارجى، ولكنهم كانوا مخطئين .

سار فى خطى " حور محب "، وحاول إصلاح مصر واستعادة قوتها وأمجادهـا، كما استعاد نفوذهـا الخـارجى. وترك لنـا مقبرتـه فـى وادى الملـوك والتـى تعتبـر أهـم المقابر جميعا. كما ترك معبده فى أبيدوس، لنتذكر كفاحه من أجل مصر[١].

٢- " الملك رمسيس الثانـى " : أعتلى الملك "رمسيس الثانى"، أو"وسر مـاعت رع سنبن رع" عرش مصر القديمة فى عام ١٢٩٠قبل ميـلاد السـيد المسيح، وفـرض إسمه وشخصيته على التاريخ ورواه المؤرخون، هـو وزوجتـه "الملكـة نفرتـارى"، أى جميلة الجميلات وكان عصره عصر رخاء وثراء عظيمين.

نعم بحكم طويل مستقر، بلغ نحو سبعة وستين عاماً، فى عاصمته الجديدة " بر عمسسو " أى "دار رمسيس"[٢]، حتى وافاه أجله وهو فى التسعين.

جـاهد منـذ البدايـة مـن أجـل اسـتعادة مجـد مصـر الامـبراطورى. فقضـى علـى "شعوب البحر"، وأمن حدود مصر الغربية. وفى العام الرابع من سنين حكمه اتجه نحو الشرق، فأحتـل " مملكة أمورو " فـى الشـام ، ثم بـدأ صـراعـه مــع الحيثيين، معتمـداً على جيش قوامه عشرين ألف مقاتل. وكاد " ملـك الحيثيين" "مواتـالى"، أن ينجـح فـى قتل "رمسـيس الثـانى" فـى كميـن نصبـه لـه خلـف " مدينـــة قـادش ". ولكـن شـجاعة "رمسيس" وحرسه، مكنته من النجاة، وأعقب ذلك إعلان ملـك الحيثيين الـولاء لمصـر وضم "قادش" إلـى الامبراطوريـة المصريـة [٣] . وفـى الأعـوام التاليـة دعـم انتصاراتـه وأعاد الاستقرار إلى الامبراطورية، كما أحل علاقـات الـود والمصاهرة بيـن الطرفيـن، محل الحروب والعداء.

١ عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ٢٤٣ - ٢٤٦، وسيد توفيق، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٤، ص ٢٨٣ ٢٨٥، احمد فخرى، سبق ذكره، ص ٣٣٩ - ٣٤٤.

٢- شيدها " رمسيس الثانى " فى نفس الموقع الذى كانت به " أفاريس " Avaris " "عاصمة الهكسوس " .

٣- تؤكد المصادر الحيثية أنهم الحقوا بالمصريين الهزيمة ولاحقوا الجيش المصرى حتى دمشق. ويجد المؤرخون أنفسهم فى حيرة، أيهما يصدقون أنظر : المرجع السابق ، ص ٢٦١ وما بعدها وكذلك :

Breasted, J.H, the Battle of Kadesh, Chicago, 1903.

رحل " رمسيس الثانى " عن الدنيا، بعد أن ترك " الرمسيسوم"، " وأبو سنبل " وتماثيله العملاقة[١] ، لتؤكد للإنسانية عظمته، ومعجزات البناء التى تركها[٢] [٣].

ولكن السنوات الأخيرة من حكم "رمسيس الثانى"، وكان قد وهن العظم منه وبلغ من العمر عتياً، شهدت بداية تدهور أحوال مصر الداخلية، وتفكك ثم انهيار امبراطوريتها، تحت وطأه هجمات من عرفوا فى التاريخ " بشعوب البحر[٤] ".

ولم يستطع من خلف "رمسيس الثانى"، سواء فى ذلك، "الملك مرنبتاح" أو "بانرع" (١٢٢٤ - ١٢١١ قبل ميلاد السيد المسيح)، أو ملوك الأسرة العشرين، إيقاف هذا التدهور واستعادة هيبة مصر أو امبراطوريتها.

حقاً، لقد حاول "رمسيس الثالث" (١١٨٢ - ١١٥٠ قبل ميلاد السيد المسيح) أن ينقذ مصر من محنتها. وعلى الرغم من أنه حقق قدراً من النجاح، إلا أن المأساة بدأت تتفاقم فى أواخر أيام حكمه، وخلال فترة حكم خلفائه، والذين بلغ عددهم ثمانية وربما أكثر، من "رمسيس الرابع" حتى "رمسيس الحادى عشر"[٥].

وعلى الرغم من أن مصر، فاقت من غفوتها، فى "العصر الصاوى"، إلا أن اليقظة كانت بالغة القصر، وعادت مصر بعدها إلى ما كانت عليه.

وهكذا بدأت شمس الحضارة الفرعونية، تأذن بالمغيب، بعد أن تفاقمت مشكلات ومحن " عصر المتاعب " " Time of troubles " ، على حد تعبير "أرنولد توينبى".

١- بلغ وزن احد تماثيله نحو الف طن، أما معبده الشهير فى أبى سنبل، فقد نحته المصريون بالأزميل فى الصخر.

٢- سيد توفيق، المرجع السابق، ص ٢٨٥ - ٢٩١ ، عبد العزيز صالح، المرجع السابق ذكره، ص ٢٤٧ - ٢٥٤، أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٣٤٤ - ٢٥٦.

٣- فاق "رمسيس الثانى" "امنحوتب الثالث" فى عدد زوجاته ومحظياته، وقيل أنه خلف ٥٩ بنتاًو٧٩ أو مائة ولد. أنظر: عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ٢٤٨.

٤- قبائل هندو-أوربية عاثت فساداً فى المنطقة.

٥- Edeger, W.F. and Wilson , V.A., Historical Records of Ramses 111, Chicago, 1936.

وانقسمت مصر، إلى أقلية مسيطرة تنكرت لمسئوليتها نحو مصر وأبنائها وعجزت عن الخلق والإبداع الحضارى. أقلية، أكتفت بالعيش على أمجاد الغابرين، وأغلبية مطحونة أو "بروليتاريا داخلية"، تنكر على الحاكم المستبد ولائها، وتعيش غريبة فى وطنها، تنتظر الخلاص والمخلص.واكتملت سمات " عصر المتاعب "، بظهور "البروليتاريا الخارجية"، متمثلة فى من عرفوا "بشعوب البحر"، ثم الليبيين وغيرهم، حتى جاء قمبيز غازياً لمصر فى عام ٥٢٥ قبل ميلاد السيد المسيح [١].

١- احمد فخرى، المرجع السابق ذكره، ص ٣٤٤ – ص ٤٤٥، عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ص٢٥٨ – ص٢٧٧ وكذلك :

Gardiner, op. cit. pp 177-315 and Heicht, op - cit -, pp - 131 - 138.

ومن الجدير بالذكر أن مؤلف " جاردنر " ، يعتبر من أفضل المصادر التى تعرضت لدراسة عصر الرعامسة بدقة وبشئ من التفصيل ، خاصة الفصلين التاليين :

The Ramesside Period : (1) The nineteenth Dynasty , pp. 247 - 280

The Ramesside period: (2) the Twentith Dynasty , pp. 251-315.

المبحث الأول

نظام وفلسفة الحكم فى عصر الدولة الحديثة

يتضمن هذا المبحث عرضاً موجزاً لنظام الحكم فى عصر الدولة الحديثة، ثم نتبع ذلك بعرض موجز للملامح الأساسية لفلسفة هذا الحكم.

أولاً : نظام الحكم فى عصر الدولة الحديثة :

كان الملك على قمة السلطة يجمع بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية. إذ كان الملك، كما سنرى فى حينه، المخول بإصدار القوانين نيابة عن الإله، وكان الهدف الأسمى لأى قانون هو العدالة أو الحق . ومع ذلك، فقد كان الملك ملزماً باحترام القوانين التى يصدرها. بعبارة أخرى كانت الملكية ملكية مقيدة .

وعلى الرغم من أن الملك كان رمزاً للعدالة، ولم يكن فى التنظيم القائم فى ذلك العصر، ما يحول دون تصدى الملك للفصل فى القضايا المعروضة عليه. وعلى الرغم من أن محاكم العدالة كانت تستمد سلطاتها بناء على تفويض منه، إلا أن الملك نادراً ما كان يتدخل فى أعمال السلطةالقضائية. بل كان الملك يلزم القضاة بألا يطيعوه، إذا كان فى توجيهاته ما يخالف القانون [1]. وكان الملك يختار من يشغل وظيفة القضاء، من بين الأشخاص المتميزين أولئك الذين يتسمون بالهيبة والكفاءة .

كما كان الملك هو رأس السلطة التنفيذية، يساعده فى القيام بأعمال الدولة، وزير أو أكثر، وكثير من الموظفين .

وفى عصر الدولة الحديثة، كان يوجد وزيرين أحدهمافى طيبة والآخر فى شمال مصر . وكان الوزير يختار من بين كبار رجال الدين أو الجيش، وغير هؤلاء من كبار رجال الدولة، المولعون بمعرفة الحقيقة والبحث عن العدالة .

١- لم يكن فى التشريعات أو التقاليد القائمة ما يحول دون تدخل الملك، لتشكيل محكمة خاصة، للنظر فى بعض الجرائم، مثل الجرائم التى قد ترتكب ضد الملك، أو التى يرتكبها بعض الأمراء ورجال البلاط. ولكن وعلى الرغم من ذلك، لم يكن الملك يحضر المحاكمات، كما كان يلتزم الحياد التام. ومن الأمثلة على ذلك قضية تآمر الملكة وبعض رجال البلاط، لقتل "رمسيس الثالث". أنظر فى ذلك. أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٣٧٧ - ٣٢٨.

ثانياً: فلسفة الحكم فى عصر الدولة الحديثة :

اتسمت الحضارة المصرية القديمة، منذ بداية ظهورها فى العصر الحجرى الحديث، بطابع فريد، هو استقرار الآلهة فى وجدان وفكر أهل هذه العصور، فيمرتبة أسمى وأعلى على الإنسان .

وكان " رع "، فى اعتقاد المصريون، أول ملك إلاهى " Roi Divine ". كما أستقر فى قلوبهم وأذهانهم، أن "الإله رع" قد شيد مصر بنفسه، وان كان قد ساعده فى ذلك الآلهة الآخرون .

وكانت عدالة " الإله رع ". عدالة مثالية كاملة لا يشوبها أى شائبة. كما عرف عن "رع "، أنه كان يحكم بالعدل، وينصف المظلوم، ولا يقبل هدايا أو قرابين من الظالمين أو المستبدين من بنى البشر، سواء كانوا هؤلاء حكاماً أو محكومين.

وكان أول ملك انسانى Roi Divine وفقاً لتقاليد مصر الفرعونية، ابناً لآخر ملك إلهى كما كان وريثه الشرعى[١]، ولهذا كثيراً مالقب الملك " ابن رع " أو " ابن الشمس"[٢].

وكان هذا الإله مصدر القانون، وهو الذى يبيح أفعال الإنسان أويجرمها . كما أنه الذى يحدد العقاب، وإن اختلف العابدون، حول ما إذا كان هذا الإله هو " أمون رع" أو " أوزوريس " إله البعث، أو كان هذا الإله هو " توت " Toth.

وعلى الرغم من انتقال حق العدالة، أو الالتزام بالعدالة من الآلهة إلى الملوك، ثم إلى الأشخاص الذين اختارهم الملوك لتولى مسئولية القضاء، إلا أن الملك كان ملزماً باحترام القوانين، وإن كان هو الذى أصدرها، لأنه أصدرها باسم الإله [٣] .

١- يقال ان أول ملك انتقلت إليه العدالة من " الالهة رع "، كان الملك " منا " Menes .

٢- يظهر ذلك من أسماء غالبية ملوك مصر، ففى عهد الدولة القديمة نجد "خفرع" "ومنكاورع"، وفى عصر الدولة الحديثة، نجد "أحمس الأول" أو "نب - ختى - رع"، "وتحوتمس الأول" أو "عا خبر كارع"، كما كان اسم "حتشبسوت" "ماعت كا رع"،"وتحوتمس الثالث" "من - خبر - رع"، وحتى "حور محب"، آخر من حكم مصر فى فترة الانتقال، التى اعقبت نهاية حكم الاسرة الثامنة عشره، كان يسمى "حسر - خبرو - رع" .

٣- يفسر ذلك البعض،بانه كان نتيجة الشروط التى فرضها حكام الأقاليم، عندما تنازلوا عن سلطاتهم لملك قوى، الأمر الذى أدى إلى توحيد مصر فيما بعد. انظر فى ذلك : الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة، بترى، فلندرز، ترجمة حسن محمد جوهر وعبدالمنعم عبدالحليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥، ص ٣٨ - ٤١.

ويؤكد المؤرخون، بما فى ذلك المؤرخين الأغريق والرومان الذين زاروا مصر قبل أو بعد ميلاد السيد المسيح بوقت قصير، أن المجتمع المصرى لم يعرف قانون الانتقام أو شريعة الغاب. ولم يحكمه ملوك تمتعوا بسلطة الحكم المطلق قط. بل كانت الملكية دائماً ملكية مقيدة [١]، وأن الملك كان يعرف دائماً، أنه لا يمكن أن يخفى الظلم عن أعين " رع "، صاحب الحق الأصيل فى العدالة. ومن ثم كان الملك يراعى حرمة القانون فى كافة تصرفاته، سواء كانت خاصة بأمور الحكم أو بشئون حياته الخاصة. ويقرر "ديودورس الصقلى"[٢]، الذى زار مصر حوالى عام ٥٩ قبل الميلاد، أن ملوك مصر لم يحكموا بلادهم حكماً أوتوقراطياً كغيرهم من حكام الدول الأخرى، كما أنهم لم يحيوا حياة طليقة من كل ضابط أو قيد، إلا فى حالات قليلة.

نخلص مما سبق، أن فكرة العدالة " الماعت "، قد ظلت حية فى وجدان مصر دائماً . وكان القضاة عندما يباشرون أعمالهم، يعلقون على صدورهم تمثالاً يرمز للعدالة[٣]، أى " الماعت ". ويبدو لنا، أن الأساس الدينى للقانون، قد دعم مبدأ العدالة والإنصاف بشكل ملحوظ. وقد تأكد هذا بصفة خاصة منذ العصور التى أعقبت الثورة الاجتماعية، التى أعقبت عصر الدولة القديمة، والتىأعلت من قيمة الفرد وحقوقه. كما أن حق الخلود لم يعد حكراً على الملوك، بل أصبح من حق أى فرد، أن يرنو إلى تحقيق هذه الرغبة الفطرية فى الحياة الأبدية.

وتتضمن الصفحات التالية، بعض النصوص القديمة، التى تؤكد بوضوح، سيطرة فكرة العدالة على التشريعات والقوانين . ويجب ان يكون واضحاً ان النصوص الآتية، قد جاءت كأمثلة، ولم ترد على سبيل الحصر. يقول" بتا حوتب "، أحد حكام الأقاليم فى عهد الأسرة الرابعة :

" العدالة هى أمر عظيم، لا يجب ان يتغير، ويجب ان تكون"

"مكفولة للجميع .. ولم يحدث أى اضطراب فيها منذ عهد "

(١) عبد الرحيم صدقى محمد حسنى، القانون الجنائى عند الفراعنة، سبق ذكره ص١٧-٢١ .

(٢) مؤرخ رومانى، ألف كتاباً من أربعين جزء عن تاريخ العالم، خصص جزء منها لتاريخ مصر.

(٣) كانت العدالة من بين الافكار والقيم الاخلاقية والفلسفية ، التى حظيت بالتقديس والعبادة ، فكان هناك آلهة للنحر وأخرى للجمال . وكانت للعدالة إلاهتها ، التى كانت تسمى " الماعت " عند المصريين ، " وشمس عند البابليين ، " وتميس " عند الاغريق . انظر : عادل بسيونى ، المرجع السابق ، ص ٤٣ .

"أوزوريس " "Osiris " أن أى عقبة فى طريق العدالة، يعنى"
"فتح الطريق أمام العنف... أن حدود العدالة لا تتغير ...ان "
"معانيها تعاليم يتعلمها الابن من أبيه[١]. "

وعندما تولى الحكم الملك " حور محب " صاحب المرسوم الملكى الشهير، أعلن على الناس :

"أن صاحب الجلالة، بعد أن استشار قلبه حول الطريقة التى "
"يعاد بها وضع القوانين، واستئصال الكذب وابعادالاخطاء...ان"
"تصميم صاحب الجلالة الكبير على منع أى اخطاء جزافية أو"
"أى تعسفات تلحق بالمصريين، قصراً كانوا أم بالغين ... ان"
"جلالته يعمل فى كل وقته لتحقيق الخير فى مصر. "

وقد استدعى الملك كاتبه، وأمره بأن يعلن أن :

" صاحب الجلالة مولاى يأمر بأن يبحث الكل عن كل أنواع الظلم"،
"وان يعاقب المذنبون، بعد أن أحس بتفشى الظلم فى أنحاء"
"البلاد...."[٢]

ويتضح من وثائق كثيرة، أن الملوك والوزراء وكبار رجال الدولة، كانوا يفخرون بأنهم يحرصون على تحقيق العدالة . يقول " رخميرع "، الذى كان وزيراً فىعهد "تحوتمس الثالث" :

" ها أنا أتحدث بنفسى، وأعلنها حتى يسمعها أولو الألباب"
"لقد سموت بالعدالة حتى عنان السماء، وجعلت بهاءها يعم"
"الأرض باتساعها، فاستقرت فى خياشيم الناس، كنسمة"
"الشمال، التى تطرد عكوسات البرد ....، وأبيت المنكر ولم

١- انطر فى تفصيل ما ورد بالمتن، عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، المرجع السابق ذكره ، وبنزى، المرجع السابق ذكره، ص ٤١ . وعبد الرحيم صادقي محمد حسني، المرجع السابق، ص٩ - ص ٢١. عادل بسيوني، تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، الشرائع الشرقية القديمة، دار نهضة الشرق القاهرة ١٩٩٧، ص٢٣ - ص١٠٨.

٢- نقلا عن عبدالرحيم صدقي، المرجع السابق ذكره، ص٢٠.

"أقطعه .. وجعلت النمام يلقى على أم رأسه، ولم اضح بحق"
"من أجل مكافأة، ولم أصم اذنى عن صفر اليدين، ولم أقبل"
"رشوة انسان ..."(١).

وعلى نقوش مقبرة " رخميرع " فى طيبة الغربية، سجل المرسوم الملكى الذى أصدره "تحوتمس الثالث" بتكليفه بأعباء الوزارة، وفيه يخاطب الملك وزيره :

" يأبى الرب التحيز، وهذه تعاليم نرجو أن تتبع سبيلها. ثم يضيف "
" الملك : تطلع إلى منصب الوزير هذا وكن يقظاً لكل ما يحدث "
"فيه، فهو عماد الأرض كلها، ولاحظ أنه ليس بالمنصب الهين"
"ولكنه مر المذاق ... وهو لا يعنى (مجرد) تقدير الذات واحترام"
"الرؤساء ورجال البلاط . وليس الغرض منه أن يستعبد الوزير" "أفراد
الشعب... فإذا قصدك شاك من الصعيد أو من الدلتا أو من" "أى بقعة
فى الأرض. فعليك أن تتأكد من أن كل شئ يجرى وفقاً" "للقانون
والعرف. وامنح كل ذى حق حقه ...، ولاحظ أن من يلى" "منصباً كبيراً
يردد الهواء والماء كل ما يفعله، ولا يمكن أن "
"تستمر تصرفاته خافية ..، تصرف وفقاً للعدل، فالمحاباة يمقتها الرب،"
"وإليك نصيحة تخلق بها : عامل من تعرفه كما تعامل من لا تعرفه،"
"وانظر إلى المقرب إليك نظرك إلى البعيد عنك ...، لا تشح بوجهك"
"عن صاحب شكوى، ولا تؤمن سريعاً على صدق من يحادثك ...، لا"
"تغضب على فرد بغير حق واقصر غضبك على من ينبغى الغضب"
"منه . كن مهيباً يهابك الناس . والنبيل هو من يجله الناس وتتأتى"
"مهابته إذا أحق الحق .... ولكنه إذا أخاف الناس وأسرف فى"
"ترويعهم وكانت به نقيصه، نزلوا به "من مصاف الرجال".
" ولسوف تنجح فى تحقيق الهدف من منصبك إذا نصرت الحق. "

١- عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٢١ -٢٢٣.وكذلك "

Gardiner, op. cit., p196.

ويشير " جاردنر " إلى صعوبة التحديد الدقيق لتاريخ كتابة هذا النص ، وإلى احتمال أنه كتب فى عصر الدولة الوسطى .

"فالناس يتوقعون العدل فى كل تصرفات الوزير . وتلك سنة القضــاء "
"منذ حكم الرب علـى الأرض ....،كن عنيفـاً مـع المتكبر، فـالفرعون "
"يفضل من يستحى على من يتكبر..."[١]

ويقول "ديودورس"، الذى أنفرد مـن بين المؤرخين القدامى، بوصف النظـام اليومى لحياة الملك ما يأتى :

" لقد كانت كل سـاعة مـن وقت الملـك مخصصـة لأداء واجبـات شتى "
" والقيام بأعمال مفروضة لا أن ينغمـس فـى المتـع والملـذات ...... "
" وكان طعام الملوك بسيطاً محدود الأصناف وهذا يشير إلـى أنـه كـان "
" لهم نظام خاص فى الغذاء محافظة علـى صحتهم وضمانـاً لسـلامتها "
"التـى تتوقـف عليهـا رفاهيـة البـلاد .... أنـه (أى الملـك) لـم يكـن "
"يستطيع أن يقوم بأى عمل عام أو يدين شخصاً أو يعاقب آخر لمجرد "
"نزعة شخصية، أو لقصد التشفى والانتقام أو لأى دافـع آخـر لا يتفـق "
"وروح العدالة[٢]، ولكن كان مقيد التصرف فى كل حالة وفق ما تنص "
"عليه القوانين، ومــن أجـل ذلـك رأينـا الملوك وقـد راعـــو المسـاواة"
"والعدل فى المعاملة بين رعاياهم، فأكتسبوا من محبتـــهم ما يزيد كثيراً"
"مما يكنونه لأهلهم من حب ".

ويؤكد "بترى"، أن نظرية الحق الألهى للملك كانت مقيدة تقييداً كبـيراً بالنسـبة لملوك مصر[٣].

ويذهب "بترى"، إلى أن حياة الملك الخاصة لم تكن ملكاً له وحده، إذ كان عليـه أن يتصرف فى كل لحظة طبقاً لنظام مرسوم، دون أن يجـد مجـالاً للتحلـل والعبـث كمـا كان يفعل أمثال "ديونيسوس" أو "كاليجولا".

١- نقلا عن المرجع السابق، ص ٢٢٠-٢٢١ .

٢- عندما تآمرت "الملكة امتس" على حياة زوجها الملك "بيبى الأول"، ترك أمر المحاكمة للقضاة و لم يتدخل الملك فى القضية. وقد حدث نفس الشئ عندما تآمرت أحدى زوجات "رمسيس الثالث" على حياته.

٣- أنظر بترى، المرجع السابق الذكر، ص ٩٢- ٩٤ وثروت عكاشة ، المرجع السابق ، ص ٢٥٥-٢٧٢.

المبحث الثانى

أهم سمات عصر الدولة الحديثة

اتسم عصر الدولة الحديثة، والذى أستغرق نحو أربع قرون من الزمان، بسمات تفرد بها عن غيره من العصور التى سبقته. ويمكن أن نجمل تلك السمات فيما يأتى :

أولا : كان عصر الدولة الحديثة عصراً بطوليا ، شهد مولد الامبراطورية المصرية وإعلاء شأنها ودعم بنائها . وكان الفضل الأول فى ذلك "للملك أحمس الأول" "والملك تحوتمس الأول"، "والملك تحوتمس الثالث"، ومن ورائهم سيدات عظيمات ، تفردت بهن الأسرة الثامنة عشر.

لقد قاد هؤلاء مصر، وسار على الدرب خلفهم كل أبنائها، الذين انطلقوا فى عزم واصرار وحيوية، ينفضون عن كاهلها، تراب المذلة التى قاست مرارتها خلال محنة "الهكسوس"، وينشرون نفوذها وسطوتها جنوباً حتى مشارف الخرطوم، وشرقا حتى نهر الفرات، ويرسون دعائم امبراطورية مترامية الأطراف.

انطلقوافى حيوية دافقة، إلى رحاب واسعة، يتاجرون ويتعلمون ويجلبون لمصر خيرات ونفائس الامبراطورية .

ومن المؤسف، أن نفس العصر الذى شهد مولد الامبراطورية واعلاء صرحها، هو نفس العصر الذى كان مقدراً له أن يشهد أيضاً بداية انهيارها، ثم غروب شمسها فى العصور اللاحقة .

لقد خلف الرعيل الأول من عظماء ملوك طيبة، جيل أخر من الملوك ، شغلوا بأمور أخرى غير مصر وامبراطوريتها ، واستكانوا الى الدعة ، قانعين بالعيش على أمجاد الغابرين. شغل أحدهم بزوجاته ومحظياته ونبيذه وجعته ، حتى استنفذت كل قواه. وعندما وافته المنية كان حطاماً بشرياً ، مع أنه لم يكن قد بلغ الخمسين عاما بعد. أما الآخر، ونعنى به "أخناتون"، فقد انصرف عن مصر وامبراطوريتها، واستغرق

فى تأملاته الفلسفية، يتعبد فى محرابــه وينظم أناشيد التوحيد ، فـى حين كـان كهنـة آمون يتربصون للانقضاض عليه وعلى دعوته، كما سنرى فى حينه .

ولم تفلح ثورة الإصلاح القانونى والإدارى، التى أشعلها "حور محب"، ولا الجهود الخارقة التى بذلها "رمسيس الثانى" لإنقاذ الامبراطورية، كما لم تفلح يقظة "العصر الصاوى" فى عهد الأسرة السادسة والعشرين، فى إيقاف عوامل الفناء، التى بدأت تنحر فىجذور شجرة الحضارة، حتى أذنت شمسها بالمغيب، وجاءها قمبيز غازيا فى عام ٥٢٥ قبل الميلاد المجيد .

ثانياً : كما اتسم عصر الدولة الحديثة عموماً ، خاصـة عصر الأسرة الثامنـة عشر، بقدر ملحوظ من الرخاء الاقتصادى ، الذى أدى الى تحسن ملحوظ فـى مستوى معيشة غالبية سكان مصر ، الذين بلغوا نحو ١٢ الى ١٤ مليون نسمة خلال هذه الحقبه من تاريخها[١].

ويؤكد هذا الرخـاء ، الآثـار التى خلفهـا هذا العصر ، مثل المعابد والمقـابر والقصور والبيوت ، سواء فى ذلك بيوت علية القـوم أو عامـة الشعب. إذ يتضـح مـن بعض الدراسات ، أن البيت النمطى فـى "العمارنـة" كـان عبارة عن "فيلا" تحيط بها حديقة، تحفل بأشجار الظل والفاكهة والزهور ، وأحواض مـن المـاء لتربيـة الأسـماك والبط.كما يكفى لمعرفة مدى الرخاء والرقى الحضارى الذى نعمت بـه مصر ، انتشار حب الزهور وتربيتها والتحلى بها وتقديمها كرمز للترحيب بالضيوف[٢].

اما حياة الملوك ، فكانت بذخا صارخاً لم تعرف مصر مثيلا لـه مـن قبل .فقد تطرف بعض ملوك هذا العصر ، فى حب النساء والحلـى والخمور، وحفلت قصورهم بعدد لا يحصـى مـن الزوجـات والمحظيـات المصريـات والميتانيـات والبابليـات والأشوريات.

---

١ - بترى، المرجع السابق، ص ٢٣٢ وكذلك : Badawy, A., op. cit., p - 25 - 28.

٢ - وبترى، المرجع السابق، ص ٢٩٨ ويصف أحد الباحثين المعاصرين هذا العصر بأنه :

" Egypt was to all appearances basking in the glow of a golden age ."

انظر فى ذلك :

Parker, Simon B Texts from the Amarna Period in Egypt , p 2.

ولما كان الناس على دين ملوكهم ، فقد أقبل الشعب على المتعة ، وحفلت "طيبه" بالحانات والمشارب التى تقدم النبيذ والجعه ، كما تقدم الراقصات المحترفات والمغنين الذين يقدمون المتعه لرواد هذه الحانات .

ويبدو أن الكل أصبح يردد النشيد التالى الذى كان القوم يرددونه فى احتفالاتهم:

" احتفل بهذ اليوم السعيد . واستنشق رائحة العطر وزيوته.وضع"
"أكاليل من ازهار اللوتس على ساقى أختك وصدرها. تلك المقيمة فى"
"قلبك. الجالسة بجوارك بين عزف الموسيقى وغناء المنشدين. ولا "
"تهتم بشىء بل اغتنم فرص اللذات قبل أن يجىء اليوم الذى تقترب "
"فيه من الارض التى تالف السكون " .[١]

ثالثاً : كذلك فمن المؤكد أن من أهم السمات التى تميز عصر الدولة الحديثة، تلك الثورة الدينية، التى أشعل نارها "الملك أخناتون"، الذى اعتلى عرش مصر لنحو سبعة عشر عاماً، خلال الفترة من ١٣٦٧ إلى ١٣٥٠ قبل ميلاد السيد المسيح [٢].

لقد ظلت فكرة الوحدانية، تراود عقل وقلب الكثيرين من رواد الفكر فى مصر، منذ أن بدأوا يفكرون فى القوى المجهولة التى تحكم الطبيعة. وعندما بدأوا يفكرون فى مرحلة مبكرة من حضارتهم الحجرية، فى البعث وفى الحياة الأخرى .

كانت وحدة الخالق هى الأساس الذى قام عليه تفسير نشأة الوجود فى مذهبى "كهنة عين شمس" " وكهنة منف ". وإن شاب الفكرة قدراً من الغموض والتناقض. لقد اتفق دعاة المذهبين، على رد نشأة الكون إلى خالق واحد، ولكنهم اختلفوا فى من هو هذا " الخالق ". هل هو "الإله توم" عند أصحاب المذهب الأول، أم هو " الإله بتاح " عند أنصار المذهب الثانى.

١- نقلا عن ولبم نظير . المرجع السابق ، ص ١٧١ .

٢- لم يثر ملكاً فى تاريخ مصر الفرعونية من الخلاف بين المؤرخين المعاصرين، ما آثاره " اخناتون "، حتى بعد وفاته بأكثر من ثلاث آلاف سنة . أنظر فى ذلك :

Parker, Simon, B., Editor, op. cit pp.1-2.

ومع الزمن، ومنذ أواخر عصر الدولة القديمة، وبداية عصر الدولة الوسطى، أخذت فكرة الوحدانية أو التوحيد تخطو إلى الامام . فقد اتجه الجميع إلى" رع " إله الشمس، باعتباره الخالق والأكبر فى آن واحد . وجعلوا إسمه مشتركاً مع أسماء المعبودات الأخرى، " الإله سوبك رع "، " آمون رع "، " تحوتى رع " وبتاح رع ". إن كل هؤلاء إله واحد هو " الإله رع ". وان " رع " هو الذى خلق "تامرى" أى مصر أى الوجود كله. لأن مصر كانت بالنسبة لهم هى الوجود كله، وإن كان "رع" قد خلقها بمساعدة الآلهة الأخرى .

نخلص مما سبق، إلى أن الفكر الدينى، وإن كان قد اتجه منذ نهاية عصر الدولة القديمة، إلى وحدة الخالق، إلا أن هذه الفكرة لم تستطيع أن تتخلص تماماً من فكرة تعدد الآلهة. وعلى الرغم من أن "رع" كان الإله الأوحد والأكبر، إلا أنه قد عجز وحده عن أن يخلق الوجود .

أما الخطوة الحاسمة فى هذا الاتجاه نحو وحدانية الخالق، فقد اقترب منها "اخناتون" إلى حد كبير، عندما أشعل ثورته الدينية فى تل العمارنة [١] .

ويمكن أن نوجز فيما يلى المبادىء الأساسية، التى قامت عليها "دعوة اخناتون" الدينية، والتى تشكل دون أدنى شك، أول إتجاه فى التاريخ الإنسانى نحو التوحيد .

١ – ترتكز ديانة أتون على " فكرة الماعت "، أى ما يمكن ترجمته بالحقيقة أو العدل أو الأصول . فقد طلب "اخناتون" من الناس أن يجعلوا الحقيقة نصب أعينهم، وأن يسموا الأشياء بأسمائها، وأن يبعدوا عن النفاق والمداهنة . [٢]

١- عبدالعزيز صالح، المرجع السابق ص ٣٥٥ - ٣٧١، أحمد فخرى المرجع السابق ص ٣٠٠- ٣٢٩ وثروت عكاشة، المرجع السابق ص ٢٤٨-٢٥٨.

٢-سنرى فيما بعد أن هذا المبدأ كان له أثر كبير على الاتجاهات الفنية التى مثلتها "مدرسة العمارنة"، أو "أختاتون"، أو "مشرق الشمس".

٢- كان "اخناتون" يمقت تصوير الإله، على أى صورة من الصور، سواء كانت إنسانية أو نباتية أو حيوانية، أما قرص الشمس، والذى تبعث أشعته الحياة فى كل الكائنات، فهو رمز للإله الواحد .

٣- كان " أتون الإلـه الواحد، الذى لاشريك لـه. وعلى الرغم من أن هذا الوصف كان يطلق، على عدد غير قليل من الآلهـه، ومنها الإله آمون، الا أن الجديد الذى أتى به "اخناتون"، هو تحريم عبادة أى آلهة أخرى غير" الإله أتون ".

٤- إن " اخناتون "، وحده، " ابن أتون "، الذى كلفه بعبادته. أما بقية البشر فيعرفون " الإله أتون "، من خلال عبادتهم لابنه ورسوله "اخناتون". ولعل هذا المبدأ الأخير، كان العقبة التى حادت "بأخناتون" عن الوصول الى حقيقة الأزل، أى الله الواحد الأحد. كما أنها كانت من أهم الأسباب التى أدت الى عدم استمرار دعوته فيما بعد.

٥- لم تكن الدعوة الدينية التى بشر بها " أخناتون "، دعوة لمصر وحدها، بل كانت دعوة للعالمين . إذ أن " أتون " هو خالق كل شىء .

٦- ولما كانت الشمس بضيائها هى رمز " أتون" ، فمن غير المنطقى أن يعبد فى معابد وفى أبهاء تنتهى بهيكل قليل الضوء . ومن ثمه كانت معابده عبارة عن بهو مفتوح على السماء، حتى ينعم المتعبدون فيه بدفء الشمس ونورها .

أوجزنا فيما سبق، الأسس التى قامت عليها الدعوة الدينية "لأخناتون"، والتى تمثل دون شك ثورة فى الدين، عصفت الى حين بالتقاليد الدينية القديمة، التى ظل "كهنة رع " حفاظاً عليها منذ بداية التاريخ الفرعونى [١].

وعلى الرغم من أن "اخناتون" لم تقوده خطاه، الى وحدانية الخالق فى صورتها الكاملة، إلا أنه أحدث ثورة كان لها آثار بعيدة المدى على الآداب والفنون فى العصور التى أعقبته. كما أنها حفرت بصماته، على تاريخ الإنسانية جمعاء، منذ أن ردد دعوته لأول مرة وحتى يومنا هذا [٢].

١- أنظر لمزيد من التفصيل الدراسة القيمة التى تضمنها الفصل التاسع من مؤلف برستيد، السابق الذكر، ص ٤١٧ - ٤٥٩.

٢- Melikian , Sourn , Revolution in Egypt : Smiling Women and Other Mysteries, Herald Tribune, March 1-2, 1997., Gardiner , op. cit:, especially pp212-245., Pendlebury J.d.s, el -Amarna , London 1935, Sandman , M ,Texts form the time of Akhenaten , Brussels 1938.

أما الثورة الفنية التى واكبت الثورة الدينية والتى تجسدت فى "مدرسة تل العمارنة"، فقد تركت آثاراً لا يمكن أن تنسى فى الفن، فقد دفعته دفعة قوية نحو الواقعية والخيال والحيوية. ومن الأمثلة على ذلك :

١- رأس تمثال "تحتمس الثالث" بالمتحف المصرى بالقاهرة، وهى من الجرانيت الوردى، تضيئ وجهه ابتسامته الخفيفة تقطر سحراً وجمالاً.

٢- تماثيل "الملكة نفرتيتى"، سواء ما هو موجود منها فى متحف برلين، أو تلك التى لم تكتمل رؤوسها والتى يوجد أحدها بالمتحف المصرى .

٣-تمثال "توت عنخ آمون" الخشبى، الذى يعكس ريعان شبابه بشكل لا تصدقه العين. ويوجد هذا التمثال بمتحف القاهرة .

٤- النقوش البارزة على جدران معبد الدير البحرى، والتى تسجل ازدهار التجارة الخارجية فى عهد "الملكة حتشبسوت". لقد تفوق الفنان على نفسه، خاصة فى تسجيل الملامح الذاتية " لملكة بونت " التى ينثنى جسمها، من ثقل ما يحمله من لحم وشحم،كما يظهر إبداع الفنان ومهارته، فى تصوير قصة ولادة "حتشبسوت" من صلب "الإله رع".

لقد وصل الفن فى عصر الدولة الحديثة ذروته الثالثة، خاصة خلال النصف المتأخر من عصر الأسرة الثامنة عشر وأوائل عصر الرعامسة، سواء فى النحت البارز أو الخفيف أو التصوير على الجص. كما بلغ الفن ذروته فيما يعرف "بالفنون الصغيرة"، والمثل الأعلى لها محتويات مقبرة " توت عنخ آمون". ويرى الكثير من الخبراء، أن جمال الخطوط وليونتها التى تميزت بها "مدرسة العمارنة"، لا يدانيها فن آخر فى العالم. فضلاً عن هذا، فإن فنون هذا العصر، تعكس بصورة صارخة مظاهر البذخ والثراء الذى شهده هذا العصر. ويبدو ذلك جليا فى الحلى والأقراط والأساور والعقود.

ويظهر الاتجاه الواقعى الذى سيطر علـى "مدرسـة العمارنـة"، فـى الصـور التـى تظهر "توت عنخ آمون"، ينعم بصحبة أسرته، فى جلسـة طبيعيـة، وابنتـه تجلس علـى الأرض تأكل بطة.

أن من يرى الآثار الفنية لهذا العصر، يشعر شعوراً قوياً أنها ليست غريبة عليه، لأنها أقرب ما يكون إلى ذوق الإنسان المعاصر والقيم الجمالية التى تسيطر على مزاجه الفنى[1] .

رابعا : ولعل من أهم سمات عصر الدولة الحديثة، النفوذ الكبير الذى كان لبعض سيدات الأسرة الثامنة عشر، اللاتى لعبا دوراً فذاً فى بعث روح الوطنية والمقاومة فى هذه العائلة العظيمة، التى كان لها شرف تحرير التراب الوطنى من سطوة الهكسوس، ثم بناء صرح الامبراطورية .

وهذه " كلمة موجزة عن بعضهن " :

١- الملكة " تتى شرى"، جدة " الملك أحمس الأول " التى ظل وفياً لذكراها حتى آخر سنى حياته، وأقام لها أثرا كبير فى " أبيدوس " ووضع به لوحة أبقى عليها الزمن، لتحكى قصة وفاءه لذكراها .

٢- الملكة " إع حوتب"، أى " القمر مطمئن "، أم " الملك أحمس الأول " والتى يبدو أنها لعبت دوراً رئيسيا فى حرب التحرير، وكان لها أثناء حياة إبنها، المقام الأول، إذ كتب عنها فى لوحة الكرنك :

" امدحوا سيدة البلاد، وسيدة جزر البحر الأبيض فاسمها محترم "
"فى جميع البلاد الأجنبيـة، وهى التى تضـع الخطط للنـاس. "
"زوجة ملك وأخت ملك وأم ملك،..هى العظيمة القديرة، التىتهتم "
"وتضطلع بشئون مصر. وهى التى جمعت جيشها وحمت "
"الناس، وأعادت الهاربين. ولمت شتات المهاجرين وهدأت ماحل "
"بالصعيد من خوف، وأخضعت من كان فيه من عصاه، الزوجة "
"الملكية "إعحوتب" لها الحياة".

١- ثروت عكاشة، سبق ذكره، ١٩٩٠، ص٣١٦-٣٣٦.وكذلك كتاب نفس المؤلف عن النحت والتصوير ، وقد سبق ذكره، ص ٧٠٠ - ٧٢٢ . وكذلك : Gardiner, pp. 219-220

٣- " الملكة أحمس نفرتارى"، التى تزوجت من أخيها "كامس"، ثم من أخيها "أحمس الأول"، وظل نفوذها كبيرا حتى عهد الملك "أمنحوتب الأول". ولسبب غير معروف، بدأ المصريون يقدسونها منذ أواخر عهد الاسرة الثامنة عشر وحتى الأسرة العشرين.

٤-"الملكة حتشبسوت"، إبنة الملك "تحوتمس الأول"، والملكة "أحمس نفرتارى". كانت قوية الشكيمة، لا حدود لطموحها. ورثت الصفات القوية الفذة التى اتسمت بها سيدات هذه العائلة. أصرت على حقها المقدس فى "عرش تامرى" وأمرت أنصارها بأن يروجوا لقصة بنوتها من "آمون رع" . حكمت مصر بحزم، وظلت صاحبة الكلمة العليا، حتى قدر "للملك تحوتمس الثالث"، أعظم الملوك العظماء، الانتصار عليها . وعلى الرغم من إصراره على اقتلاع كل أثارها من على أرض مصر، إلا أنه لم يفلح فى جعل تاريخ مصر يكف البصر عنها، وظل معبدها الخالد فى الدير البحرى، يحفظ للإنسانية كل تاريخها [١].

ومن الجدير بالذكر ، أن المرأة ، وان اختلفت عن الرجل ، الا أن كل منهما يكمل الآخر ، وكانت الشرائع والتقاليد السائدة ، منذ فجر التاريخ ، تعامل المرأة والرجل على قدم المساواة ، وتقر للمرأة نفس الحقوق المقررة للرجل . بل ويذهب بعض الدارسين المعاصرين ، إلى أن المرأة الفرعونية ، قد تمتعت بحقوق ، لم تتمتع بها إمرأة فى اى عصر من العصور حتى اليوم [٢].

١- عبدالعزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم، سبق دكره، ص ٢١٧-٢١٨ وص ٢٢٨-٢٢٩ومن الجدير بالذكر أن"جاردنر" أصر على وصف الملكة حتشبسوت " بأنها كانت ديكتاتورة مستبدة . أنظر :
Gardiner , op. cit , pp. 175-188, especially, p .182.

٢ Desroches Noblecourt, christiane, La Femme au Temps des Pharaons, stock / Laurence Pernoud, Paris,1986.

المبحث الثالث

الأحوال الاقتصادية فى عصر الدولة الحديثة

نعرض فى هذا المبحث لموضوعين أساسيين، أولهما النظام الاقتصادى فى عصر الدولة الحديثة، وثانيهما أهم ملامح الأحوال الاقتصادية فى هذا العصر.

أولاً : النظام الاقتصادى فى عصر الدولة الحديثة:

تمتع المواطن العادى، من حيث المبدأ، بكافة الحقوق المدنية كما تمتع بالحرية الاقتصادية بصفة أساسية . حقا، لقد تعرض المواطن البسيط للظلم أحياناً، وتعرض لبعض مظاهر الاستغلال أحياناً، كما عانى كثيراً من الحاجة والعوز وشظف العيش، خاصة خلال فترات الانتقال والتدهور، او عندما كانت البلاد تعانى من أزمات اقتصادية، بسبب قصور النيل أو لأى سبب آخر.

وعلى الرغم من وجود قدر كبير من التفاوت فى الثروة والدخل بين طبقات المجتمع، خاصة فى أواخر عصر الدولة الحديثة، إلا أن هذا التفاوت لم يكن يتبعه تقسيم طبقات المجتمع إلى سادة وعبيد، كما كان عليه الحال فى ظل الحضارات الأخرى، مثل الحضارتين الاغريقية والرومانية[1] ، حيث كانت صفات الحرية والعبودية تكتسب بالميلاد. أما فى مصر، فلم تكن هناك مواقع قانونية أو اجتماعية أو عرقية، تحول بين الانسان العادى ومزاولة النشاط الاقتصادى الذى يرغب فيه، أو تحول بينه وبين الارتقاء إلى أعلى مناصب الدولة، بما فى ذلك اعتلاء عرش مصر[2].

وقد سبق أن رأينا، كيف تأكدت هذه الحقوق فى عهد الدولة الوسطى، بعد الثورة الاجتماعية الدامية التى أنهت عصر الدولة القديمة، وأعلت من قيمة الفرد

١- كان الملك " امنمحات الأول " من أصل نوبى، ويرجح انه اغتصب العرش من الأسرة الحادية عشر، كما سبق أن رأينا.

٢- لم يكن الرقيق سوى عنصر من عناصر الذمة المالية للسيد، الذى كان له أن يتصرف فى عبده كما يشاء، سواء فى ذلك التصرفات القانونية مثل البيع، او غير القانونية، مثل حق ازهاق روح العبد. أنظر فى ذلك: مصطفى السعيد وأحمد رشاد موسى، مقدمة من علم الاقتصاد، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٣، وصوفى أبوطالب، تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، سبق ذكره، ص وعبدالمنعم بدر، تاريخ القانون، القاهرة ١٩٥٠.

وحقوقه. كما سبق أن رأينا، أن الملكية فى مصر الفرعونية، كانت دائماً ملكية مقيدة، وأن الملوك كانوا يراعون كقاعدة عامة، العدالة أو " الماعت " فى حكمهم وما، يصدرونه من قوانين، وفى معاملتهم لرعاياهم .

ولكن ما هى طبيعة النظام الاقتصادى الذى عرفته الدولة الحديثة؟

يبدو لنا أن ذلك النظام، كان أقرب إلى نظام الاقتصاد الحر الموجه، الذى يسمح بحق الدولة، ممثلة فى الملك، فى التدخل على نطاق واسع فى النشاط الاقتصادى، كما يوفر لها بعض الحقوق ويحملها ببعض الالتزامات . ونوضح فيما يلى ما سبق إجماله:

١- كان الملوك، يحتكرون بعض الأنشطة الاقتصادية، التى تمثلت أساساً فى الصناعات الاستخراجية، خاصة مناجم الذهب . كما كان عمال الملك يقومون، بالكثير من الأنشطة الاقتصادية لحسابه الخاص، مثل استغلال الأراضى الزراعية المملوكة له، أو رعاية ثروته الحيوانية، أو القيام ببعض الأنشطة الصناعية مثل صياغة الذهب..... وغير ذلك.

٢ - كانت الدولة ، ممثلة فى شخص الملك، تقوم بالإشراف على الزراعة والرى، وصيانة منشآت الرى، وتحديد مواعيده. فضلاً عن هذا، فإن الدولة كانت تحدد أحياناً المساحة التى يتعين زراعتها ببعض المحاصيل، كما كانت تنظم حق المزارعين من الانتفاع ببعض الاراضى الزراعية .

٣- ضبط وحماية المعاملات والأسواق من الغش، خاصة الغش فى الأوزان والمكاييل.

٤- توفير الاستقرار الضرورى للنشاط الاقتصادى، داخل البلاد وفى كافة أرجاء الامبراطورية .

٥- التدخل احيانا لتقديم بعض المساعدات لمحدودى الدخل أو الفقراء، خاصة فى أوقات الأزمات الاقتصادية .

أما الفرد، فكان من حقه مزاولة النشاط الاقتصادى الذى يروق له، فى نطاق شرائع الدولة وتقاليدها. فكان من حقه مزاولة أى حرفة، أو التوقف عن حرفة كان يباشرها. إذ لم تعرف مصر نظام الطوائف المغلقة، الذى قام عليه النظام الاقتصادى فى أوربا فى العصور الوسطى. كما كان من حقه تملك العقار والمنقول، والتصرف فى ملكه فى حدود القانون. كذلك فإن من المؤكد أن هذا العصر، قد عامل المرأة والرجل على قدم المساواة .

ثانياً : تطور الأحوال الاقتصادية فى عصر الدولة الحديثة :

مكنت سيطرة مصر واتساع نطاق إمبراطوريتها ، من جلب خيرات هذه البلاد التى بدأت تتدفق على خزائنها، حتى فاضت بالذهب والفضة وجميع ما فى العالم من ثروة وفن .

وقد انعكس هذا الثراء والرفاهية وما نعمت به مصر من أمن وسلام بعد بناء الإمبراطورية، فى التحسن الواضح فى مستوى رفاهية الملوك وأبناء الشعب .

ومنذ عصر "أمنحتب الثالث" (١٣٩٧ - ١٣٦٠) كانت حياة الرفاهية والنعيم والمتعة والدعة نمط الحياة فى القصور الملكية، وكذلك حفلات الطرب والرقص التى لم تعد قاصرة على الملوك، بل عمت كافة طبقات الشعب.ويصف أحد المؤرخين هذا العصر فيقول :

" اتجهت الحياة الاجتماعية كلها نحو الدعة والاستمتاع بالحياة، وكانت"
"أسيرات الحرب خير معوان على ذلك ، فلم تقتصر حفلات الطرب "
"والرقص على القصور أو منازل كبار الموظفين، بل شمل ذلك جميع "
"الطبقات، ونشأت فى طيبة مشارب الجعة، وفيها المغنيات والراقصات"
" المحترفات ، وكان العمال وغيرهم من طبقات الشعب يقبلون على"
"هذه المشارب " .

ثم يستطرد المؤرخ ويضيف :

"ولا نستغرب بعد ذلك، أن يعم خطر هذه المشارب، فنقرأ فى بردية من"
"البرديات، تحذير مدرس لتلاميذه من ارتيادها، أى مشارب الجعة، "
"واصفاً لهم ما يجرى فيها من أعمال تنافى الخلق الكريم [١]".

ويؤكد ما وصلت إليه مصر من رخاء وانتعاش خلال عصر الدولة الحديثة، ما تركه هذا العصر من آثار، خاصة القصور وبيوت موظفى الدولة وعامة الشعب والطبقة العاملة. وكان البيت ولو صغيراً لأحد العمال ، يمثل البيت الضرورى لإنسان متحضر. كما تعكس زينته قدراً ملحوظاً من الإحساس بالفن والجمال ورقة الذوق. كذلك من أهم الدلائل، على ارتقاء مستوى الحياة فى هذا العصر، شغف غالبية المصريين بالزهور، وانتشار استخدامها، خاصة فى زينة النساء وللترحيب بالضيوف، الأمر الذى دفع كثيراً من السكان إلى بذل عناية فائقة بتربيتها، كجزء لا يتجزأ من حديقة المنزل. ويبدو ذلك واضحاً فى آثار عصر "توت عنخ آمون" والصور والجداريات التى لاتكاد تخلو واحدة منها من رسم لزهور[٢].

بل ويؤكد أحد الباحثين أن المنزل النمطى للطبقات المتوسطة فى هذا العصر فى العمارنة، كان يتمثل فى "فيلا " تقام على مساحة مستقلة من الأرض، تحيطها بعض المبانى التابعة للتخزين والطبخ ومبنى للمركبة (chorito) ومكان للعبادة (chapel).وكانت "الفيلا " تنقسم عادة إلى ثلاثة أقسام ، قسم لاستقبال الضيوف ومنطقة وسطى للمعيشة وفى خلف الدار حجرات النوم .وكانت تخدم الفيلا غرضين: تنسيق التصميم وسهولة المعيشة والتحرك . modulor and harmonic design system [٣] . وتعكس الزخارف الداخلية وزخارف الوجهات، عناية وتذوق للقيم الجمالية، واكتمال عناصر الهندسة المعمارية.

١- أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٢٩٦-٣٠٠.

٢- Badawy, Alexander, op. cit.,p26.

٣- كان أصحاب المنزل يحصلون على المياه من النيل أو من بئر خاص ، أما نفايات المياه فكان يلقى بها فى الصحراء . أنظر فى ذلك Badawy , op, cit. p.25-28 . بل وتدل بعض الآثار، أن مصر عرفت فى عصر الدولة الوسطى، بعض النظم الأولية للصرف الصحى، للتخلص من مياه الأمطار فى المدن . عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، سبق ذكره ، ص١٨٨-١٨٩.

ولكن هذا الرخاء لم يدوم. ففى أواخر عهد الاسرة الثامنة عشر، بدأ تدهور أحوال مصر الداخلية والخارجية . وعلى الرغم من محاولات " حور محب " إصلاح أحوال البلاد الداخلية ، وعلى الرغم من الجهود العظيمة التى بذلها " رمسيس الثانى " لإصلاح أحوال البلاد واستعادة مجدها الامبراطورى. وعلى الرغم من أن محاولة " رمسيس الثالث " السير على نفس الدرب، قد أسفرت عن بعض النجاح وتحسنت أوضاع البلاد الداخلية كما استعادت نفوذها الخارجى. إلا أن هذا النجاح لم يدم طويلا . إذ عاد التفكك من جديد ، وترددت مصر فى قاع الفوضى والانهيار ، وأخذ الخراب يستشرى فى جذور شجرة الحضارة، وبدأت شمسها تنحدر نحو المغيب، ولم تفلح يقظة ' العصر الصاوى " فى أن تعيد إلى هذه الشجرة جذوة الحياة مرة أخرى ، أو تحول بين مصر ومصيرها المحتوم .

ونعرض فيما يلى لبعض مظاهر التدهور:

١- الصراع من أجل العرش : كان من أهم عوارض وأسباب الانهيار ، بداية الصراع على الملك ، وماتبع ذلك من كثرة المؤامرات داخل البلاط الملكى . وكان من أشهر هذه المؤامرات الملكية المؤامرة التى دبرتها " الملكة تيي"Tiye " أحدى زوجات "رمسيس الثالث" لقتله ، بعد أن تبين أنه أختار لولاية العهد ، أحد أولاد زوجة أخرى . وقد عاون "تيي" بعض كبار موظفى البلاط، كما حاول بعض قضاة التحقيق دفع التهمة عنها[1].

٢- انهيار العدالة وتفشى الفساد بين القضاة : فقدت المحاكم أهميتها فى أواخر عصر الدولة الحديثة، وأستحوذ الكهنة على سلطة الحكم فى المنازعات، تحت ستار الادعاء بأن كل شكوى أو جريمة يجب أن يترك الحكم فيها للإله. فإذا اتهم شخص آخر بالسرقة، كان على كل منهما أن يضع ورقة بها دعواه أمام تمثال الإله فى المعبد للفصل فى الأمر. وكان الكاهن وحده يبلغ أطراف الدعوى حكم الإله .

١-أحمد فخرى، المرجع السابق، ٣٧٧ - ٣٧٨ وكذلك .

Gardiner , op cit ., pp 288-290.

وكان الحكم دائما لصالح الطرف، الأكثر قدرة على إرضاء ورشوة الكاهن. وفى إحدى القضايا الشهيرة التى تؤكد فساد القضاء، أن ثلاثة من القضاة المكلفين بالتحقيق فى مؤامرة اغتيال "رمسيس الثالث"، قضوا الليل مع اثنين من ضباط الشرطة، يعاقرون الخمر مع النساء فى منزل أحد المتهمين . وبعد أن اكتشف تواطؤهم، حولوا إلى المحاكمة وصدرت عليهم الأحكام، فآثر أحد القضاة الانتحار بعد أن سمع الحكم عليه[1].

٣- أزمة اقتصادية كبرى : وكان من أهم مظاهر هذه الأزمة الطاحنة، نقص المعروض من السلع، خاصة الحبوب مثل القمح والشعير، التى شحت فى الأسواق وأخذت أسعارها فى الارتفاع، خاصة فى عهد الأسرة العشرين. فقد ارتفع سعر غرارة القمح من " دبن " واحد من النحاس ، إلى خمسة " دبن " فى عهد "رمسيس التاسع"، أما غرارة الشعير فوصل ثمنها إلى ثمانية " دبن".

ومع ارتفاع الأسعار ، تفاقمت مشكلات صغار الموظفين والعمال ، حتى عز عليهم أن يجدوا ضروريات الحياة، أو ما يسد الرمق. واشتدت محنة العمال، خاصة عمال المعابد والمقابر، بسبب عدم حصولهم على مستحقاتهم، الأمر الذى دفعهم إلى الإضراب عن العمل عدة مرات، فكانوا يتظاهرون وهم يصيحون "نحن جياع". وعندما تدخل "الوزير" "تو" " To " لاعطاء العمال المضربين خمسين غرارة من القمح من مخازن " معبد الرمسيوم "، اعتبر كبير كهنة "رع" تصرف الوزير "جريمة كبرى"[2].

٤- انهيار هيبة الدولة: شهد هذا العصر، اشتداد الخلاف بين حكام الأقاليم، وتمردهم على سلطة الملك. بل لقد بلغ الأمر حد إعلان بعضهم استقلاله عن الملك، كما تجرأ أحد وزراء "رمسيس الثالث" على الثورة على مليكه. وكان مركز الثورة مدينة "أتريب "، أو بنها حالياً.

١- المرجع السابق ، ص ٣٧٨ .

٢- تعرف أحدى البرديات الشهيرة " بردية الاضراب " ، وقد نشرها "جاردنر" فى كتابه :
Gardiner A., Remesside Adminstrative Documents, London 1948 .
وقد ترجمت هذه البردية ترجمات أخرى ، كان منها ترجمة " إدجرتون " Edgerton ,W,f.
التي نشرت فى عام ١٩٥١، أنظر : أحمد فخرى ، المرجع السابق الذكر ، ص ٣٨١-٣٨٣ وكذلك كتاب " جاردنر " الذى سبقت الإشارة إليه ، ص ٢٨٨.

وقد رأينا فيما سبق، كيف فقد الملك الكثير من سلطاته فى أواخر أيام حياته، حتى تجرأت إحدى زوجاته على التآمر عليه بمعاونة رجال بلاطه.

وكان من أوضح مظاهر أنهيار الدولة، تفشى الفساد والرشوة بين موظفيها، وانتشار سرقة مقابر الأفراد ثم مقابر الملوك، حتى أصبحت ترتكب نهاراً، وبعلم بها المسئولين عن حراستها من موظفى الدولة. فقد عرف سارقوا المقابر، كيف يضمنون سكوت هؤلاء المسئولين، عن طريق رشوتهم. وتحفل وثائق هذا العصر، بأخبار هذه السرقات الكبرى للمقابر ولأموال الأفراد، وكيف كان الجار يذبح جاره. باختصار : لقد بلغت هذه الجرائم من التفشي قدراً لم تعرف مصر مثيلاً له من قبل[1].

ومن المؤسف، أن سرقة كنوز المقابر، قد سرقت معها جزء هام من تاريخ مصر.

٥- استحواذ الكهنة على الثروة والسلطة : كان تولى العرش ملوك ضعاف خلال فترة حكم الأسرة العشرين، فرصة ذهبية للكهنة، خاصة " كهنة آمون رع "، للاستحواذ على قدر كبير من الثروة القومية. بل وصل الأمر إلى أن الملوك أنفسهم كانوا يقدمون لهم العطايا لكسب رضائهم، كما سنرى فى حينه. وفى نفس الوقت، زاد نفوذهم السياسى بشكل خطير، حتى أصبحوا يتحكمون فى مقدرات البلاد، واحتكار سلطة الحكم فى القضايا المدنية والجنائية، كما امتد نفوذهم ليشمل تعيين الموظفين وسلطة جمع الضرائب المقررة على المواطنين لصالح الدولة.

ومن أشهر الأمثلة على ذلك، سلطة الكاهن الأكبر "أمنحوتب" فى عهد "رمسيس التاسع ". فقد كان كبير الكهنة فى جميع المعابد المصرية. كما كان فى نفس الوقت المشرف على خزائن الملك وحامل أختامه. كما كان من حقه جباية أموال وضرائب " الإله آمون ". وقد أعتمد " أمنحوتب " فى ذلك على كتبة المعابد وليس موظفى الدولة المختصين بجمع الضرائب. وكانت الإيرادات المتحققة تدخل خزائن المعابد ولا تمر على خزائن الملك.

1- Peet , T.E., The Great Tomb Robberies of The Twentieth Dynasty, Oxford, 1930".: and Gardiner , op. cit ., pp. 298-299

وتدل آثار هذا العصر، أنهم كانوا يظهرون فى الصور علـى قدم المسـاواة مـع الملوك. وإن كانت الوثائق تؤكد أن السلطة الحقيقية كانت فى أيديهم لا فى يد الملـوك خاصة فى جنوب مصر[١].

ووصلت المأساه فصلها الأخير، عندما قفز " الكـاهن حريحـور "، إلـى العرش وأسس الأسرة الحادية والعشرين، أو " أسرة الكهنـة " لأول مـرة فـى تـاريخ مصـر. وكانت هذه الأسرة أسرة دينية لقراراتها صفة القدسية[٢].

٦- كثرة الأجانب فى البلاد : رأينا فيما سبق، كيف ترتب على تقوية العلاقـات بين ملوك الحقبة المتأخرة من عهد الأسرة الثامنة عشر وحكام غرب آسيا، بداية جلب الأجانب، إلى مصر للمساهمة فـى تطويـر الحـرف والصناعـات المصرية. ومـع تعمـق الصلات بين مصر وهذه المنطقة ازدادت هجرة الأسيويين إلى مصر.

وخلال عهد الأسرة العشرين،كثر عدد الأجـانب فـى وظـائف البـلاط، كمـا أشـتد نفوذهم كما أخذ الملوك الضعاف، بعد ان تدهورت الثقة بينهم وبين أبنـاء الشـعب، فـى الاستعانة بالجنود المرتزقة لحمايتهم ضد أبناء البلاد. بل لقد وصل نفـوذ الأجـانب فـى هذا العصر، أن حاول أحدهم وهو " إرسو " السورى الأصل، اغتصاب عرش مصر[٣].

وفى نفس الوقت الذى شهد تسرب الوهن إلى أوصال مصر، كانت بـلاد آشـور وبابل وفارس تقوى، وتحاول أن تنتزع من مصر السيادة على الشرق الأدنـى وتجـارة البحر المتوسط. كما استطاع الدوريـون والآخيـون الاسـتيلاء علـى جـزر كريت وبحـر إيجه، وأصبحت قوافل التجارة فى الشـرق الأدنـى عرضـه لهجمات اللصـوص وقطـاع الطرق.

وقد اختلف المؤرخون فـى تحديـد أسـباب الانهيـار. ويـرى البعض أن تعـرض البلاد لغزوات " شعوب البحر "، وهم قبائل هنود أوربية عاثت فى كـل أرجـاء المنطقـة فساداً، وحاولت أكثر من مرة غزو مصر.

---

١ - أحمد فخرى، المرجع السابق، ص٣٨١-٣٨٤وكذلك: Gardiner,op . cit ., p .299.

٢ - ثروت عكاشة، الفن المصرى القديم، الجزء الأول، ص١٧٢.

٣ - أحمد فخرى، المرجع السابق، ص٣٦٩.

ولكننا نرفض هذا الرأى. لأن هذه الغزوات، أو ظهور هذه "البروليتاريا الخارجية" على مسرح الأحداث ومحاولتها انتهاك قدسية أراضى مصر، إنما كان نتيجة لتدهور مصر داخلياً وتقلص نفوذها خارجياً، ولم تكن سبباً لهذا التدهور.

ونعتقد أن السبب الأساسى لتردى أحوال مصر، إنما يرجع إلى تولى العرش فى أواخر عهد الأسرة الثامنة عشر، ملوك شغلوا بأمور أخرى، غير مصر وامبراطوريتها وشعبها. أنغمس أحدهم فى ملذاته وحريمه وخمره، والآخر فى فلسفته ودعوته وأناشيده التى تمجد " أتون "، كما سبق أن رأينا ، ملوكا أكتفوا بأن يعيشوا عالة على مجد الغابرين من أبائهم وأجدادهم، يسرفون فى العطايا والهبات وتبديد ثروات البلاد، ونسوا أو تناسوا مسئولية الخلق والإبداع، كما تناسوا أو نسوا مسئوليتهم نحو رعاياهم.

وهكذا بدأ أبناء مصر، بعد أن أخذ الفقر والظلم يطحنان أوصالهم، يعتزلون الأقلية المسيطرة، بعد أن شعروا أنهم غرباء فى وطنهم. وهكذا انهارت الثقة بين الأقلية المسيطرة والأغلبية المغلوبة على أمرها. وبدأت الأقلية، ممثلة فى الجالسين على العرش، يستعينون بالجنود المرتزقة، لكى يوفروا لهم الحماية من أى أعتداء محتمل للغالبية التى بدأ يصعب عليها أن تجد ما يسد الرمق.

ومع ظهور مجموعة من الملوك الضعاف على مسرح الأحداث، فى عهد الأسرة التاسعة عشر والأسرة العشرين، ا
زدادت الأحوال تدهوراً، وعمت الفوضى البلاد، وانهار صرح الامبراطورية، وأخذت المأساة تسرع الخطى نحو قمتها.

المبحث الرابع

الزراعة والثروة الحيوانية والسمكية

كانت الزراعة، بمفهومها الواسع، أى الإنتاج الزراعى والحيوانى والثروة السمكية، أهم عناصر الثروة القومية والمصدر الأساسى للدخل القومى، كما كانت المورد الأساسى، إن لم يكن الوحيد، لغذاء السكان. كما كانت الزراعة توفر فرص العمل لغالبية سكان مصر فى هذا العصر .

ونتيجة لما سبق، كانت الزراعة تحظى برعاية واهتمام ملوك مصر، كما كانت تخضع لتوجيه واشراف الدولة. فكان من بين موظفيها، المشرفون على صوامع الغلال ومحاصيل الأقاليم، والمشرفون على الثروة الحيوانية، والمشرفون على مصايد الأسماك وعلى قطعان الماعز والغزلان والحمير.

فضلاً عما سبق، اهتمت الدولة اهتماماً بالغاً بالنيل إلى حد التقديس، كما كانت تبذل جهوداً رائعة، لتنمية وتطوير وصيانة مشروعات الرى. فقد كان النيل مصدر الخير كما كان مصدر الشر، وكثيراً ما ترتب على الفيضانات العالية أو قصور النيل، اصابة البلاد بالفقر، وقد يصل الأمر إلى حد القحط والمجاعة، كما حدث مثلا فى عهد "سنفرو" أحد ملوك الدولة القديمة [١].

ولهذا، كانت الدولة تفرض عقوبات صارمة، على كل من يتسبب، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فى الإضرار بمنشآت الرى، أو يتعدى على حرمة النهر المقدس[٢] .

وقد شهد عصر الدولة الحديثة بصفة خاصة، ظهور ملوك حرصوا على تنمية الزراعة وتنويع الحاصلات الزراعية، من خلال جلب النباتات والحيوانات والطيور التى لم تكن معروفة فى مصر، من البلاد المجاورة. وهذه بعض الأمثلة :

---

١ - أنظر الفصل الخاص بمصر الدولة القديمة من هذه الدراسة

٢- يتضح من بعض الوثائق أن الدولة قامت بجلد رجل على قدميه، لأنه سرق من المخازن الحكومية بعض الأخشاب والحبال، التى كانت ضرورية للقيام بأعمال صيانة وحفظ جسور بعض قنوات الرى. أنظر : بترى، المرجع السابق، ص ٦٤-٦٥.

أولاً : "الملكة حتشبسوت" : قادت هذه الملكة بعثة تجارية إلى بلاد "بنت"، فى السنة التاسعة من حكمها حوالى عـام ١٥٠٤ قبل الميلاد. وكـانت الملكـة تهدف إلـى إقامة علاقات متعددة مع هذا الإقليم، وكـانت البعثـة مكونـة من خمس سفن شراعية كبرى، اتجهت من طيبة شمالاً فى النيل، حتى إذا ما بلغت وادى" طميلات "، سارت فى قناة تخترق البحيرات المرة، حتى وصلت إلـى البحر الأحمر، ومنـه اتجه الأسطول جنوبياً إلى بلاد "بنت".

وقد عاد الاسطول محملاً بكثير من المنتجات الزراعية النـادرة وغيرهـا، مثل أشجار الكندر والعطور والمر والأبانوس والقرفـة والعـاج والكحل والبلسم والراتنـج والتوتيـة الزرقـاء للتكحل. هذا بالإضافة إلـى الذهب والفضة والـلازورد والفـيروز والأصداف والعاج والكحل، ومجموعة من الكلاب والزراف والقردة.

وقد جلبت هذه البعثة بعض الحيوانات النـادرة، ومنهـا الثـيران والـزراف والفهود والكلاب والقردة والنسانيس، وكذلك بعض جلود الحيوانات.

وقد اتضح من بعض الوثائق، أن الملكة قد أمرت فعلاً بزراعة بعض الأشجار العطرية التى جلبتها، أمام معبدها بالدير البحرى [١].

ثانياً : "تحتمس الثالث" : أبدى اهتماماً شديداً بالزراعة المصرية. وكـان يـأمر رجاله المنتشرين فى أرجاء امبراطوريته الواسعة، بجلب النباتات إلى مصر وكان من بينها الرمان والعنب، وكثيراً من الأزهار، مثل اللوتس الأزرق والزنبق، أو السوسن الأبيض، والعنبر والأقحوان والياسمين. كما جلب بعـض الحيوانـات مثـل الثـيران والخيول والأغنام الآسيوية، كما جلب إلى مصر بعض الطيور ومنها الدجاج.

كما أقام تحوتمس الثالث "حجرة للنباتات"، فى إحدى قاعات بهو الأعمدة بمعبد الكرنك بالأقصر. وتدل النقوش والصـور التـى سجلت لهذه النباتـات، اتسامها بدرجة عالية من الدقـة والروعـة، بحيث أصبحت مرجعاً هاماً لعلماء النباتـات والحيـوان المعاصرين [٢].

١- أنظر فيما سبق، وليم نظير، المرجع السابق، ص ٢٩٦- ص ٢٩٧. وتوجد رسومات لما جلبته "حتشبسوت" على السطح الأول لمعبد "الدير البحرى"، أنظر : عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

٢- وليم نظير، المرجع السابق ذكره، ص ٢٩٦ - ص ٢٩٧ .

ثالثاً : "الملك سيتى الأول" : أصدر مرسوماً ملكياً بتوقيع عقاب شديد على كل من يسلب راعياً ويتسبب فى فقد أو هلاك ماشيته، وبضرورة تعويضه عن الماشية المفقودة. كما توعد الراعى السارق بالهلاك على الخازوق واسترقاق زوجته وأولاده. كما توعد من يشترى الماشية المسروقة برد مائة مثلها. كما فرض عقوبات صارمة وعنيفة على المعتدين على حرمة أملاك المعابد ومراعيها[1].

كما اهتم ملوك هذا العصر اهتماماً بالغاً بالثروة الحيوانية والداجنة، وكذلك الثروة السمكية، وكانوا أول شعوب الأرض الذين استأنسوا النحل لإنتاج العسل كما يتضح فيما بعد.

١- الثروة الحيوانية والداجنة والثروة السمكية:

عرف المصريون عبر تاريخهم الطويل، بحبهم الشديد الطيور والرفق بالحيوان. فكانوا يطعمونها بأيديهم، بما فى ذلك التماسيح، والتى كانوا يعتبرونها من الحيوانات المقدسة. ويؤكد ذلك الكثير من وثائق العصر التى تبين فى وضوح تام، مدى اهتمام الملوك والأفراد بالثروة الحيوانية والداجنة. ومن الطيور التى عرفوها البط والوز والدجاج والحمام.

وكان المصريون أول من عرف التفريخ الصناعى للبيض، إذ لم يكن معروفاً فى البلاد الأخرى. وكانوا يعدون للفراخ حظائر مصنوعة من الفخار، ذات أبواب لوقايتها من غائلة البرد ومن الثعالب وغيرها أثناء الليل. ومن الغريب، أن الكثير من المصريين، ظلوا محافظين على معامل التفريخ فى الريف حتى الوقت الحاضر، دون أن يطرأ عليها تغيير يذكر على الرغم من مرور آلاف السنين[2].

فضلاً عما سبق، فقد اعتنى المصريون بالثروة السمكية، وكان يقوم بالصيد صيادون محترفون، يزاولون الصيد فى النيل والبحرين الأبيض والأحمر وبعض البحيرات الداخلية.

١- عبد العزيز صالح، المرجع السابق ذكره، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

٢- بترى، المرجع السابق، ص ٢٥٤

وكانت حصيلة صيد الأسماك، تمثل مصدر أساسى من مصادر الغذاء فى مصر فى تلك العصور، خاصة بالنسبة للطبقات الفقيرة. وتدل بعض الوثائق التى ترجع إلى هذا العصر، على وفرة السمك واسهامه بنسبة كبيرة فى غذاء المصريين، كما كانوا يكثرون من أكله فى الاحتفالات(١). ومن الغريب، أن السمك كان محرماً على رجال الدين، لسبب غير معروف.(٢)

٢- عسل النحل :

كانت النحلة من أوائل الحشرات التى نجح الإنسان فى استئناسها والاستفادة منها، وذلك فى عصور ما قبل التاريخ قبل أن يعرف كيف يدون تاريخه ويسجل أحداثه. وقد حدث هذا لأول مرة على أرض مصر. وكان الفراعنة يعتبرون العسل غذاءً مقدساً يقدمونه قرباناً للآلهة ، كما كانوا يداوون به المرضى ويستخدمون شمع العسل فى إنارة المعابد وتحنيط الموتى. كما كانت النحالة علماً يدرس فى المعابد، ويدرسه الكهنة، حتى يعرفون كيف يمكن الاستفادة منه فى الطب والتشريح.

وقد استمرت حياة النحل سراً مقدساً، يتداوله أحفاد الفراعنة من أقباط مصر، جيلاً بعد جيل حتى عهد قريب، وإليهم يرجع الفضل فى استمرار تربية النحل ثم انتشارها بين جميع شعوب الأرض .

إذ تدل النقوش المنحوتة على جدران معبد " أسر رع " بأبى صير، على أن المصريين القدماء قد قطعوا شوطاً كبيراً فى هذا السبيل. فكانوا من بين البشر، أول من أسكن النحل مساكن من صنع الإنسان، صنعوها من القش والطين ، على هيئة أسطوانات تشبه جزوع الشجر، يضعونها فوق بعضها فى شكل هرمى. ومن الغريب أن هذه المساكن لازالت مستعملة فى تربية النحل فى ريف مصر حتى يومنا هذا (٣).

١- ففى أحد الاحتفالات، قدم نحو ستة آلاف سمكة لنحو عشرة آلاف شخص، من الذين حضروا فى اليوم الأول من أيام الاحتفال، هذا بالإضافة إلى ما قدم بعد ذلك، للمدعوين الذين حضروا فى أيام الاحتفال التالية. ويتضح من نفس الوثيقة، أن مقدار مساو فى الوزن من لحوم الدواجن والطيور قدم لنفس المدعوين.

٢- بترى، المرجع السابق، ص ٢٥٤.

٣- وهى التى تعرف الآن بالخلايا البلدية .

كما يستفاد من النقوش القديمة ، أن قدماء المصريين ، قد توصلوا إلى طرق فنية متقدمة فى إنتاج العسل وجنيه وتنقيته . ومن الأمور التى تدعو للعجب ، أنهم عرفوا ما يسمى " بالنحالة المرتجلة "، وهى أحدث الطرق الفنية المعاصرة لاستغلال المناحل . إذ كانوا يضعون خلايا النحل فوق السفن على هيئة هرم، ثم تبدأ السفن بعد ذلك رحلة طويلة من أعالى الصعيد، حيث يبدأ موسم تزهير النباتات مبكراً. ثم تقف السفن فى محطات محددة لمدة كافية، يقوم النحل بجمع الرحيق من الأزهار فى المنطقة التى ترسو فيها السفينة، بعد ذلك تتجه السفينة ببطء شمالاً، حتى تصل إلى مدينة "منف"، وعندئذ تكون الخلايا قد فاضت بالعسل فى موسم الفيض. وفى " منف " يقوم النحالون بقطف العسل من الخلايا وبيعه فى أسواق المدينة . ثم يتجهون شمالاً فى النيل ، ليجمعوا العسل من مناطق الدلتا بنفس الطريقة حيث يبدأ موسم التزهير متأخراً، ثم يعودون مرة أخرى إلى " منف " بعد أن يكونوا قد جمعوا عسل الدلتا ليبيعونه فى أسواق المدينة، ثم يعودون بعد ذلك من حيث أتو[١].

هذه الرحلة العجيبة تدل دلالة قاطعة على معرفة عالية، بالكثير مما يعرفه الإنسان المعاصر عن عالم النحل .

هذا، ونعرض فيما يلى لبعض النظم الخاصة بالزراعة فى عصر الدولة الحديثة :

أولاً : ملكية الأراضى الزراعية.

تؤكد وثائق هذا العصر، أن الملكية الفردية كانت ركيزة الاستغلال الزراعى وان تعددت أنواعها. فإلى جانب ملكية الملوك للأراضى الزراعية، وجدت الأوقاف الدينية الخاصة بالمعابد والمقابر[٢]. كما وجدت ملكية الأسرة وملكية الأفراد، سواء كانوا رجالاً أو نساء[٣].

---

١ - أنظر لمزيد من التفصيل. مجلس الشورى، لجنة الشئون المالية والاقتصادية، حفظ وصيانة وتنمية الثروة الزراعية فى مصر، القاهرة١٩٩٧.

٢ - صدر مرسوم ملكى فى عهد الملك "أمنحوتب الثالث" يفهم منه وقف بعض الأراضى لمعبد ملحق بمقبرة" امنحوتب ابن حابو" وزير الاشغال العامة والكاتب الأعلى للجيش، وأحد حكماء هذا العصر. ومن هذا يتضح أن عطايا وهبات الملوك، لم تكن قاصرة على معابد ومقابر الآلهة، بل شملت أيضاً هبات وعطايا لمقابر بعض كبار رجال الدولة.

٣ - تشير بعض الوثائق انه كان من حق المرأة، استغلال الأراضى الزراعية والتقاضى بنفسها أو من ينوب عنها، بشرط أن تكون من بين الورثة، وان يوافق بقية الورثة على ذلك

ومن الجدير بالذكر أن ملكية الملوك للأرض الزراعية أو غيرها من عناصر الثروة، إنما كانت ملكية خاصة، ولم تكن ملكية عامة للدولة. إذ لم يكن هناك فصل بين شخصية الملك والدولة كشخصية معنوية، بل كان الملك هو الدولة. ولذا لم تكن ملكية الملوك فى تلك العصور، تختلف عن الملكية الخاصة للملوك فى العصر الذى نعيشه.

ثانياً : نمط توزيع الثروة القومية، خاصة الثروة العقارية:

يتضح من وثائق عصر الدولة الحديثة، أن الشطر الأعظم من الأراضى الزراعية خاصة الأراضى الزراعية الخصبة، كانت ملكاً خاصاً لفراعنة مصر. فضلاً عن هذا فقد استأثر كهنة المعابد، وبصفة خاصة، كهنة معبد " آمون رع "، وكبار رجال الدولة وحكام الأقاليم ورجال الجيش، بنسبة كبيرة من الأراضى الزراعية، اما نصيب الأفراد من عامة الشعب فى ملكية الأراضى الزراعية فكان محدوداً.

وعلى الرغم من أن الأوقاف الدينية فى مصر الفرعونية، ترجع إلى عهود موغلة فى القدم، إلا أن ملوك الدولة الحديثة وبصفة خاصة ملوك الفترة المتأخرة من هذا العصر، قد أسرفوا فى هباتهم، وعطاياهم لكبار رجال الدين، على أمل كسب ولاءهم[١]. كذلك شملت الهبات والعطايا رجال الجيش، الذين تمتعوا بمنزلة رفيعة فى هذا العصر، نظراً لما بذلوه من جهد وما اقدموا عليه من تضحيات، من أجل اعلاء صرح الإمبراطورية المصرية. لهذا حرص ملوك هذا العصر، خاصة الملوك الذين أتسموا بنزعتهم العسكرية، مثل الملك " تحتومس الثالث "، وبعض الرعامسة، مثل الملك "رمسيس الثانى"، على أن يكفلوا لرجال الجيش كرامة العيش وكرامة المظهر. ومن الجدير بالذكر أن عدد رجال الجيش قد بلغوا نحو ٦٥٠ الف جندى فى عهد الملك "رمسيس الثانى "[٢].

١- وتأكيداً لحرص بعض الملوك على ارضاء كبار رجال الدولة لكسب ولائهم، وسواء كانوا من رجال الدين أو من الموظفين، حضر " الملك امنحوتب الثالث " اعلان وقفه بعض الاراضى لمعبد ملحق بمقبرة " امنحوتب ابن حابو "، الذى كان أحد علية القوم فى عصره.

٢- وقد استنتج بترى من هذا، أن عدد سكان مصر قد بلغوا فى ذلك العصر نحو ١٢ مليون نسمة. أنظر بترى، المرجع السابق ذكره، ص ٤٧-٤٨.

ولكى يتضح مدى الاختلال الحاد فى توزيع عناصر الثروة القومية، بين فئات المجتمع المختلفة فى هذا العصر، نعرض فيما يلى بعض المعلومات المتاحة عن عناصر الثروة المخصصة للأوقاف الدينية، وبعبارة أخرى للكهنة :

١- بلغت الأراضى الزراعية المخصصة للأوقاف الدينية نحو ١٢-١٥٪ من جملة الأراضى الزراعية فى مصر فى ذلك العهد. وبلغ عدد القائمين على استغلالها من العامة والأرقاء نحو ٣٠٧٦١٥ عاملاً. وتدل بعض وثائق العصر على أن الملوك كانوا يحرمون على موظفيهم، الاستعانة بالعاملين فى الأوقاف الدينية، فى أى أعمال تخص موظف الدولة، أو حتى فى أعمال خاصة بالقصور الملكية. وبالإضافة لهذه الأراضى الزراعية، شملت الأوقاف الدينية الكثير من الحدائق فى كافة الانحاء ، بما فى ذلك الواحات المصرية.

٢- بلغ دخل معابد مصر فى ذلك العصر نحو مائة الف مكيال من الغلال، كما استأثرت المعابد بخيرات ١٦٩ بلداً فى مصر، وخارج حدودها.

٣- يتضح من بردية "هاريس"، وهى من أهم وثائق عهد الملك "رمسيس الثالث"، أن نصيب "معابد الاله آمون رع" فى طيبة وحدها من المعادن النفيسة وغيرها، بلغ ما يعادل ٦٢ كيلو جرام من الذهب ونحو ١١٨٩ كيلو جرام من الفضة، ونحو ٢٨٥٥ كيلو جرام من النحاس[1].

٤- قدرت الثروة الحيوانية الخاصة بمعابد "الأله آمون رع" بنحو ٤٢١٣٦٢ رأساً من الماشية، وكان من بين هذا العدد نحو ٢٨٣٣٧ رأساً أهداها الملك "رمسيس الثالث" للكهنة دفعة واحدة.

٥- كانت المعابد تملك أيضاً نحو ٨٨ سفينة ونحو ٥٠ ترسانة لاصلاح وصناعة السفن.

---

١ - ذكرت بعض المصادر أن الملك "رمسيس الثانى"، اعطى "معابد آمون" نحو ١٨٥ ألف "غرارة" من الحبوب، ونحو ٣٢ ألف كيلو جرام من الذهب ومليون كيلو جرام من الفضة. أنظر فى ذلك، ثروت عكاشة، المرجع السابق ذكره، ص ١٧٣. ويذكر هذا المؤلف أنه اعتمد فى هذه البيانات على ما ورد فى بردية "هاريس".

بالاضافة إلى ما سبق، فكثيراً ما منح ملوك هذا العصر المعابد والمقابر الكثير من الأرقاء من أسرى الحرب، لكى يعملوا فى الحقول والمناجم والمحاجر المملوكة لهم. وكثيراً ما كان الملوك، يعفون الاوقاف الدينية، خاصة أملاك معابد الآلهة من الضرائب.

هذا ويجب ملاحظة ما يأتى :

١- أن ما سبق لا يمثل حصراً شاملاً دقيقاً لملكية كافة المعابد والمقابر فى ذلك العصر، إنما يذهب بصفة اساسية على املاك كهنة " الإله آمون رع" دون غيره من الآلهة.

٢- لم يكن الأمر فى ذلك العصر قاصراً على هبات الملوك للمعابد، اذ كان افراد الشعب وخاصة علية القوم يخصصون الأراضى الزراعية وبعض الحيوانات وبعض العمال أو الأرقاء لخدمة المعابد او لتقديم القرابين[١].

ومن بين الملوك الذين اسرفوا بشكل ملحوظ فى عطاياهم للكهنة، رغبة فى كسب ولائهم للعرش، الملك "رمسيس الثالث". ففى عهده حظى كهنة "آمون رع" بالنصيب الاكبر من غنائم الحرب ومن الخراج والاسرى. وقدرت مساحة الاراضى الزراعية المخصصة للأوقاف الدينية فى عهده، بنحو ٧٥٠ ألف فدان، كما بلغت ثروتهم الحيوانية نحو نصف مليون رأساً من الماشية، بالاضافة إلى بعض عناصر الثروة الأخرى مثل الغلال والمعادن النفيسة التى كانوا يحصلون عليها[٢].

وكان من أهم النتائج التى ترتبت على الاسراف فى الهبات و العطايا لكبار كهنة المعابد، ما يأتى :

١- تضخم ثروة الكهنة واستئثارهم بنسبة كبيرة من الثروة القومية والدخل القومى. ونظراً لما كان يتمتعون به من مزايا عديدة، عمد بعض فراعنة العصور

١- يرى بعض المؤرخين أن هبات الملوك والامراء للأغراض الدينية، إنما كانت تصب اساساً على ما يعرف بالأراضى "الشراقى" أو تلك التى تتطلب الاستصلاح، الأمر الذى نجح فى استصلاح الاراضى وتوسيع الرقعة المعمورة وتوفير المربد. انظر فى ذلك بترى، المرجع السابق، ص

٢- أنظر لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع: احمد فخرى المرجع السابق ذكره، ص ٣٧٦، ص ٣٧٨، وعبد العزيز صالح، الشرق الادنى القديم، المرجع السابق الذكر، ص ٣٥٦ وبترى، المرجع السابق، ص ٤٦-٤٨ وحاشية رقم (١) ص ٤٨.

المتأخرة، إلى ربط ابنائهم بالمعابد أو تعيين ابناءهم رؤساء لكهنة "الإله أمون"، وتعيين بعض الأميرات فى منصب كبيرات الكاهنات للتبتل فى معابد " آمون رع ".

٢- اقتران هذا الثراء، باطراد زيادة نفوذ الكهنة، حتى اصبحوا فى حقيقة الأمر المصدر الحقيقى للسلطة، خاصة فى أواخر عهد هذه الدولة[١]. ومن المؤكد أن ثروات الكهنة قد تراكمت عبر احقاب طويلة، ولم تكن فى حقيقة الامر نتيجة عطايا أو هبات ملوك عصر الدولة الحديثة وحدهم. وفى نهاية الأمر لم يعد فى وسع الفراعنة الانتقاص من هذه الثروة أو من هذا النفوذ.

٣- استنزفت هذه العطايا والهبات موارد الدولة، حتى أصبحت خزائن ملوك الفترة المتأخرة من عصر الدولة الحديثة شبه خاوية، الأمر الذى أدى إلى مزيد من التدهور فى سلطة ونفوذ هؤلاء الملوك.

وفى الوقت الذى تضخمت فيه ثروات ونفوذ علية القوم، كانت الطبقة العاملة لا تستطيع الحصول على ما يكفل لهم حياة كريمة. بل لقد بلغ الأمر حد عجزهم عن الحصول على ضروريات الحياة، عندما تفاقمت أزمة مصر الاقتصادية فى أواخر عصر الدولة الحديثة[٢].

ثالثاً: حماية الملكية الفردية :

يتضح من كثير من الوثائق، أن الدولة كانت حريصة كل الحرص على توثيق التصرفات الناقلة للملكية أمام موظف مختص. كما كان من الضرورى تسجيلها بمكتب تسجيل الوثائق. فضلاً عن هذا، كان لابد من اثبات هذه التصرفات، فى سجلات إدارة المساحة، حتى يمكن إثبات الملكية وللرجوع إليها عند الاقتضاء، أى عند التنازع على العقار أمام القضاء.

بالإضافة إلى ما سبق، فغالباً ما كانت تشهر التصرفات العقارية، على لوحات حجرية، توضع على حدود العقار.

١- انظر فى ذلك، جاردنر، بردية "الاضراب" التى سبقت الاشارة إليها.

٢- أدى تدهور احوال مصر الاقتصادية، خلال الفترة المتأخرة من عصر الدولة الحديثة إلى أنهيار هيبة الملوك، ووصل الأمر حد قيام أحد وزراء "الملك رمسيس الثالث" بثورة ضد مليكه، وكان مركز الثروة مدينة "أتريب"، حالياً "بنها"، كما كثرت فى هذا العصر مؤامرات رجال القصر بهدف قتل الملك نفسه، انظر، بيرى المرجع السابق ذكره، ص ٦٧-٦٨ وعبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، سبق ذكره، ص ٢٦٧-٢٦٨.

كما كان هناك سجلات للضرائب فى إدارات بيت المال، يرجع إليها فى متابعة التصرفات المتعلقة بالعقارات. كما كان يستشهد بهذه السجلات فى إثبات الملكية.

ويبدو أن الدولة، قد اعتادت تحصيل بعض الرسوم على إجراءات نقل الملكية منذ عصر الدولة الوسطى، وفى عصر الدولة الحديثة.

وتحقيقاً لاستقرار الملكية الزراعية، كان طول البقاء على الأرض وسداد المستحق عليها، يعتبران من شواهد ملكيتها. أى أن القانون المصرى القديم قد أقر مبدأ تملك الأرض بوضع اليد أوالتقادم.

ومن الجدير بالذكر أن القانون كان يفرض عقوبات صارمة على الكتبة العموميين، الذين يزورون مستندات، أو يضيفون أو يلغون بعض البنود فى مستندات التصرفات التى يقومون بتحريرها أو بتوثيقها. وكان العقاب فى هذه الحالة هو قطع يد مرتكب الجريمة [١] .

ويتضح من الوثائق التالية، الأهمية البالغة التى أعطاها ملوك هذا العصر لحماية الملكية وضبط التصرفات الخاصة بها، باعتبارها العنصر الاساسى فى الثروة الزراعية. ففى مرسوم ملكى أصدره أحد ملوك هذا العصر، بتكليف أحد كبار موظفى الدولة بأعباء الوزارة، نقرأ ما يأتى :

" ..إذا قدم أى إنسان شكوى إلى الوزير، تتعلق بالحقول، وجب على "
"الوزير أن يستدعيه شخصياً، وبعد ذلك يستمع إلى مدير المزارع"
"وهيئة المساحين. ويمكن أن يمهل (الشاكى) شهرين،إذا كانت"
"أرضه فى الصعيد أو فى الدلتا. أما إذا وقع حقله قريباً من العاصمة "
"الجنوبية (أى طيبة) ومن البلاط أمهله ثلاثة أيام فقط، وفقاً للقانون. "
"فالوزير ينبغى أن يتفهم مشكلة كل متظلم، وفقاً لهذا القانون الذى فى "
"يده، وان ينتدب محكمى المنطقة ويوفدهم، حتى يقرروا له شخصيا"
"حال أحياءهم ."

---

١ - عبد الرحيم صدقى محمد حسنى، القانون الجنائى عند الفراعنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦ص ٣٩.

" كما ينبغى أن تقدم إلى الوزير، كافة الوصايا ليوقعها بنفسه. "
" والوزير هو الذى يباشر حصص الأراضى[١] فى كل الأماكن، وإذا"
"قال شاك أن حداً متنازع عليه، وجب التثبيت أولاً من وجوده "
"تحت ختم الموظف المسئول هناك، ثم يحتجز من وضعوا أيديهم "
"عليه من المجلس البلدى. أما إذا كانت هناك حالة شاذة [٢]، هى "
"ومتعلقاتها، فلا ينبغى النظر فيها ".

وقد ورد فى نفس المرسوم الملكى، كشرط لقبول الشكوى ما يأتى :

" ... ويتعين على كل فرد أن يقدم شكواه مكتوبة، ولا يسمح له "
"بالشكاية الشفوية. وكل من يتظلم لفرعون يجب على الوزير[٣]أن" "يبلغ
عنه بعد أن يقدم عريضته [٤]".

رابعاً : طرق استغلال الأراضى الزراعية :

كثيراً ما كان يقوم مالك الأرض بزراعتها بنفسه هو وأولاده [٥]. وكان يهتم بذلك اهتماماً كبيراً، وإذا أضطرته الظروف للسفر بعيداً عن الأرض، غالباً ما كان يكتب لأولاده ليؤكد ضرورة اهتمامهم بالأرض كما سبق أن رأينا.

كما عرفت مصر فى تلك العصور، نظام تأجير الأرض لمستأجريها. وكان عقد الإيجار ينصب فى أغلب الحالات، على سنة زراعية، تنحصر بين محصولين زراعيين متتاليين. وكان يقوم بكتابة عقود الإيجار، كاتب عمومى على دراية بالقانون، ويقوم بالتوقيع عليها مع بعض الشهود. وكان عقد الإيجار يتضمن مساحة الأراضى المؤجرة ومدة عقد الإيجار، ويحدد قيمة الايجار المتفق عليه، وما إذا كان سيدفع عيناً أو نقداً.

١- أى حصص الإيجار أو حصص العطاء، طبقاً لما ذكره عبدالعزيز صالح، الأرض والفلاح فى مصر الفرعونية، المرجع السابق ذكره، ص ٦ .

٢- أى غير مسجلة طبقاً لتفسير المرجع السابق ذكره .

٣-طبقاً لما أضافه المرجع السابق الذكر.

٤- المرجع السابق الذكر، ص ٣٦ .

٥- اعتمد الفلاح في زراعة الأرض، خلال تلك الحقبة من تاريخ مصر الفرعونية على بعض الأدوات الزراعية التى لاتختلف اختلافاً يذكر عن مثيلاتها المستخدمة حتى اليوم. ومن بين هذه الأدوات الفأس والمعزقة والمحراث والمنجل والمدراة والبلطة والنورج، وكانت تصنع أساساً من الخشب. أما آلات الرى فكان من أهمها الشادوف والطنبور والساقية، أنظر وليم نظير، المرجع السابق الذكر، ص ٥٩ - ٧٠.

كما كان العقد يتضمن وصفاً للأرض المؤجرة، وهل هى أرض خالية أو بها أشجار. كما كان يحدد موقعها تحديداً دقيقاً، ويذكر الأسم الذى اشتهرت به. ولا شك أن مثل هذا التحديد الدقيق، قد قلل إلى حد كبير من احتمالات النزاع والخصومة بين الأفراد. كما كان الغالب الأعم، ان يقدم المؤجر للمستأجر البذور كقرض، ليضمن زراعة الأرض وجودة المحصول. وأحياناً كان مالك الأرض يقرض المستأجر بعض أدوات الزراعة أو الثيران لحرث الأرض.

ويلاحظ، أن المقترض كان يتعين عليه أن يدفع فائدة للمقرض، وأن هذه الفائدة كانت مرتفعة جداً، يبلغ متوسطها ٥٠٪ وأحياناً كانت تصل إلى ١٠٠٪ من أصل القرض. وأحياناً كان القرض يقترن برهن بعض الأشياء التى تؤول ملكيتها للمقرض، إذا عجز المقترض عن الوفاء بدينه .

وإذا تسلم المستأجر البذور من المالك، ولم يقم بزراعة الأرض، وجب عليه دفع الإيجار كما ينص العقد، كما كان يتعين عليه أن يعيد البذور أجر إلى صاحبها. أما إذا حدث وكان الفيضان منخفضاً ولم يستطع المستأجر الانتفاع بالأرض، تعين إعفاؤه من دفع الإيجار، بشرط إعادة البذور إلى المالك.كما يجوز فى هذه الحالة للمستأجر أن يمد عقد الإيجار عاماً آخر، تعويضاً له عن عدم إمكان استغلال الأرض فى العام السابق.

وكان عقد الإيجار يتضمن عادة شرطاً جزائياً، على من يخل بأحكامه.

وأحياناً كان يتم زراعة الأرض، وفقاً لنظام المشاركة أو المزارعة بين المالك والمستأجر فى زراعتها. وفى هذه الحالة يلتزم المؤجر بعدم التعرض، ويلتزم المستأجر بأن يؤدى إليه الإيجار، خالصاً بعد جمع المحصول، وفى المكان الذى يحدده المالك. كما يتفق فى العقد على أيهما المسئول عن دفع ضريبة الأرض.

وكما كان الأفراد يستغلون الأرض، إما عن طريق الإيجار أو نظام المشاركة، كانت الدولة والقصر الملكى والمعابد، تؤجر حصصاً من أراضيها تختلف مساحتها باختلاف طوائف المستأجرين. وكان المستأجر يستأجر الأرض عادة لمدة معينة تنتهى بنهاية عقد الإيجار. ولكن فى كثير من الحالات كان يمكن توارث عقد الإيجار برضاء

الطرفين. وتشير بردية " فيلبور " والتى ترجع إلى عصر "الرعامسة"، أن الأرض التى كانت مملوكة لمعابد أو أفراد، وآلت إلى البلاط الفرعونى، قد أعيد تقسيمها إلى حصص بعضها كبير وبعضها صغير. وكان المسئولون عن زراعة هذه الأراضى من طوائف مختلفة، فمنهم الكهنة والموظفون والجنود والصناع كما كان منهم الخدم. ومن هؤلاء من كانوا ذكوراً أو إناثاً. ويبدو أن هذه الأرض كان لأصحابها حق الانتفاع بها، إما أن يزرعوها بأنفسهم أو يؤجروها للغير.

خامساً : أهم المحاصيل الزراعية[1] :

عرفت مصر فى عصر الدولة الحديثة الكثير من الحاصلات الزراعية، التى ورثتها عن العصور السابقة. وفى نفس الوقت حرص بعض ملوك هذا العصر على جلب الكثير من النباتات والحيوانات والطيور التى لم تكن معروفة فى مصر، من الدول المجاورة، كما سبق أن رأينا. وهذه كلمة موجزة عن أهم الحاصلات الزراعية فى ذلك العصر .

١- المحاصيل الحقلية :

وكان أهمها القمح والشعير بأنواعهما المختلفة. أما الذرة الرفيعة فهناك خلاف حول تاريخ زراعتها فى مصر، وان كان الراجح أنها كانت تزرع فى عصر الدولة القديمة واستمرت زراعتها بعد ذلك. أما الذرة الشامية، فلم تعرفها مصر إلا بعد الفتح العثمانى.

٢- البقول والأعلاف :

أشتهرت مصر بزارعة البقول منذ عصر ما قبل الأسرات، وكان من أهمها الفول والعدس والحمص والترمس واللوبيا والبسلة والجلبان.

ويبدو أن مصر قد عرفت الحمص والترمس فى عصر الدولة الحديثة، بعد جلبها من الخارج.

أما الأعلاف فكان أهمها البرسيم الحجازى، ويبدو أن مصر لم تعرفه إلا فى أواخر عصر الدولة الحديثة، بعد امتداد الامبراطورية المصرية إلى غرب آسيا.

---
١ - المرجع سابق الذكر، ص٥١ - ص٥٤.

٣- النباتات الزيتية :

وكان أهمها الكتان والخس والهجليج والخروع والقرطم والزيتون والعرعر. وتدل بعض الوثائق أن "رمسيس الثالث" قد اهتم بزراعة الزيتون، وأقام مزرعة كبيرة لزراعته حول معبد الشمس فى مدينة "أون"، أو عين شمس الحالية. ويعتقد البعض أن تسمية حى الزيتون بالقاهرة بهذا الأسم، ترجع إلى العصور القديمة. ومن المناطق التى اشتهرت بزراعة الزيتون اقليم الفيوم. كذلك يبدو أن العرعر لم يعرف إلا فى عصر الدولة الحديثة.

٤- نباتات الصباغة والدباغة :

عرف المصريون القدماء صناعات الصباغة والدباغة، كما تقدموا فى عمليات تثبيت الألوان المستخدمة فى الصباغة، باستخدام الأملاح والأحماض. وأهم الألوان التى استخدموها فى صبغة الملابس هى الأزرق والأخضر والأحمر والأصفر والبنى.

وأهم النباتات التى استخدمت فى الصباغة كانت الحناء والقرطم والسنط والرمان والنيلة.

وقد جلب "رمسيس الأول"، أحد ملوك الأسرة التاسعة عشر، بعض النباتات من غرب آسيا، لزراعتها فى مصر. وكان من بينها شجرة الحناء التى زرعت فى حديقة معبد الكرنك بطيبة. وقد عرفت مصر الرمان لأول مرة فى عصر الدولة الحديثة. أما السنط فلم يعثر على أثاره إلا فى آثار العصر الفرعونى المتأخر والعصر الرومانى.

كذلك تفوق المصريون فى دباغة الجلود، وأعتمدوا فى ذلك على بعض النباتات، وثمار شجر السنط وبعض النباتات الصحراوية.

٥- المحاصيل البستانية :

أحب المصريون القدماء الفاكهة حباً كبيراً، واعتنوا بها عناية فائقة، وأكثروا من زراعتها، كما تحفل آثارهم بها. أما الخضر فقد أعتمدوا عليها بصفة أساسية

فى غذائهم. كما كان المصريون مغرمون بزراعة الحدائق وتنسيقها، كما عنوا بتربية الأزهار وقدسوا بعضها.

أما أهم الفواكة التى عرفوها فكانت نخيل البلح ونخيل الدوم ونخيل العرجون. وكذلك التين والعنب والرمان والزيتون والتوت واللوز والجوز .

٦- محاصيل الخضر :

عرفت مصر منها البصل والخس والكرفس والبقدونس والفجل والكرات والخبيزة واللفت والشبت والبسلة والحماض والترنج والرجلة والسلق والكرنب والبطيخ والشمام والفقوس والخيار وقرع الكوسة.

٧- الألياف النباتية :

وكان أهمها الكتان بأنواعه والبردى، أما القطن فلا نعتقد أن مصر الفرعونية قد عرفته.

وكان الكتان والبردى من النباتات المقدسة. وكان المصريون القدماء يعتقدون أن "الإله أوزوريس"، قد كفن فى نسيج من الكتان بعد موته، وكان الكهنة يرتدون الكتان الأبيض ويعتبرونه رمزاً للطهارة. كما اعتقدوا أن الزوارق المصنوعة من البردى تحمى راكب اليم من التماسيح.

٨- الأشجار الخشبية :

وكان أهمها الجميز والسنط والصفصاف والأثل والبرساء والهجيج والنبق والمخيط. كانت أشجار الجميز[1] والسنط والصفصاف والطرفاء والبرساء والنبق، من الأشجار التى قدسها المصريون القدماء، لسبب أو آخر.

٩- الأزهار :

عشق المصريون القدماء الزهور خاصة فى عصر الدولة الحديثة الذى شهد ازدهار أحوال مصر الاقتصادية. وكانوا يقدسون بعضها ويتزينون بها، خاصة النساء، ويعتبرونها رمزاً للترحيب بمن يحبونهم. وقد شارك فى هذا الحب والعشق للزهور،

١- قدس المصريون شجرة الجميز ، لاعتقادهم أن هذه الشجرة التى نمت فوق قبره ، كانت تضم " الإله اوزوريس " ، ولأنها كانت الرمز الظاهر لحياة اوزوريس التى لا تفنى . انظر : برستيد ، المرجع السابق ، ص ٦٠ .

الحكام والمحكومون. وكانت أهم الزهور التى عرفتها مصر اللوتس، سواء فى ذلك اللوتس الأبيض واللوتس الأزرق، أما اللوتس الأحمر فقد جلبه الفرس لمصر نحو عام ٥٢٥ قبل الميلاد.

وقد احتلت هذه الزهرة مكاناً بارزاً فى حياة المصريين القدماء وتاريخهم وعمارتهم. كما تغنوا بها فى احتفالاتهم وأعيادهم. ويندر أن تجد فى تاريخ أى أمه، أثر لزهرة، مثل الأثر الذى تركته زهرة اللوتس فى حضارة مصر الفرعونية.

كما عرف المصريون القدماء القرنفل والأقحوان والعنبر وورد الزينة، هذا بالإضافة إلى زهور بعض الأشجار.

وكانت الزهور تستخدم فى صناعات العطور والأدوية .

سادساً : إنتاجية الأرض:

يؤكد الكثير من المؤرخين، أن أرض مصر الخصبة، كانت تنتج من المحاصيل الزراعية، ما يحقق لها الاكتفاء الذاتى، إذا ما استثنينا فترات الانتقال والكوارث الطارئة، مثل قصور النيل فى بعض السنوات. بل يؤكد هؤلاء المؤرخين أن مصر كانت تحقق فائضاً فى الإنتاج الزراعى، تقدمه لمساعدة بعض الدول المجاورة، كما حدث فى عصر الرعامسة عندما قدمت مصر العون لحليفتها دولة الحيثيين، التى كانت تعانى من قلة المحاصيل الزراعية[1] .

أما بالنسبة لإنتاجية وحدة المساحة، فنادراً ما تتحدث عنها وثائق هذا العصر. ولكن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن إنتاجية الأراضى فى ذلك العصر، لم تكن تختلف كثيراً عن متوسط إنتاجية وحدة المساحة فى العصر الحديث، قبل إدخال الوسائل الحديثة فى الزراعة[2].

١- أدى نقص الإنتاج فى دولة الحيثيين إلى ارتفاع حاد فى أسعار الغلال قدره البعض بنحو ٤٠٪ زيادة على الأسعار العادية.

٢- ذكر البعض أن إنتاجية الناه "وحدة المساحة فى ذلك العصر" قد بلغت خمس غرائر فى الأراضى العادية ونحو سبعة غرائر ونصف فى الأراضى الجيدة، ونحو عشرة غرائر فى الأراضى المتميزة . وتنخفض انتاجية وحدة المساحة إلى أقل من غرارتين وربع " ويبة " وكانت الويبة تتضمن ١٦ حفناه وتساوى الحفناة ٤,٧٨٥ لتراً. أنظر فى ذلك عبدالعزيز صالح ، الأرض والفلاح فى مصر الفرعونية ، نشر ضمن الأرض والفلاح فى مصر على مر العصور، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة، ١٩٧٤، ص ٤٨، ص ٤٩.

سابعاً : ضريبة الأراضى الزراعية :

يتضح من بعض الوثائق التاريخية، وان لم يكن ذلك بصفة مؤكدة، أن ضريبة الأراضى الزراعية كانت تقدر بنسبة خمس الإنتاج الزراعى[1]، شأنها فى ذلك شأن أغلب الضرائب الأخرى، مثل ضريبة التجارة أو إنتاج مصايد الأسماك أو المحاجر أو المراعى أو الضريبة على التجارة الخارجية العابرة. وكانت الضريبة تؤدى عينا فى الغالب الأعم، فى شكل بعض المنتجات أو القيام ببعض الخدمات مثل زراعة أرض الملك، أو المساهمة فى إقامة المعابد والمقابر والترع وإقامة الجسور والسدود. ويذكر بعض المؤرخين أن الحكومة كانت تجبر الفلاح أحياناً على القيام ببعض الأشغال العامة، ولكنهم يسلمون فى نفس الوقت بان الدولة لم تكن تتعسف فى ذلك، وأن الفرد لم يكن يجبر على ذلك الأمر فى حياته. ولاشك أن تكليف المزارعين بهذه الخدمات، والذى كان يتم عادة خلال موسم الفيضان عندما يتعذر عليهم زراعة الأرض، وقد وفر لهم فرصة عمل، كما كان يعتبر فى نفس الوقت سداداً للضريبة.

كما يتضح من وثائق هذا العصر، أن الملوك كانوا يرعون اعتبارات العدالة والتيسير عند فرض الضريبة او تحصيلها. فغالباً ما كان سعر الضريبة يختلف تبعاً لدرجة خصوبة الأرض، وتبعاً لحجم فيضان النيل. ورغبة فى التيسير على الممول كانت الدولة تقبل أداء الضريبة على دفعات. كما كانت تتنازل أحياناً عن كل أو جزء من الضريبة، بصفة مؤقتة او دائمة، إذا كان هناك مبرراً لذلك. وحتى يتم تحديد الضرائب بطريقة عادلة، كانت الدولة تكلف بعض موظفيها بإعداد تقارير دورية عن منسوب مياه النيل، حتى تأخذ ذلك فى الاعتبار عند تحديد سعر الضريبة.

---

١ - يفهم من بعض الوثائق التى ترجع إلى "عصر الرعامسة" أن الأراضى الزراعية فيما بين الفيوم والمنيا ، كانت تؤدى ضرائب عينية تتراوح ما بين ١/٥، ١/٧، ١/١١ من إنتاج الأرض، تبعاً لدرجة خصوبة الأرض. كما ورد فى سفر التكوين من التوارة أن الدولة كانت تحصل على خمس المحصول، اما كإيجار للأرض او كضريبة عليها، خلال سنوات القحط التى عاصرها يوسف عليه السلام.

وفى وثيقة ترجع للقرن الحادى عشر قبل الميلاد، ونتيجة لسنوات القحط العنيفة التى نجمت عن قصور النيل، قرر حاكم أسيوط التنازل عن الضرائب المتأخرة، بل وقرر صرف معونات من الغلال المملوكة للدولة، لكل أهل الإقليم دون استثناء.

كذلك يتضح من بعض الوثائق، أن الدولة كثيراً ما كانت تعفى الأوقاف الدينية والأراضى المملوكة لرجال الجيش، من الأعباء الضريبية.

وكانت الضرائب تدفع مباشرة للدولة. وفى بعض الأحيان كانت بعض الضرائب تدفع إلى مؤسسات المعابد والأوقاف الدينية، التى كانت تقوم بدورها بتوريدها إلى خزائن الملوك. وكان الموظف المكلف بتحصيل الضريبة، يقدم للممول صكاً موثقاً عليه، بما يفيد بتحصيل الضريبة واسم الممول ، والمدة التى حصلت الضريبة عنها. ثم يقوم الموظف المختص بتأريخ الصك [1] .

وبالإضافة للضرائب الزراعية، كان أهل الريف يخضعون لبعض الضرائب الأخرى، مثل ضريبة جلود المواشى، ومقابل الانتفاع بقنوات الرى والآبار، وضريبة النخيل والأشجار. كما كانت الدولة تفرض الضرائب على منتجات الصناعات الريفية، كنسبة من إنتاج عسل النحل أو الزيوت أو الجعة أو النبيذ، كما كانت تفرض ضرائب على الحيوانات والطيور وعلى مصايد الأسماك. وكذلك كانت هناك ضرائب على منتجات حرَف الغزل والنسيج ومنتجات الجلود[2] .

ومما سبق يتضح مرة أخرى، مدى استقرار فكرة " الماعت " او العدالة فى ضمير ملوك وحكام مصر الفرعونية.

١- كان محصلى الضرائب يحصلون على نسبة منها، قدرت بحوالى ٦٪ من الضريبة المدفوعة ، وذلك مقابل القيام بتحصيلها، بترى، المرجع السابق الذكر، ص ٥١-٥٤.

٢- عبدالعزيز صالح ، المرجع السابق ذكره، ص ٤٨ - ٥٠، وكذلك محمد بكر ابراهيم، صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديمة، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٢١٦ .

ثامناً : الوضع القانونى والاجتماعى والاقتصادى للفلاح :

ذهب أحد المؤرخين المعاصرين، إلى أن الرق كان شائعاً بين الفلاحين فى مصر الفرعونية[١]، وإلى أن المجتمع الزراعى المصرى فى تلك الحقبة من تاريخ مصر، كان مجتمعاً بدائياً بسيطاً[٢] .

ولكن من المؤكد أن هذا الرأى قد حاد عن الصواب، كما يتناقض تماماً مع الرأى السائد بين جمهرة مؤرخى مصر الفرعونية، كما يتعارض تماماً مع الوثائق التاريخية الفرعونية.

إذ من المسلم به، أن الفلاح وغيره من عامة الشعب، كان يتمتع بكافة الحقوق المدنية [٣] والاقتصادية التى يتمتع بها الإنسان الحر. فكان له حق تملك الأرض، وحق استئجارها، وكان عقد الإيجار يرتب حقوقاً والتزامات علىكل من طرفيه. كما كان من حق الشخص أن يزاول النشاط الاقتصادى الذى يروق له، وأن يغير حرفته، فى حدود القانون وشرائع الدولة ونظامها العام. كما كان عقد العمل، يرتب التزامات على كل من طرفيه، حتى لو كان أحد طرفى العقد فرعون نفسه أو كهنة المعابد. وقد ترتب على عدم حصول عمال المقابر فى عصر الدولة الحديثة، على مستحقاتهم، قيامهم بالتظاهر والإضراب عن العمل، حتى حصلوا على هذه المستحقات، كما سبق أن رأينا.

أما تقسيم المجتمع إلى طبقات، تبعاً لتفاوت حظها من الثروة والدخل، فكان يقوم على أسس اقتصادية، ولم يكن له أى علاقة بفكرة الحرية والعبودية. ويدعم هذا الرأى، ما سبق ذكره عن تأكيد المؤرخين، أن مصر لم تعرف فى كل تاريخها الملكية الاستبدادية، بل كانت الملكية فيها دائما ملكية مقيدة.

وقد سبق أن رأينا، كيف ترتب على الثورة الاجتماعية، التى شهدها عصر الانتقال الأول، إعلاء قيمة الفرد وحقوقه فى عصر الدولة الوسطى، وكيف حددت رسائل "الفلاح الفصيح" طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ومسئولية الراعى نحو الرعية.

١- كان الفلاحون يمثلون غالبية سكان مصر.

٢- أنظر المبحث الأول من هذا الفصل والخاص بفلسفة الحكم فى عصر الدولة الحديثة.

٣- أنظر ما سبق ذكره عن فلسفة الحكم فى عصر الدولة الحديثة .

بل يحفل تاريخ مصر الفرعونية بأمثلة لأشخاص من عامة الشعب، لم يعرف الدم الملكى الأرزق الطريق إلى شرايينهم، ارتقوا إلى أرفع المناصب، بما فى ذلك عرش مصر الفرعونية. كما تؤكد الوثائق التاريخية، أن المتميزين من أصحاب الحرف، مثل النحاتين والمصورين والمهندسين المعماريين، قد ارتقوا إلى أعلى مناصب الدولة. بل لقد قدس شعب مصر بعض هؤلاء، إلى حد عبادتهم.

وتدل المعلومات المتاحة، أن القرية الفرعونية، كانت تخضع عادة لسلطة ونفوذ أحد كبرائها، ممن يتمتعون بقدر من الثروة العقارية، يتراوح بين مائة وألف فدان من الأرض. وكان قصر هذا الكبير، يمثل المركز الرئيسى للأنشطة الاجتماعية والاقتصادية والتجارية فى القرية. كما كان هذا الكبير وأعوانه، يقومون مقام رجال الأمن فى القرية، ويعتبرون حلقة الوصل بين أهل القرية والسلطات الحكومية. وفى هذا يشبه مركز كبير القرية الفرعونية، مركز العمدة فى القرية المصرية المعاصرة.

وعلى الرغم من أن بعض كبراء القرى، كانوا يستغلون حاجة الفلاح، وقد يشترون منه المحصول بثمن بخس، أو يرغمونه على القيام ببعض الأعمال، إلا أنهم كانوا يفخرون، صدقاً أو كذبا، بعدالتهم ورعاية أهل القرية. ويقول أحدهم :

"ولقد قدمت الخبز لكل جائع وكسوت العارى ولم أغتصب شيئاً "

"من ملك الغير ولم أنطق إلا بالحق ولم أتحدث إلا بالخير "

"...وما خشى أنسان على نفسه فى منطقتى، ممن هو أقوى "

"منه حولا أو أعز نفراً"

ولكن من المؤكد أيضاً، أن الفلاحين كانوا من أقل فئات المجتمع حظاً فى الثروة والدخل. وكان أغلبهم يعتمد على إستئجار الأرض من ملاكها مقابل مبلغ معين، أو يقومون بزراعته طبقاً لنظام المزارعة. ولكن كان هناك أقلية من الفلاحين، يمتلكون الأرض التى يزرعونها.

وعلى الرغم من أن مستوى معيشة الفلاحين قد تحسن خلال عصر الدولة الحديثة عموماً، إلا أن مستوى معيشتهم قد تدهور بشكل ملحوظ، فى أواخر عهدها،

خاصة خلال فترة حكم الأسرة العشرين، نتيجة الأزمة الاقتصادية وتدهور أحوال البلاد فى هذه الحقبة. كذلك تؤكد بعض الوثـائق، أن الفلاحين وعمال المقابر، قد تعرضوا لكثير من أوجه الظلم والاستغلال من أصحاب الأراضى، خاصة فى الأراضى المملوكة للمعابد. ويصـور النص التالـى ما أصاب الفلاح من شقاء وتعاسة :

" ألا تذكرون كيف يكون المزارعون عندما يحل المحصول "
".......... الدودة تلتهم نصف المحصول وعجل البحر يأكل "
"النصف الآخر، كما أن هناك كثيـر من الفيران فى المحصول "
"...... والجـراد ينتشـر، والقطعان تـأكل والطيـور تـأتى "
"على البعض....، وأسفاه على الفلاح، وما تبقى بعد ذلك "
"يوضع فى الجرن ويسرقه اللصوص، والماشية تموت من كثرة "
"التعب ومن العمل الشاق ... وفى هذه اللحظة يأتى الكتبة "
"ويحصلون الضرائب ومعهم النوبيون يحملون العصى." [١] .

١ – أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٣٧٦–٣٨٤ وعبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، سبق ذكره، ٢٦٣–٢٦٨.

المبحث الخامس

تطور الحرف والصـــــناعات

شهد عصر الدولة الحديثة، خاصة عصر الأسرة الثامنة عشـر، توسـع وتطـور ملحوظ فى بعض الصناعات القديمة، كما شهد ظهور صناعات جديدة لم تكـن معروفـة من قبل . ونعرض فيما يلى لأهم الصناعات فى عصر الدولة الحديثة .

إنتاج الخبز :

من الصناعات القديمة في مصر. وكان هذا أمراً طبيعياً. فالخبز أحد ضروريات الحياة. وكان المصريـون القدمـاء يحبـون أكـل الخـبز إلـى حـد كبير، الأمـر الـذى دفـع "هيرودوتس" إلى وصفهم بأنهم " آكلو الخبز "[١].

وقد ارتقت هذه الصناعة بشكل ملحوظ فى عصـر الدولـة الحديثـة، كمـا كـثرت أنواع الخبز . ففى " بردية هاريس "، ورد ما يفيد أن مصر عرفت فى عهـد "رمسـيس الثالث"، ثلاثين نوعاً من الخبز . إذ كانت هذه الصناعة، تواكب متطلبـات كـل عصـر . ففى قائمة المأكولات المطلوبة فى رحلة قام بهـا أحد فراعنـة الأسـرة التاسـعة عشـر، وجدت أنواع مـن الخـبز والكعك، لـم تكن معروفـة أو شـائعة الاسـتعمال فـى العصـور السابقة .

وقد تأثرت هذه الصناعة بالمؤثرات الأجنبية فى عصر الدولة الحديثة، خاصـة المؤثرات الآسيوية، الوافدة من الشام وبلاد ما بـين النـهرين وآسيـا الصغـرى. وكـان الأمـراء الذين انتشـروا خـارج مصـر، فى العصـر الامبراطـورى، يقبلون على " الخبــز الكبـير الجيـد "، المصنـوع مـن حبـوب " زرت "، أمـا الجنـود فكـانوا يفضلـون الخـبز السورى المصنوع من القمح، مثل النوع الذى عرف " بخبز كلشت"[٢].

١- كان الخبز عنصر أساسى فى الوجبة الغذائية، التى توضع فى القبر مع الميت، ليأكلها فى العالم الآخـر . هـذا بالإضافـة إلى الجعة والأرز ولحم البقر . وليم نظير، المرجع السابق، ص ٢٤٢-٢٤٥ . وبعـد آلاف السنين ، لازال الخبز حتى يومنـا هـذا العنصر الاساسى فى الوجبة الغذائية ، والمصدر الاساسى للبروتين والدهون والطاقة بالنسبة لنسبة كبيرة من السكان .

٢-كانت كثرة أنواع الخبز، انعكاساً لما عرفته مصر من رخاء وثراء فى هذا العصر.

كذلك تدل آثار عصر الدولة الحديثة، أن المصريون كانوا يخبزون الخبز أحياناً، ومعه الغثاء لينضج بسرعة، وهى طريقة لازالت شائعة فىالريف المصرى حتى اليوم.

وكان المصريون القدماء، يقدسون الخبز، ويسمونه " عيشاً " وهو اللفظ المستعمل حتى الآن. ومن الطريف أيضاً، أن "بتاو"، وهو من الأسماء الهيروغلوفية للخبز المصنوع من الذرة، لازالت هى الأخرى مستعملة فى الريف حتى اليوم. [١]

صناعة الجعة :

كانت الجعة من المواد الغذائية الأساسية، التى حرص عليها المصريون حرصاً شديداً فى كافة العصور منذ العصر الحجرى الحديث .

وكانت صناعة الجعة، من الصناعات التى ازدهرت بشكل كبير، فى عصر الدولة الحديثة، خاصة عند ظهور مشارب أو حانات عامة لشرب الجعة. وكانت هذه الحانات، تحفل بالأغانى والأناشيد والرقص، ويقبل المصريون على ارتيادها [٢]. هذا على الرغم من أن الطبقات المحافظة، كانت ترفضها، كما كان المدرس يحذر تلاميذه من ارتياد هذه الحانات ، لأن ما يجرى بها يناقض الأعراف والأخلاق القويمة.

يقول الحكيم آنى :

" ولا تفرط فى شرب قدر كبير من الجعة . فأنت إذا تكلمت "
"خرجت عبارة أخرى (غير التى تريدها) من فمك. وإنك "
"لتسقط فتتهشم اعضاؤك ولا يمد إليك أحد يده".

ويقول معلم لتلميذه :

" بلغنى إنك أهملت دراستك . وإنك تتسكع من طريق لآخر. " "وأن رائحة الجعة قد أبعدت الناس (عنك) . وإنها قد ساقت " "روحك إلى الهلاك ".

---

١ - وليم نظير ، المرجع السابق ذكره ، ص ٢٤٦ - ٢٥٠ .

٢ - كانت البيرة تسيل فى هذه الحانات أنهاراً مختلطة بالأغانى والأناشيد فى جو من المرح واللهو، المرجع السابق، ص ٢٤٩ .

صناعة النبيذ :

من الصناعات التى عرفتها مصر منذ العصر الحجرى الحديث . وتحفل آثار مصر القديمة، بالكثير من النقوش والصور، التى تبين فى وضوح طرق صناعة النبيذ، الذى تعددت أنواعه بشكل ملحوظ، والتطورات التى طرأت على طريقة تصنيعه. وهذه الطرق لا تختلف فى أساسياتها، عن تلك المستخدمة فى تصنيعه فى الوقت الحاضر.

وقد شهدت هذه الصناعة تطورات هامة، كما ازدهرت فى عصر الدولة الحديثة، كما زاد إقبال الناس على شرب النبيذ، خاصة فى الأعياد والاحتفالات الخاصة. ويتضح من النقوش التى وردت على جدران المقابر، والتى تمثل شرب النبيذ فى هذا العصر، إنه كان يشرب فى أقداح أنيقة أو فى كؤوس، بعضها كان يصنع من الذهب أو الفضة. وكان الخدم من الفتيات والغلمان، يقدمون أقداحه إلى الضيوف ومعها مناشف من الكتان الجيد. وغالباً ما كان الحفل ينتهى بكثير من الهرج والمرج.

وكانت آنية أو قنينات النبيذ ، خاصة "النبيذ الملكى" ، تقفل وتختم بأختام رئيس البساتين فى القصر الملكى .[1] وكان من بين ملوك العصر الذين اهتموا بهذه الصناعة، "الملك رمسيس الثانى " ، فقد عمل على تنميتها حول عاصمته الجديدة فى شرق الدلتا. كما كان منهم "الملك رمسيس الثالث"، الذى اهتم بتنمية هذه الصناعة فى الواحات وفى مصر العليا والسفلى، كما أعطى اهتماماً خاصاً لنوع خاص من الكروم، كان يسمى " كاتى بكى" لإنتاج النبيذ الحلو [2] .

وكان يوجد بهذا العصر مالايقل عن ستة أنواع من النبيذ، منها الأبيض والأحمر والأسود. وكان "النبيذ المريوطى" ، من أحسن الأنواع ، نظراً لطبيعة التربة فى هذا الإقليم، والذى اشتهر بحلاوة عنبه ولونه الأبيض. كما كانت أنبذة الأسكندرية وقفط من أجود الأنواع .

وإلى جانب نبيذ العنب، عرفت مصر نبيذ البلح (العرقى) .

١- كان الختم يشير إلى نوع النبيذ واسم المنتج ودرجة الجودة واسم الملك الذى تم الإنتاج فى عصره .

٢- وليم نظير، المرجع السابق، ص ٢٥٠ - ٢٥٤ ، ٢٥٧.

صناعة تجفيف الفاكهة :

عرف المصريون أيضاً، طرق تجفيف الفاكهة لتخزينها لوقت الحاجة إليها . ومن بين هذه الفاكهة العنب الذى كان يجفف ويتحول إلى زبيب، والبلح والجميز والتين والنبق وحب العزيز [١] .

صناعة الزيوت :

كانت صناعة الزيوت من الصناعات القديمة فى مصر الفرعونية. ولكن عصر الدولة الحديثة شهد تطور هذه الصناعة، وزيادة إنتاجها نظراً لازدهار تجارته فى هذا العصر، خاصة زيت الخروع.

وكانت أهم الزيوت المعروفة زيت الكتان والخس والقرطم والسمسم والخروع والهجليج والحنظل والزيتون. وعلى الرغم من أن الزيتون كان يزرع فى مصر فى هذا العصر، إلا أن إنتاجه لم يكن يكفى حاجة البلاد منه. وقد أدى ذلك إلى زيادة واردات مصر من الزيوت، خاصة الزيوت المستخرجة من خشب الأرز وثمار العرعر والصنوبر واللوز والزيتون.

وكان الزيت يستخدم فى الغذاء والتدليك والإضاءة والتلوين ولإنتاج بعض العطور، كما استخدم الزيت فى بعض الطقوس الدينية وفى علاج بعض الأمراض[٢]. وكان الزيت يوضع عادة فى آنية من المرمر.

صناعة الغزل والنسيج :

عرفت مصر حرفة الغزل والنسيج فى عصور ما قبل التاريخ وخلال العصور اللاحقة كما سبق أن رأينا . ولكن هذه الصناعة تطورت بشكل ملحوظ فى عصر الدولة الحديثة . ففى عصر الأسرة الثامنة عشر، عرف الصناع المصريون الرسوم الملونة على الأقمشة أثناء عملية النسيج . وكانت الأقمشة تلون بأشكال دقيقة بديعة، كما كانت تزين باستخدام الحروف الهيروغلوفية .

١ - عثر على الزبيب الأسود والتين فى قبر " توت عنخ آمون "، كما وجد البلح المجفف والتين وحب العزيز فى مقابر طيبة ترجع إلى عصر الدولة الحديثة . أنظر، وليم نظير، المرجع السابق، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

٢ - لازال الزيت يستخدم فى بعض الطقوس الدينية فى الكنائس، فيما يعرف "بالمسحة المقدسة" وليم نظير، المرجع السابق، ص٢٥٩.

صناعة الصباغة :

عرف المصريون القدماء الصباغة والتلوين منذ أقدم العصور، ولا زالت الآثار المصرية محتفظة بجمال ألوانها حتى اليوم. وكانت الأصباغ المصرية تستخلص عادة من مواد نباتية توجد فى البيئة. [1]

وكان من بين هذه النباتات ، الحناء والقرطم والسنط والرمان والنيلة، التى استخدمها المصريون فى هذا العصر للحصول على الأصباغ .

وقد اهتم ملوك عصر الدولة الحديثة، خاصة فى عصر الرعامسة، بجلب شجرة الحناء من الخارج لزراعتها فى مصر. وكان من بين هؤلاء "رمسيس الأول"، الذى أمر بغرس شجرة الحناء فى حديقة معبد الكرنك. ويبدو أنها كانت من الأشجار المقدسة. كما أدخل الرمان إلى مصر فى عهد "تحتمس الثالث"، وكان قد تم جلبه من سوريا.

وقد تبين من التجارب الحديثة التى أجريت لمعرفة مدى ثبات الألوان المستخدمة فى الصباغة، أن هذه الألوان قد اتسمت بالثبات ولم تؤثر فيها الأحماض، الأمر الذى يدل على أن المصريون القدماء كانوا على دراية ببعض أصول الكيمياء[2].

---

(١) وأهم الأصباغ التى عرفت فى هذه العصور هى:

١-صبغة الأرخيل Archil، وهى صبغة أرجوانية تستخرج من بعض الطحالب البحرية، التى توجد على صخور البحر المتوسط.

٢- صبغة القانت Alkant، وهى صبغة حمراء تستخرج من نبات "صناء الغول "

٣- صبغة فوة الصباغينMadder، وهى صبغة حمراء، تستخلص من جذور نبات الفوة.

٤- القرمز Kermes، وهى صبغة حمراء تستخلص من إناث الحشرات القرمزية المجففة، التى توجد على شجرة البلوط الدائم الإخضرار.

٥- النيلة البرية Woad، وهى صبغة زرقاء تستخلص بالتخمير من أوراق شجرة النيلة البرية ولازالت الصباغة باستخدام النيلة موجودة فى بعض المناطق الريفية حتى الآن. فعند حدوث وفاة فى إحدى الأسر، فإن بعض النسوة من أقرباء المتوفى، يصبغون ملابسهن وأحياناً وجوههن بلون النيلة الأزرق حزناً على الميت.

(٢) وليم نظير، المرجع السابق ص ٩٣ - ٩٥، ص ٢٦٠ - ٢٦٢.

وعرف المصريون أيضاً، تثبيت ألوان القماش بغسله في محلول الشب . كما استخدموا في الحصول على الألوان وتثبيتها بعض المواد الطبيعية [١] .

وقد بلغت هذه الصناعة درجة عالية من الرقى والمتانة، التى تدعو إلى الفخر والإعجاب حتى اليوم[٢].

صناعة الجلود :

كانت من بين أوائل الصناعات التى ابتدعها المصريون وبرعوا فيها. وكان من أهم منتجاتها قرب الماء والغرائر والنعال الخفيفة و أغطية المقاعد. كما كانت الجلود تستخدم فى صناعة العربات الحربية والدروع، وفى أغراض عديدة أخرى .

كما كانوا يصنعون منها حبالاً تقطع إلى أشرطة رفيعة جداً، ثم تجدل فتصبح حبالاً متينة . وكان من أجمل منتجات هذه الصناعة، الجلود المثقبة التى تشبه الشباك وكانت تغطى بهـ المقاعد والأرائك . كما كانت هذه الجلود ، تلبس فوق الملابس التيلية للوقاية من البرد .

وكانت المنتجات الجلدية التى تستعملها الطبقات الفقيرة، أشد صلابة ومتانة من تلك التى يلبسها الأغنياء ، الأمر الذى يدل على استجابة الصناع لأذواق وحاجات المستهلكين .

وعلى الرغم من أن صناعة الجلود وتجهيزه ودبغه، كانت من الصناعات القديمة، إلا أنها شهدت درجة ملحوظة من التطور والرقى فى عصر الدولة الحديثة .

وقد تفوق صناع هذا العصر فى صناعة الدباغة إلى حد كبير . وكان أهم الألوان المستخدمة فى الدباغة هى الأخضر والأحمر والأصفر، واستخدم فى الحصول على هذه الألوان منتجات نباتية [٣] .

---

(١) وفقاً للطرق الآتية :

١- مخلوط من الماتيت والمغرة الصفراء المحروقة للحصول على اللون الأحمر، عدة أنواع من المغرة للحصول على اللون الأصفر وكانوا يستخدمون الرهج الأصفر أو أصفر الملك للحصول على لون أصفر جيد، استخدام الملاخيت أو التوتية وسلسلات الجير الخضراء والنحاس، للحصول على اللون الأخضر ، استخدام كربونات النحاس الزرقاء للحصول على اللون الأزرق، أما اللون البنى، مكانوا يحصلون عليه باستخدام عدة أنواع من المغرة، السانج للحصول على اللون الأسود، أما اللون الأبيض مكانوا يحصلون عليه باستخدام سلفات الجير، وليم نظير المرجع السابق، ص ٩٣-٩٥- ٢٦٠-٢٦٢.

(٢) بترى، المرجع السابق، ص ٢٥٧ - ٢٦٩ .

(٣) بترى، المرجع السابق ،ص ٢٥٦-٢٥٧، ووليم نظير، المرجع السابق، ص ٢٦٠-٢٦٢ .

منتجات الخشب :

اعتمدت هذه الصناعة على الأخشاب المحلية فى بداية الأمر . ولكن نظراً لعدم جودة أغلب هذه الأشجار ، فإن هذه الصناعة قد تطورت ببطء شديد ، حتى بدأت مصر تستورد الخشب الجيد، مثل خشب الأرز والصنوبر والكدر والأبنوس والزان، من البلاد التى كانت تربطها بمصر علاقات تجارية .

ويتجلى الإبداع الفنى فى صناعة الأثاث، خاصة الأثاث المطعم، الذى اتسم بدرجة عالية من الإتقان ،ومعرفة دقيقة بخصائص المواد الخام التى تستخدم فى صناعته. كما اتسمت منتجات هذه الصناعة، بدرجة عالية من تناسق الأجزاء والأبعاد، كما كانت فى غاية الرقة والجمال .

ولعل خير شاهد على ذلك الأثاث الجنائزى الذى وجد فى مقبرة "توت عنخ آمون" الذى بهر العالم، ولازال يعتبر من أجمل وأدق ما صنع الإنسان على مر العصور[1] . ولعل هذا يفسر ،اتجاه الكثير من علماء "المصريات" المعاصرين، على تسمية هذه المنتجات ومثيلاتها، بالفنون الصغرى . وكان من بين منتجاتها، الأقداح والكؤوس الذهبية والمطعمة بالجواهر والمقاعد والأقنعة والتوابيت .

صناعة السلال والحصر :

من الحرف التى عرفتها مصر منذ العصر الحجرى، كما عرفوا المكانس والمراوح والغرابيل. وكانت تصنع هذه المنتجات، من سعف النخيل ومن لحاء نبات البردى ومن البوص أو الغاب.

وقد شهدت عصور الدولة الحديثة، تقدم وتطور هذه الصناعات، وتعدد استعمالاتها، كما كانت من بين الصادرات المصرية إلى الدول المجاورة، نظراً لما كانت تتسم به من جودة ودقة ومتانة الصنع[2] .

١- بترى، المرجع السابق، ص ٢٦١-٢٦٣ وذلك :

Winlock , H.E. , the Treasures of the Egyptian Princesses, New York, 1945.

٢-بترى، المرجع السابق، ص ٢٥٧-٢٥٩ .

صناعة الفخار والموزايكو والزجاج :

من المعروف، أن مصر عرفت صناعة الفخار، منذ بداية العصر الحجرى. وقد ازدهرت صناعة الفخار الملون فى مواطن حضارة هذا العصر، خاصة فى جرزا التى عرف أهلها " بشعب الفخار الملون " كما سبق أن ذكرنا.

وبعد تجارب طويلة، عرفت مصر صناعة الأوانى الفخارية المصقولة، ثم عرفت كيفية دهان الأوانى الخزفية باللون الأزرق أو باللون الأخضر، وكان ذلك يتطلب درجة عالية من المهارة فى التسخين تحت درجة عالية، لا تنقص ولاتزيد، لمدة طويلة نسبياً.

ثم عرف المصريون بعد ذلك، صناعة الزجاج الأزرق واللازوردى، ولكن لم يكثر إنتاج الزجاج وانتشار استعماله فى شتى الأغراض، إلا فى عصر الأسرة الثامنة عشر . وقد وجدت آثار تدل على أن المصريين عرفوا تطعيم الزجاج بالموزايكو الملون، فى عصر هذه الأسرة [1].

ويذهب بعض الدارسين، إلى أن المصريين تعلموا صناعة الزجاج، من الصناع الماهرين الذين جلبهم إلى مصر، ملوك الأسرة الثامنة عشر من الشام [2] .

حرفة لعب الأطفال :

وكان من بين الحرف التى ازدهرت فى عصر الدولة الحديثة، حرفة صناعة لعب الأطفال. ويتضح من آثار هذا العصر، أن الحرفيين انتجوا الكثير من لعب الأطفال، وكان لكل سن من سنوات الطفولة لعب تناسبه . وكان من بين هذه اللعب الدمى والعرائس التى كانت تصنع من الخشب والعاج والطين والجلد والحجر

١- بترى، ص ٢٦٣، وقد تقدمت صناعة الموازيكو إلى حد الإبداع فى مدينة الأسكندرية فى العصرين الإغريقى والرومانى

٢- بترى المرجع السابق، ص ٢٨٠ .

كما كان يراعى فى صناعة هذه الألعاب، القوة الشرائية للأسر المختلفة [١].

الصناعات المعدنية :

عرف المصريون القدماء، عشرة أنواع من المعادن وثمانين نوعاً من الأحجار والصخور، ولكن الخبراء يؤكدون أنهم لم يستخدموا منها إلا تسعه أنواع فقط.

وكان من بين هذه المعادن الذهب والفضة والنحاس والمنجنيز والزرنيخ والقصدير، ثم الحديد والبلاتين. ولكن لم يكثر استخدام الحديد إلا فى عصر الأسرة الثانية عشر. كما حصل المصريون على القصدير النقى فى عهد هذه الأسرة.

وكان بعض هذه المعادن يستخدم فى صناعة الحلى والأوانى والأقداح والكؤوس، كما استخدم الذهب ، أو الخشب المصفح بالذهب، فى صناعة التوابيت والأثاث الجنائزى فى المقابر الملكية فى عصر الدولة الحديثة.

كما كانت حبات العقود المصنوعة من حجر الجير تكسى بالذهب . وعلى الرغم من أن المصريين عرفوا الحديد فى عصور ما قبل التاريخ، إلا أن استخدامه فى الصناعة لم ينتشر إلا فى عصر الأسرة الثامنة عشر .

وكان المصريون يصهرون المعادن فى قوالب مفتوحة، أو يحولونها بالطرق إلى صفائح رقيقة. وقد حقق الصانع المصرى درجة مهارة فائقة، كما سبق أن رأينا. وقد استخدمت طريقة الطرق للحصول على رقائق المعادن، التى كانت تستخدم فى كساء التماثيل والأثاث المصنوع من الخشب . كما استخدم النحاس فى صناعة الأسلحة والسلاسل.

---

١ - وكان من أمتع الألعاب المصرية القديمة، لعبة من العاج، تمثل فرقة أقزام راقصة يعتلى أفرادها مسرح صغير، ويقودهم رئيس يقوم بضبط الإيقاع وكان يتصل بقواعد الأقزام، خيوط متينة تمكن الأطفال من تحريك أفراد الفرقة كلما أرادوا. كما وجدت لعب فى شكل حيوانات يمكن تحريكها، ومنها تمساح يمكن تحريك فمه، وكذلك ضفدعة يمكن تحريك فمها، وقطة خشبية من نفس النوع، وقطة ذات عينين مطعمتين وفك متحرك، وأخرى تمثل رجلاً مذعوراً يجرى خلفه كلب. ومن أطرف الدمى، واحدة تمثل قردة تمشط شعر ابنتها .أنظر فى ذلك عبدالعزيز صالح، الأسرة المصرية فى عصورها القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة١٩٨٨، ص ١٠٢-١٠٣.

وقد عرف المصريون لحام المعادن باستخدام المعدن نفسه، في صناعة الحلى والأواني والأدوات النحاسية في عهد الأسرة التاسعة عشر .

الصناعات الاستخراجية :

اهتم ملوك هذا العصر ، خاصة الملك "سيتي الأول" اهتماماً بالغاً بالصناعات الاستخراجية، خاصة مناجم الذهب في الصحراء الشرقية. ويتضح من البردية المعروفة " ببردية مناجم الذهب "، المحفوظة بمتحف " تورين " بإيطاليا، والتي تمثل أقدم خريطة جغرافية معروفة في التاريخ، حيث عنى الرسام بتوضيح الطرق المختلفة التي تؤدي إلى المناجم، كما تضمنت هذه الخريطة بعض المعلومات التي تساعد على معرفة هذه الطرق.

وقد قام "سيتي الأول" بزيارة منطقة المناجم، ثم أمر بتوفير الرعاية للعاملين كما أمر بحفر كثير من الآبار في الصحراء، لمساعدة المسافرين إلى مناطق المناجم، مثل منطقة بير وادي عباد. هذا وقد أقام هذا الملك قرية ومعبداً للعبادة للعاملين بهذه المناطق. كما أمن الطريق الصحراوي الذي يبدأ جنوب أدفو، ويخترق الصحراء الشرقية إلى جبل الزبارة على ساحل البحر الأحمر، حيث توجد مناجم الذهب.

وقد سار "رمسيس الثاني" (١٢٩٠ - ١٢٢٣) قبل الميلاد، في سياسة أبيه فواصل الاهتمام بتأمين استغلال مناجم الصحراء الشرقية.

ويتضح من رسائل تل العمارنة، الخاصة بفترة حكم "امنحوتب الثالث" بالذات، إن إنتاج مصر من الذهب خلال عصر الدول الحديثة كان وفيراً، لدرجة أن أحد حكام منطقة الشام، أرسل يرجو أمنحوتب الثالث أن يرسل له ذهباً، مدعماً هذا الطلب بقوله "أن الذهب كالتراب في مصر ".

وتدل المعلومات المتاحة، أن الصناعات الاستخراجية، وكان أهمها استخراج الذهب، كانت احتكاراً حكومياً[1].

---

١ - أحمد فخرى " المرجع السابق " ص٣٤٣ - ص٣٤٥ وبترى، المرجع السابق ذكره، ص٩٥.

صناعة السفن :

من الصناعات التى ورثها عصر الدولة الحديثة عن العصور السابقة . ولكن الشيء المؤكد أن هذه الصناعة قد سجلت درجة مرموقة من التطور والتقدم، كما توسعت إلى حد كبير فى عصر الدولة الحديثة .

وكان من أهم أسباب ازدهار هذه الصناعة خلال تلك الحقبة، اتساع أرجاء الإمبراطورية، وحرص ملوك هذا العصر، خاصة بعض ملوك الأسرة الثامنة عشر، على دعم نفوذ مصر العسكرى فى كافة أرجاءها، وتأكيد سيطرتها فى البحرين الأحمر والمتوسط، خاصة الساحل الفينيقى وبعض الجزر ومنها كريت وقبرص، وكذلك لتأمين تجارتها الخارجية مع إقليم غرب آسيا وبلاد بونت .

ونتيجة لما سبق، زاد عدد الترسانات البحرية، الأمر الذى مكن من بناء أسطول بحرى، يمكن من السيطرة على تلك المناطق دون منازع [١]. وكانت مصر تعتمد على الخشب الجيد المستورد فى صناعة السفن.

ولعل خير دليل على ما حققته هذه الصناعة من تقدم، ما أقدم عليه "تحتمس الثالث"، خلال مرحلة الإعداد لحملته العسكرية التى كانت تهدف إلى توسيع نطاق الإمبراطورية المصرية حتى منطقة الفرات، إذ قام بتصنيع أجزاء السفن الضرورية لهذه الحملة فى " ميناء جبيل " بالشام، ثم حملها براً على عربات إلى " قرقميش "، حيث تم تركيبها، لتحمل جيشه الكبير عبر الفرات .

ويؤكد أحد المؤرخين الثقاة، أن هذه كانت أول مرة تحمل فيها سفن براً لمسافة نحو ٢٥٠ ميل، كما كانت أول مرة تستخدم فيها السفن لعبور نهر واسع كنهر الفرات وهى محملة بقوة عسكرية كبيرة[٢].

١- كان "كهنة آمون" يملكون وحدهم نحو ٥٠ ترسانة لبناء السفن.

٢- أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٢٨١، وعبد العزيز صالح، تاريخ الشرق الأولى القديم، المرجع السابق ذكره، ص٢٣٣، وأنظر أيضاً :

Faukler, 1946 , p 39 and Badawy ,A. , op. cit . , pp . 15 - 20 , 25 - 28 , 31 - 33 , 38 - 46, Gardiner , op. cit, p.195, and Suve-Oodbergh, the Navy of the Eighteen Egyptian Dynasty, Upsalla. 1944. .

البناء والتشييد :

١- صناعة البناء : تطورت بشكل ملحوظ، واكتملت عناصرها المعمارية لدرجة غير مسبوقة، خاصة فى عهد "أمنحوتب الثالث". وتؤكد آثار هذا العصر من قصور ومعابد ومقابر وبيوت، بما فى ذلك بيوت عامة الشعب، ما كانت تتمتع به مصر من رخاء شمل كافة الطبقات فضلاً عن هذا فإن هذه الآثار تؤكد اكتمال العناصر المعمارية فى هذه المنشآت التى كان يراعى فيها الجوانب الصحية والمعيشية والجمالية . إذ كانت تسمح بدخول الشمس، كما كانت تسمح بالتمتع بنسمات الشمال، كما كان يراعى فيها التنسيق المعمارى والقيم الجمالية.

وتؤكد آثار هذا العصر أيضاً، خاصة معابد الإله التى نحتت بالأزميل فى صخور جنوب مصر، أن المصريين هم فعلاً أعظم بنائين عرفهم التاريخ الإنسانى .

لقد شهد عصر الدولة الحديثة بعض التطورات الهامة فى صناعة البناء والتشييد، كما شهد قدراً ملحوظاً من الإبداعات كما يتضح مما يلى :

١- تألق معابد الألهة إلى جانب المعابد القديمة ، تلك المعابد التى كانت تنحت فى قلب الصخر ، وتمثل جزءاً لايتجزأ من البيئة الطبيعية التى أختيرت لإقامة صرح هذه المعابد. ويبدو ذلك الإبداع فى صورته المثالية فى الكثير من معابد الآلهه، خاصة:

١/١- معبد الملكة حتشبسوت ، والمعروف بمعبد الدير البحرى أو درة المعابد الفرعونية قاطبة. إذ يبهر من يرى هذا المعبد، تلاقى خطوطه، مع خطوط الجبل القائم وراءه، ويكون جزءً لا يمكن فصله عن الجبل. فقد خلع جمال المعبد وقدسيته الروحية على الجبل مسحة رائعة من السحر. لقد إستطاع المهندس العبقرى " سننموت "[١] الذى صممه، أن يزاوج بين تصميمه المعمارى الفذ وجمال الطبيعة المهيب، فأكسب

١- من المؤسف أننا لا نعرف الكثير عن مهندسى العصور الفرعونية . وكان من بين القلائل الذين كشف عنهم تاريخ مصر الفرعونية المهندس "إمحوتب" ، المهندس الذى صمم مجموعة "الملك زوسر" الهرمية والمهندس "إنينى" الذى شيد الصرحين الرابع والخامس "للملك تحتمس الأول" بمعبد الكرنك ، والمهندس "حابوسنب" الذى بنى مقبرة " الملكة حتشبسوت"، والمهندس "أمنحتب بن حبو " الذى شيد المعبد الجنائزى للملك "أمنحتب الثالث" . وقد تمتع هؤلاء المهندسون بمراكز إجتماعية ممتازة كما شغلوا وظائف كبرى فى الدولة، بل أن "إمحوتب" أصبح إلهاً يعبد فى العصور اللاحقة . ثروت عكاشة، المرجع السابق ذكره، ص٣٥٠ ، وكذلك :

Badawy ,A. , op. cit . , p . 44 .

المعبد الجبل شيئاً من قدسيته، كما خلق نوعاً من الألفة الرائعة بين المعبد والبيئة الطبيعية، حتى بدا المعبد وكأن الطبيعة المتسامية قد هيأت هذا الموقع ليقام فيه المعبد، حتى أصبح من المستحيل تصور هذا المكان الرائع دون المعبد فى وسطه.

لقد ترك "سننموت" للإنسانية عملاً خالداً، قد يستحيل تكرار مثله فى أى عصر من العصور .

١/٢- معبد أبو سمبل،الذى شيده رمسيس الثانى،إذ يكاد يتحقق الإندماج الكامل المهيب بين المعبد والجبل. إذ يرى الناظر عناق رائع بين المعبد والطبيعة، وكأن الطبيعة تحتضنه كجزء لا ينفصم عنها، وكل منهما يكمل الآخر ويضفى عليه سحراً وروعة وقدسية ورهبة.

وقد حقق البناؤن فى هذا العصر كل هذا الإعجاز المعمارى ، على الرغم من التقاليد الدينية الصارمة ، التى كانت تفرض نفسها دائماً على حرية المهندس المعمارى. لقد ارتبطت التقاليد المعمارية منذ نشأتها بالتقاليد الدينية، الأمر الذى قيد إلى حد كبير من حرية المصمم المعمارى فى الخلق والإبداع.

وعلى الرغم من كل هذه التقاليد ، فقد استطاع المهندسون فى هذا العصر تحقيق إنجازات معمارية حققت دون شك الأغراض الدينية ، والتى كانت تهدف دائماً إلى صبغ المعابد بهالة من القدسية والغموض والمهابة والخوف.

إن الضوء فى المعبد لا يهدف فقط إلى إنارته ، بل لبعث الحياة فى تمثال الإله. إذ كان المهندسون يعملون على أن يصل ضوء الشمس إلى حرم المعبد، وأن يمس الضوء تمثال الإله وحده، حتى يبقى كل ما حوله فى ظلام دامس، ليضفى على الإله الغموض والرهبة . وكان الضوء يتسلل إلى تماثيل الإله، من نوافذ صغيرة فى أعلى الجدران ، عند نقطة التقائها بالسقف أو من السقف ذاته . وأن تحدث هذه الإضاءة فى مواعيد محددة من العام ، لتخلق فى الإنسان خشوعاً لهذا الإعجاز العبقرى.

فضلاً عما سبق كان المعبد يبنى، بحيث يضيق من الداخل تدريجياً. فكلما توغل الإنسان فيه وجد جدرانه تتقارب ، وأرضيته تعلو ، فى حين يقل ارتفاع سقفه،

مما يزيد المعبد غموضاً وظلاماً ورهبة . ويبدو ذلك جليا فى بهو الأعمدة فى " معبد الكرنك ". إذ يلاحظ أن مستوى أرض المعبد كله تأخذ فى الارتفاع تدريجيا إبتداء من الصرح حتى قدس الأقداس، كما ينخفض السقف فى الوقت نفسه إبتداء من بهو الأعمدة حتى قدس الأقداس. وهكذا يتدرج الضوء من إشراقة الشمس الساطعة فى الفناء الخارجى، إلى عتمة بهو الأعمدة، ثم إلى ظلام دامس عند قدس الأقداس، الأمر الذى يحرك فى النفس رهبة وشعوراً بالغموض ، كلما اقتربت خطى الإنسان من مقر الإله. ولعل هذا يفسر جزء من عظمة "الكرنك " الفريدة .

٢ – تعدد الأعمدة وتيجانها. فقد ظهر العمود الذى يمثل زهرة البردى المتفتحة والعمود المضلع والعمود الأسطوانى. كما ظهرت الأعمدة المخيامية التى تشبه وتد الخيمة ، كما ظهرت الأعمدة المربعة "الأزورية" والمربعة المحدبة "الحتحورية" الأسطوانية .

وقد أكد الكثير من خبراء الهندسة المعمارية ، ومن بين هؤلاء العلماء الفرنسيين الذين صاحبوا حملة بونابرت إلى مصر عندما زاروا طيبة ، أن الأعمدة المصرية هى أصل الأعمدة الأغريقية والرومانية [١]. وعندما زار "شامبليون" الكرنك وراعه مارأى قال:

"وأخيراً زرت بعض الآثار – الكرنك – فتمثلت لى عظمة "
"الفراعنه جمعاء على أكمل ما يتخيل خيال مبدع، وحسبى "
"أن أضيف أنه ليس ثمة شعب بين الغابرين والمعاصرين "
"قد بلغ فى فن العمارة ما بلغه قدماء المصريين من روعة"
"لا تدانى وجلال لا يضارع،ويكاد يكون ما عملوه لا يصدر إلا"
" عن عمالقة ارتفعت هاماتهم إلى مائة من الأقدام "[٢].

١- ثروت عكاشة، المرجع السابق ذكرة، ص ٤١٦ - ٣٩٦.
٢- ثروت عكاشة، المرجع السابق ذكره، ص

وقد صاحب ارتقاء العمارة، ارتقاء فنون النحت والتصوير. لقد كانت العمارة فى مصر الفرعونية عموماً ، قطب الرحى الذى قامت عليه جميع الفنون الأخرى، التى أخذت منذ ظهورها تمضىَ مساندة للعمارة، لتحقيق فن معمارى خالد. ففى الآثار المصرية تتجلى مصرية الفن المعمارى . ولعل هذا يفسر سيطرة المسحة الهندسية على التماثيل والصور .

ويرجع الفضل فى هذه النهضة الرائعة فى فنون البناء والتشييد، إلى ملوك الأسرة الثامنة عشر، ثم ملوك عصر الرعامسة ، الذين كان شغلهم الشاغل إقامة المبانى الهائلة ، هذا على الرغم من أنهم ضحوا بنقاء وبساطة خطوط وزخارف الأسرة الثامنة عشر ، من أجل الضخامة والثقل المفرط لما شيدوه من أبنية وما نحتوه من تماثيل [١] .

ولكن، وعلى الرغم من كل هذه الإنجازات، فإن جانب الخلق والإبداع فى عصر الدولة الحديثة، لايمكن أن يقارن بعظمة الخلق والإبداع الفذ الذى اتسم بها عصر الدولة القديمة، والتى تمثلها فى شموخ أزلى أهرام الجيزة.

التخصص وتقسيم العمل فى الصناعة :

غالبا ما كان العامل يكتسب مهنته بالوراثة عن آباءه وأجداده، وكانت الحرف تتجمع كل منها فى طائفة مثل حرفة التجارة والتنجيد وتلميع الأثاث.

بل كان التخصيص وتقسيم العمل، يحدث فى داخل الحرفة الواحدة. ومن الأمثلة على ذلك وجود نجار لصناعة المناضد والصوان، وآخر لصناعة الأبواب والنوافذ. كما كان هناك فصل بين عملية تلميع الأثاث ودهانه وبين صناعة الأثاث. كذلك كانت صناعة التماثيل تنقسم إلى عدة تخصصات، فكان هناك من يتخصص فى قطع كتلة الحجر، كما كان هناك الصانع أو الفنان الذى يعتمد على الأزميل فى تشكيل التمثال. وقد أبدى فراعنة مصر، ومن أشهرهم فى هذا الصدد "رمسيس الثانى" ، اهتماما

١- انظر لمزيد من التفصيل : Badawy A.,op cit. ,p. - 40 - 40 .
وثروت عكاشة، المرجع السابق، ص٠ ٢٤.

كبيرا ً بالنحت والمثالين الذين كانوا عادة يتبعون القصر أو المعابد أو أحد كبار رجال الدولة[١] .

ولكن يجب أن يكون واضحاً، أن مصر لم تعرف، نظام الحرف المغلقة الذى ساد فى العصور الوسطى. فقد كانت الحرف مفتوحة لكل من يرغب فى مزاولتها، والسوق هو فى النهاية الذى يحكم على مدى كفاءته وجودة إنتاج الشخص.

وكان عمال الصناعة يمثلون طبقتين مختلفتين. الأولى طبقة العمال المهرة المتخصصين، وكانوا يتمتعون بمركز اجتماعى متميز سمح لهم أن يصنعوا تماثيل لأنفسهم، كما كان للبارزين منهم مصاطب جنائزية. وقد شكل هؤلاء الطبقة البرجوازية منذ عصر الدولة الوسطى، وكانوا فوق كل هذا يحظون برعاية الملك. أما الطبقة الثانية من العمال فكانت خليطاً من المصريين وأسرى الحرب والمساجين[٢].

---

١ - محمد بكر ابراهيم ، المرجع السابق ، ص ١٥٦

٢ - ثروت عكاشة، المرجع السابق الذكر ، ص٣٤٢.

المبحث السادس
التجارة الداخلية والخارجية

تتناول فى هذا المبحث "التجارة الداخلية" ثم "علاقة مصر الاقتصادية" بالدول المجاورة .

أولا : التجارة الداخلية

بذل ملوك الدولة الحديثة ، جهوداً مستمرة ، لتأمين الأسواق الداخلية وكفالة استقرارها ، ولضبط الأسواق وحماية المعاملات .

لقد سبق أن رأينا، أن التنظيم الإدارى والقانونى الذى كان سائدا فى عهد الدولة الحديثة، كان يستلزم توثيق وتسجيل وشهر التصرفات التى ترد على العقارات والممتلكات الأخرى. كما كان يتعين ختم كافة الوثائق الخاصة بالتصرفات الخاصة بالعقارات. وكان وراء ذلك رغبة الدولة فى المحافظة على الثروة العقارية من ادعاءات المدعين، كما كانت تهدف إلى ضبط وحماية المعاملات واستقرارها .

ومع ذلك، وحماية للمتعاملين مع "المالك الظاهر"، أقر التنظيم القانونى القائم فى هذا العصر، أن وضع اليد على العقار لمدة طويلة، يمكن الاعتداد به فى إقرار الملكية[1].

كما كانت التشريعات السائدة فى عصر الدولة الحديثة، تضع عقوبات صارمة. بل عقوبات مفرط فى قسوتها أحياناً، لكل من يخل بأمانة التعامل فى الأسواق. وكان التشريع القائم يحكم بقطع اليد، على من يرتكب جريمة التطفيف فى الكيل أو الميزان، أو يزيف الأختام أو العقود أو يقوم بغش المتعاملين معه . كما كانت الدولة تفرض نفس العقوبة، على من يغير فى نصوص السجلات العامة.

هذا، وقد استمر استعمال الأختام فى العصور اللاحقة. فكانت الصناديق والحقائب والرسائل، وكذلك الجرار والأبواب تربط بالحبال ثم يوضع قدر من الصلصال على العقد، ثم تختم بالختم ، للقضاء على الغش فى التعامل .

---

١ - بترى، المرجع السابق، ص١٨٥ ١٩٩.

كما انتشرت ظاهرة وضع الأختام على بعض أوعية النبيذ، وكان الختم يميز نوع النبيذ واسم المنتج وتاريخ العصر الذى أنتج فيه، وقد شمل ذلك أنواع النبيذ الملكية الفاخرة.

ويؤكد بعض الباحثين، أن الشعور بضرورة محاسبة النفس، قد احتل حيزاً من عقل المصرى وتفكيره، فى عصر الدولة الحديثة، خاصة فى عصر أخناتون، نتيجة تأثير القيم النبيلة، التى اقترنت بعبادة "أتون"[1] ، الأمر الذى ترك أثراً محموداً على سلوك الأفراد و ما ينشأ بينهم من معاملات .

وكان الملوك وموظفى الدولة، يحرصون دائماً على نشر الأمن والطمأنينة، بين الناس[2] ويقومون بالرقابة المستمرة على الأسواق.

دعم وتنمية التجارة الخارجية :

رأينا فيما سبق ، أن ملوك الدولة الحديثة، وبصفة خاصة الملكة " حتشبسوت " والملك " تحتمس الثالث " قد عملوا على التوسع فى علاقات مصر الاقتصادية بالدول المجاورة وخاصة بلاد " بنت "، ودول الساحل الفينيقى وبلاد ما بين النهرين، فضلا عن جزر البحر المتوسط مثل قبرص وكيريت، وإيران والأنضول .

ومن أهم ما أقدمت عليه الدولة الحديثة لتحقيق الأهداف السابقة:

١- تنظيم موانى الساحل الفينيقى، وتأمين حصول هذه الموانى على حاجتها من المواد الغذائية مثل الخبز بأنواعه، وزيت الزيتون والنبيذ والعسل والبخور . حتى أصبح من الأمور المعتادة ، تردد سفن مصر مستمرة ، على موانى الساحل الفينيقى .

٢- ترسيخ نفوذ مصر فى كافة أرجاء الإمبراطورية بالقوة العسكرية، ثم من خلال العلاقات الاجتماعية وعلاقات المصاهرة، مع أمراء وحكام دويلات غرب آسيا وبلاد الرافدين، والعناية بتأمين طرق التجارة.

---

١ - بزى، سبق ذكره، ص١٨٦، ص١٩٨.

٢ - بزى، سبق ذكره، ص١٨٥.

٣- انتشار موظفى الدولة وضباط وجنود الجيش والمواطنين العاديين المصريين فى كافة أرجاء الإمبراطورية، الأمر الذى أدى إلى دعم وتقوية الصلات التجارية بين المصريين والتجار الأجانب من أبناء المستعمرات [1].

ومن أهم الأهداف الى سعت مصر إلى تحقيقها من خلال علاقاتها الاقتصادية الخارجية، ما يأتى : -

١- توفير حاجة الأسواق المصرية من بعض السلع التى لاتتوافر داخل البلاد، مثل الأخشاب الجيدة والزيوت والجلود والبخور والفضة والعاج والزيوت وجلود الحيوانات.

٢- تنمية وتطوير الزراعةَ والحرف المصرية . فقد حرص ملوك هذا العصر، خاص الملك " تحتمس الأول " والملكة " حتشبسوت " والملك " تحتمس الثالث "، على جلب النباتات والأشجار والحيوانات والطيور، هذا بالإضافة إلى بعض المنتجات الصناعية، التى اشتهرت بها بلاد الشام، مثل الأوانى والكوش، كما سبق أن رأينا فى الفصول السابقة.

٣- ولتحقيق الأهداف السالفة الذكر، عمل بعض الملوك علىُ جلب الصناع المهرة من منطقة الهلال الخصيب. إذا اتسم عمال هذه المنطقة، بدرجة عالية من المهارة والذوق فى إنتاج بعض المنتجات الصناعية. وكان بعض ملوك مصر فى هذا العصر، يفضلون جلب هؤلاء الصناع، على اقتضاء الجزية المالية فى الممالك التى كانت تدين لهم بالطاعة والولاء ومن المؤكد أن هؤلاء الصناع، قد اضفوا على المنتجات والتماثيل المصرية، مسحة من الرق لم تكن معروفه من قبل [2].

١- أهم الوثائق التاريخية فى هذا الشأن بحموعة "رسائل العمارنة"، ونقوش وصور معابد ومقابر عصر الدولة الحديثة،خاصة معبدى الكرنك والدير البحرى، أنظر ايضا: عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر القديمة، ص ٢٢٤ - ٢٤٢، وأحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٢٦٦ - ٢٩٥، خاصة ص ٢٨٢-٢٨٣و٢٨٨-٢٨٩ .

(٢) صبحى الشارونى، فن النحت فى مصر القديمة وبلاد النهرين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٠، ص٢٦٧ - ٢٦٨

٤ – تصدير المنتجات المصرية لهذه الأسواق، سواء فى ذلك المنتجات الزراعية أو الصناعية أو بعض المواد الخام. ومن بين السلع المصرية التى كانت تحرص الأمارات المجاورة على استيرادها، المنسوجات الكتانية والنبيذ والغلال . وقد اتسم ملوك منطقة الهلال الخصيب، برغبتهم الشرهة فى الحصول على ذهب مصر ، الذى كان وفيراً جداً فى هذا العصر، لاستخدامة فى صناعة الأوانى والكؤوس وبعض العجلات الحربية التى كانت تصفح بالذهب .

وفى بعض الأحيان ، كانت مصر تمد يد المعونة لبعض الأمارات المجاورة ، كلما مرت هذه الأمارات بأزمات اقتصادية ، نتيجة قصور إنتاج هذه البلاد من الغلال ، كما سبق أن ذكرنا .

ومن بين الأهداف التى سعوا إلى تحقيقها خلال هذا العصر من التوسع فى المبادلات التجارية والاقتصادية الخارجية مايأتى :

١– استيراد الكثير من السلع من الجنوب ومن منطقة الشام وجزر البحر المتوسط. وكان من الأمور المعتادة تردد سفن مصر بصفة مستمرة على موانى الساحل الفينيقى :

١/١– اهتمام الملكة "حتشبسوت" بالجنوب وبلاد بونت لاستيراد الجلود والأخشاب وغير ذلك من سلع المنطقة .

٢/١– تركز اهتمام "تحتمس الأول" ومن تبعه من الملوك، باستثناء "حتشبسوت" على المنطقة الممتدة من فلسطين إلى الشام إلى نهر الفرات وجزر البحر المتوسط، مثل قبرص وكريت [(١)] .

٢– وكان ملوك هذه المنطقة، يتسمون برغبة شرهة فى ذهب مصر، الذى كان وفيراً، يفرض استخدامه فى صناعة العجلات الحربية المصفحة بالذهب ، أو فى صناعة الأوانى والكؤوس الذهبية والحلى.

١– يحتمل أن مساعدة مصر لكريت فى تطهير هذه الجزيرة من فلول الهكسوس ، كانت من الأسباب التى قوت علاقة مصر بها، لدرجة أن "الملكة إعح حوتب" ، إحدى ملكات الأسرة الثامنة عشر ،كانت تسمى نفسها ملكة كريت . أحمد فخرى، المرجع السابع ذكره، ص ٢٦٨، أحمد فخرى، المرجع السابق، ص ٢٧٥–٢٨٤.

٣- حرص مصر على استيراد النباتات والأشجار والحيوانات التى لم تكن معروفة فى مصر لتربيتها. وهذا ما فعلته "حتشبسوت" فى الجنوب من بلاد بونت "وتحتمس الثالث" بالنسبة من ممالك غرب آسيا.وكان من بين ما تم استيراده من هذه البلاد وإدخاله مصر، الدجاج والرمان .

٣/١- أمرت حتشبسوت بنقل بعض الأشجار من بلاد بونت [1] لزراعتها فى حديقة معبدها .

٣/٢- أمر تحتمس الثالث رجاله بأن يدخلوا إلى مصر كل ما يجدونه صالحاً من حيوانات أو فواكه أو زراعات . وتحفل جدران معبد الكرنك بصور ما كانت تجلبه مصر من هذه الحيوانات والنباتات [2] .

١- كانت تشمل الصومال وجنوب بلاد العرب.

٢- أحمد فخرى، مصر الفرعونية، الطبعة الثانية، القاهرة، اكتوبر ١٩٦٠، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، ص ٢٦٧،٢٦٨.

ملحق

مقتطفات من بردية " الحكيم أبيدور "

مقتطفات من بردية " الحكيم ابيدور ":

وفى بصر فاحص يسرح الحكيم نظـرة علـى حيـاة سكان وادى النيـل المنظمـة يوجد كل شئ فى ارتباك . " لقد وقف دولاب الحكومة على التقريب . إن قوانين ساحة القضاء قـد ألقـى بهـا فـى مهـب الريـح ، والنـاس يمشـون فوقهـا فـى الأمكنـة العامـة، والفقراء يفضونها فى وسط الشوارع" . وفى الواقع يصل الرجـل الفقـير (بهـذا) إلـى قـوة التاسـوع الإلهـى، إن إجـراء منـازل الثلاثيـن (قاضيـاً) والقديـم (المحـترم) قـد افتضح. وفى الواقع (ازدحمت) ساحة القضاء العظيمة والفقراء يذهبون ويجيئـون فـى المنازل العظيمة (محاكم القانون) (٦،٩-١٢) "أما عن ساحة القضاء (الرائعة) فـى الواقع، فإن كتابتها قد حملت بعيداً ، والمكتب الخـاص الـذى كـان موجـوداً قد كشـف للعيان ...فى الواقع، فتحت مكاتب المصالح وحملـت كتاباتهـا بعيداً [1] (وعلـى ذلـك) يصبح عبيد الأرض سادة (عبيد الأرض) . وفى الواقع، يذبح الموظفون ، وكتابـاتهم تحمل بعيداً. الويل لى لتعاسة هذا الزمن . والواقع، أن كتـاب (المحصـول) ، ترفـض كتاباتهم ، وحنطة مصر ملك تعطى لأى قادم" (٦،٥-٩) " أنظروا : إن مجالس الأقـاليم فى البلاد تطرد من البلاد ، والـ... تطرد من البيوت الملكية " (٧،٩-١٠) .

إن انحلال الحكومة هذا، يرجع سببه إلى حالـة عنـف وحـرب داخـل البـلاد. إن الرجل يضرب أخاه من ام واحدة . ماذا يجب أن يصنـع ؟" "انظـروا : إن الرجـل يذبـح أخيه، بينما هو (الأخ) (يهجره) لينقذ أعضـاءه. هو "(٣،٩) " إن الرجـل يعتـبر ابنـه عدواً له " (٥،١) " يذهب رجل ليحرث ، حاملاً درعه...وفى الواقع ... الرامى بالقوس على استعداد، إن العنف فى كل مكان . لا يوجد رجل الأمس " (٢،٢) " أنظـروا الرجـل (الذى يظفر) بسيدة نبيلة كزوجة ، وأبوها يحميه، وذاك الذى دون (مثل هذه الحمايـة)، أنهم يذبحونه، (٨،٨-٩) " إن الدم فى كل مكـان، لايوجـد (انعدام) للمـوت، إن أكفـان (الميـت) تتحدث، قبل أن يأتى المرء بالقرب منهـا، " (٦،٢). "انظـروا: إن رجـالاً

١- كان هذا على الأخص فظيعاً من وجهة النظر المصرية التى تتصف بحب النظام إن سحب الكتابات والسجلات من المكاتب العامة لأجل الحصول على أدلة أو الرجوع إلى ما فيها كان له قواعد تعنى بوصفها . ولقد بقيت لدينا القواعد ، التى يسير بموجبها، مكتب الوزير. راجع . س . م . ب (٢) ، ٦٨٤.

قلائل خارجين على القانون يحاولون سلب أرض الملك . أنظروا : إن الناس يحاولون القيام بثورة ضد اليورايس [1] (الثعبان المقدس) ... الذى يقيم السلام فى القطرين" (٢،٧-٤) . " وفى الواقع ، إن فيله و(طنية) هما (ممتلكات) مصر العليا، و(لكن) الحرب الوطنية لا تدفع خراجاً" (٣،١٠-١١).

وإلى هذه الحالة من انحلال النظام والثورة فى الداخل، تضاف أهوال الغزو الأجنبى . "وفى الواقع، توجد الصحراء فى البلاد. وأقاليم (مصر) أتى عليها التخريب. وحاملو الأقواس يأتون إلى مصر" (١،٣) . " وفى الواقع ، إن مستنقعات (الدلتا) فى كل الأنحاء غير مخبوءة . ومع أن مصر السفلى تفخر بطرقها العامة المطروقة، ماذا يجب أن يفعل؟ ... أنظروا : إنها فى يد أولئك الذين لم يعرفوها ، كأولئك الذين عرفوها. إن الآسيويين ماهرون فى صنعة المستنقعات " (٤،٥-٨).

وبعد أن أصبحت فريسة للفوضى الداخلية والثورة، وعاجزة أمام غزوات الآسيويين على تخوم الدلتا الشرقية، فإن ممتلكات مصر تدمر، وعمليات البلاد الاقتصادية تتوقف . " أنظروا، كل مهرة الصناع، انهم لا يعملون . إن أعداء البلاد افقروا حرفها. أنظروا ، إن ذاك الذى حصد الحصاد لا يعلم شيئاً عنه، وذاك الذى لم يحصد يملأ مخازن غلاله . عند ما يقع الحصاد، فإنه لا يبلغ عنه. إن الكاتب (يكسل فى مكتبه، لا يوجد عمل لأجل) يديه فيه ". (٩،٦-٨) . " وفى الواقع ، عندما يفيض النيل، لا أحد يحرث لأجله (النيل) . وكل انسان يقول : لا نعلم ماذا حدث فى البلاد "، (٣،٢)." أنظروا : لقد تركت الماشية تشرد . لا يوجد أحد يجمعها معاً كل إنسان يحضر لأجل نفسه، هذه التى وسمها باسمه " (٩،٢-٣). وبما أن اللحم يتوارى، على هذا النحو ، فإن الناس يأكلون الأعشاب ويبتلعونها بالمياه " .... وفى الواقع، أصاب الحنطة الفناء فى كل جانب . والناس يحرمون من الملابس و(العطور) وزيوت الطيب. كل الناس يقولون : " لايوجد شئ منها. إن الحرب الأهلية لا تدفع ضرائب . وقدر يسير يوجد من (الحنطة) والفحم الحجرى ... [2] شغل مهرة الصناع .... لأنه : ما هي الخزانة دون مواردها؟ " (٣،١٠-١١).

١- يواريس- الكتابة اليونانية لاسم الثعبان اعرت، تقابله فى العربية عزند، وهو (حية عظيمة تأكل الحيات-الدميرى) المترجم.
٢- ويلى هذا ذكر ثلاثة أنواع من الخشب .

وفـى مثـل هـذه الأحـوال الاقتصاديـة، فـى الداخـل، تتدهـور التجـارة الخارجيـة وتتوارى . " النـاس لا يبحرون صوب الشمال إلى (ببلوس) فى هذا الزمن . ماذا نصنع بخشب السدر اللازم لمومياواتنا، بالتحية التى يدفن بها الكهنة وبالزيت الذى يحنط بـه (الأمراء) حتى إلى كفيتو[1] . إنها لا تعود بعد الآن . ويندر وجود الذهب وقد انتهت كـل الحـرف .. يالـه مـن أمـر عظيم ، إن أهـل الواحـات (لايزالـون) يـأتون حـاملين محصولهم للأعياد ! " (٣،٦-٩) [2] .

مثل هذه الأحوال ، يمكن توقعها، لأن الأمن العام للنـاس والسـلع التجاريـة قد زال. " ولو أن الطرق تقوم عليها حراسة، إلا أن الناس يجلسـون فـى الأدغـال إلـى أن يأتى المسافر الذى دهمه الظلام حتى يستولوا على ما يحمل . إن ذلك الذى معه يؤخـذ منـه . وتكال لـه الضربات بالعصا، ويذبح بقسوة " (٥،١١-١٢) " والواقـع ، أن البـلاد تدور (نظام الأشياء ينقلب) كما تفعل عجلة صانع الفخار . إن ذاك الذى كـان لصـاً هـو سيد الثـورة و(الرجـل الغنـى) هـو (الآن) شـخص انتهـب " (٢ ، ٨ - ٩) " وفـى الواقع ، حطمت صناديق الأبنوس وكسـر خشب اللبـخ الفـاخر إلـى قطـع مـن (خشـب الحريق) (٣ ، ٤ - ٦) . وفى الواقع ، إن البوبات والعمد و (الحيطان) قد حرقـت " (٢ ، ١٠) وكمـا فـى اغنيـة عـازف القيثـارة ويـأس كـاره البشـر ، فـإن إمـدادات الموتى تنتهك ولاتهدف لغرض " . " انظروا ، ولو أن المرء يدفن كنسر (ملكى) على النعش فإن ذاك الذى كان الهرم يخفيه (الضريـح) أصبـح خاويـاً (٧ ، ٢) . وحتـى عندما لا تحترم القبور الملكية ، فإن الناس لايبذلون إلا القليل مـن الجهـد لبنـاء قـبر ، وفى الواقع ، كثير من الموتى يدفنون فى النهر ، والجدول هو قـبر . ومكـان التحنيـط "أصبح جدولاً " . (٢ ، ٦ - ٧) . " وأولئك الذين كانوا فى مكان التحنيط يلقـى بهـم علـى الارض المرتفعـة " (بـدلا عن قـبر) (٤ ، ٤) " انظـروا : إن أصحـاب القبـور يطردون على الارض المرتفعة " .

١- تنطق كفيتو ، كفتور (كما اقترح شبيجلبرج أولا) أى كريت .

٢- هذه الملحوظة الأخيرة هى بالطبع تهكمية، بالإشارة إلى الحقيقة الواقعة وهى أن التجارة الوحيدة مع العالم الخـارجى التى تركت لمصر هى نتاج الواحات الضئيل الذى كان لايزال يتسرب .

وهكذا ، كما يوحى تشبيه دولاب صانع الفخار ، فإن كل شىء انقلب رأساً على عقب. وقد أتت على الاحوال الاجتماعية ثورة تامة . وفى أطول سلسلة من النطقات – وكلها متشابهة التركيب ، فى الوثيقة – يستعرض الحكيم الأحوال التى طرأ عليها التغير، فيما يتعلق بأفراد معينين وطبقات المجتمع . وكل نطقة تقابل ما كان ، بما هو الآن. " أنظروا : إن ذاك الذى لم يكن لديه زوج من الثيران فإنه (الآن) مالك قطيع، وذاك الذى لم يكن يخد ثيران محراث أن يتسول لنفسه هو (الآن) صاحب قطيع . أنظروا : أن ذاك الذى لم يكن لديه حنطة هو (الآن) صاحب مخازن غلال ، وذاك الذى اعتاد أن يجلب الحنطة لنفسه فإنه (الآن) يعمل على صرفها (من مخزنه الخاص) " (٩،٣-٥)" انظروا : إن صاحب الثروة (الآن) يمضى الليل عطشان (بدلا من اقامة الولائم)، وذاك الذى اعتاد لنفسه ثمالاته هو الآن صاحب كؤوس (فياضة) أنظروا : إن أصحاب الحلل أصبحوا (الآن) فى أسمال، وذاك الذى لم يكن ينسج لنفسه هو (الآن) مالك التيل الرقيق " (٧،، ١٠ – ١٢) . وهكذا ، يسير الحكيم من مقابلة إلى الأخرى . وفى مثل هذه الحالة ، فإن المجتمع يسير إلى دمار . " الرجالة قلة ، وذاك الذى يطمر زميله فى الارض ، موجود فى كل مكان " (٣ ، ١٣ – ١٤) " يوجد نضوب فى النساء ولايوجد حبل فى (أطفال). إن خنوم (خالق الإنسان) لايصنع (الناس) بسبب حالة البلاد " .

وفى الخراب العام ، فإن التدهور الخلقى يجىء بين ثناياه ، ولو أنه لايؤكد على انه سبب التعاسة العامة . "إن رجل الفضائل يسير فى حداد بسبب ما حدث فى البلاد " (١ ، ٨) . ويقول آخرون "لو كنت أعلم أين يوجد الإله ، إذن لكنت قدمت القرابين إليه " (٥ ، ٣) . " وفى الواقع توجد (الاستقامة) فى البلاد (فقط) فى اسمها هذا ؛ وما يفعله الناس فى الرجوع إليها هو الجور "[1] (٥ ، ٣ –٤). ولاعجب فى انه يوجد يأس عام " فى الواقع قد زال المراح ، إنه لايصطنع بعد الآن،

---

(١) إن وضع لفظ " استقامة " يرجع إلى زيته ، وبالنظر إلى بحيثه كثيراً كنقيض للكلمة المستعملة هنا " جور " (اسفت) ، من نصوص الأهرام فصاعداً ، فإن وضع اللفظ يناسب النص مناسبة رائعة ولكن جاردنر يذكر أن الآثار الموجودة فى الفراغ لا تتوافق مع هذا اللفظ ؛ ولاتتضمن طبعته النص الأصلى الهيراطيقى .

انـه التنهد ذاك الذى يوجد فى البلاد ، يختلط بالنواح " (٣ ، ١٣ - ١٤) " وفى الواقع، (يقول) العظيم والوضيع : أتمنى أن اموت ، وصغار الصبية يقولون : لكنت أرجو أنه لايوجد أحد يحفظ لى حياتى " (٤ ، ٢ - ٣) " وفى الواقع ، كل الماشية الصغيرة ، تبكى قلوبها ، إن الماشية تتنهد بسبب حالة البلاد " (٥ ، ٥) إن الحكيم لا يمكنه أن يرى هذا كله ، دون شعور منه بأن الكارثة العامة تؤثر فيه ، ايضاً تأثيراً عميقاً ، ويرجو انتهاء كل شىء . " إنى لأرجو أن تحل نهاية الناس ، وألا يوجد حمل، أو ميلاد . أو دلو أن البلاد تكف عن الضوضاء ، والصراع لا يكون له وجود بعد الآن" (٥ ، ١٢- ٦،١) . ويبلغ به الأمر أن يرجع باللائمة على نفسه ، لأنه لم يحاول أن ينقذ الموقف قبل ذلك . "ليتنى أعليت صوتى فى ذلك الوقت، حتى يمكن أن يخلصنى من الألم الذى أوجد فيه " (٦ ، ٥) " الويل لى للتعاسة فى هذا الزمن ! "(٦،٨).

هذه هى الصورة القائمة التى يصورها الحكيم المصرى . ويجب أن يعتبر هذا الاتهام ، الذى يشغل ، كما قلنا ، ثلثى الوثيقة على التقريب كما هى محفوظة ، انه يعرض الأحوال التى سادت مصر فى زمن محدد كل التحديد . إن العلاقة الوثيقة فى اللغة والفكر ووجهة النظر بين عجالة أبوور هذه ، والكتيبات الاجتماعية الأخرى - المعروف أنها تنتمى إلى عصر الاقطاع - لا يترك مجالاً للتساؤل فيما يتصل بتاريخ وثيقتنا . إن حالة مصر ، التعسة التى يصورها الحكيم لابد انها كانت توجد فى الحقبة الغمضة التى لايعرف عنها إلا القليل ، تلك التى سبقت مباشرة عصر الاقطاع (الدولة الوسطى) .

وكما يمكن أن يتصور من الحزن البالغ الذى يرى فيه أيوور تعاسة الزمن فإنه لايرضى بأن يترك جيله فى هذه الحالة التى لا رجاء فيها . إنه ، الآن ، يتحول إلى الوعظ ويحض مواطنيه أولا أن يحطموا أعداء الملك . وتبدأ خمس نطقات قصار (٦،١٠ - ١١) بالكلمات : "حطموا أعداء المقر ذى الجلال" (مقر الملك)، ولو أن

البردية متناثرة الأجزاء فى هذه المرحلة لدرجة بالغة حتى أنه لايمكن أن يحدد فى وضوح ما كان يجيء بعد كل ترديد للأمر . ويتبع هذا ثمانية أوامر متشابهة ، على الأقل ، وكل واحد يبدأ بكلمة " تذكر " (١٠ ، ١٢ - ١١ ، ١٠) ويدعى كل الناس لمواصلة القيام بالشعائر المقدسة بالنيابة عن الآلهة . إن هذه المجموعة الثانية من المواعظ يكتنفها غموض ، لاينى يتزايد ، كلما ازدادت حالة البردية متناثرة الأجزاء سوءاً . ومن نهاية فراغ كبير [١] ، تبرز أهم عبارة فى حديث الحكيم بأجمعه ، وهى واحدة من أهم العبارات فى مدى الأدب المصرى كله .

---

(١) الجزء الأخير من ص : ١١.

فى هذه النقطة الرائعة ، يتطلع الحكيم إلى إصلاح البلاد ، دون ريب كنتيجة طبيعية للنصائح عن الإصلاح التى وجهها إلى قلوب مواطنيه . إنه يرى الحاكم المثالى الذى يتشوق إلى مجيئه . إن ذلك الملك المثالى حكم مصر ، مرة بوصفه إله الشمس ، رع . وعندما يتذكر الحكيم ذلك العصر الذهبى فإنه يعقد مقابلة بينه وبين الحكم الجائر الذى وقعت البلاد بين براثنه . " إنه يبرد أوار اللهب . يقال إنه راعى [1] كل الناس .. لا يوجد سوء فى قلبه . عندما تكون قطعانه قليلة ، فإنه يمضى النهار فى لم شملها ، إذ أن قلوبها تتقد [2] . ليته كان قد تبين خليقتها فى الجيل الأول . عند ذاك كان ليضرب السوء . ولكان قد مد ذراعه ضده . ولكان قد ضرب (بذرته) وإرثهم ... أين هو اليوم ؟ هل ربما يكون قد أخذته سنة من النوم ؟ انظروا ، " إن قوته لا ترى" (١١، ١١ - ١٢ ، ٦) .

وبينما لا يوجد عنصر خبرى ، دون ريب ، فى هذه العبارة ، فإنها صورة للحاكم المثالى ، للوالى القويم الذى " لا يوجد فى قلبه سوء " ويسير هنا وهناك أشبه "براع " يجمع قطعانه التى نقصت وأخذ منها العطش . لقد قام هذا الحكم القويم ، الذى يشبه حكم داود ، ويمكن أن يقوم مرة أخرى . إن عنصر الأمل فى أن مجىء الملك الصالح قريب ، لا يتطرق الخطأ إليه فى الكلمات النهائية : " أين هو اليوم ! هل ربما يكون قد أخذته سنة من نوم ؟ انظروا : إن قوته لا ترى " وبهذه النقطة الأخيرة، يضيف المرء ، دون طواعية ، " حتى الآن " . إن مغزى الصورة الخاص هو فى واقعة معينة - إذا لم تكن خاصة بالبرنامج الاجتماعى فعلى الأقل بالمثل العليا الاجتماعية - هى أن الحلم الذهبى الذى يراود مفكرى هذا العصر السحيق كان قد تضمن الحاكم المثالى الذى لا تشوب خليقته شائبة وله أغراض خيرة ويتحدب على خاصته ويحميهم ويحطم الأشرار . وسواء أكان مجىء هذا الحاكم قد تنبأوا به أم لم

(١) أو " راعى قطيع ". يطلق على إله الشمس " راعى قطيع ، شجاع ، يسوق ماشيته " ، فى إنشود للشمس ترجع إلى الأسرة الثامنة عشرة (راجع ما يلى فى الفصل التاسع) وهذا ، كما يظهر لى ، يجعل من المحقق تماما النتيجة التى وصل إليها جاردنر (مستنداً إلى أسباب أخرى) من أن هذه العبارة وصف لحكم رع .

(٢) من المرجح أن معنى هذا ، عطشى ، وربما كان الوصف رمزاً للمفجوعين . وازن : قلوب الماشية (تبكى) .

يتنبأوا ، فإن رؤيا خليقته وعمله قد رفعها هنا عالياً ، دون أن يتسرب إلى ذلك خطأ، الحكيم القديم – رفعها بمحضر الملك العائش وأولئك الملتفين حوله حتى يمكنهم أن يروا شيئاً من سنائها . إن هذا بطبيعة الحال ، هو الاعتقاد برسول (مسيا) سبق ، بقرابة ألف وخمسمائة عام ، ظهوره بين العبرانيين [١] .

(١) إن لا نجى Lango هو أول من لفت النظر إلى خصيصة " انتظار مسيا " فى هذه العبارة . ومع هذا ، فإن تفسيره كان أن العبارة تتنبأ بصفة قاطعة عن مجئ الملك الذى له صفة " مسيا " . وقد عارض جاردنر ، بنجاح ، نتائج لا نجى فيما يتعلق بالتنبؤ. وبشرحه المستوفى الدقيق ، أضاف الكثير إلى ما يساعدنا على فهم العبارة . ولكن لا يستطيع أى باحث فى النبوة العبرية أن يتبع جاردنر فى خطوته التالية وهى انه باستبعاد عنصر التنبوء تحرم الوثيقة من خصيصتها التنبولية . إن هذا معناه ببساطة جلب معنى إنجليزى حديث للفظ (نبوءة Prophecy) على أنه (تكهن ، Prediction) فى تفسير هذه الوثائق القديمة، وخاصة الأدب العبرى . واستنتاج جادنر الأخير هو " يجب مرة أخرى أن أؤكد أنه لا يوجد أثر محقق أو حتى محتمل للتنبوات فى أى جزء فى هذا الكتاب " (Admonitions – النصائح ص . ٧أ) ويذكر فى نفس الفقرة " المسألة المعينة " فى الوثيقة هى " أحوال صلاح الحال الاجتماعية والسياسية " إن هذا ، بطبيعة الحال ، موضوع النبوة العبرية الرئيسى . وعلى أساس أى تعريف للنبوة العبرية بما يتضمن التأمل فى المساوئ الاجتماعية والسياسية والنصائح لتحسينها فإن نطقات ابوررهى نبوه (راجع مايلى فى منتصف الفصل السابع) وفيما يتعلق بالعبارة " المسياوية " فإن خصيصتها " المسياوية " لا تعتمد أقل اعتماد على خصيصتها التكهنية . إن جاردنر ، بكل تأكيد ، على صواب (ضد لانجى) فى اعتباره الاتهام العلنى الطويل غير تكهنى ولكنه وصف لأحوال موجودة فعلا . إن النصائح التى تعقبه ، على أيه حال ، تتطلع للمستقبل بصفة قاطعة ، وفيه يتوقع الحكيم أن الناس ينفذون أوامره . وتأتى العبارة " المسياوية " مباشرة بعد هذه النصائح ، ويعقبها تأنيب للملك يندمج فى صورة تصف ، على حد قول جاردنر " فرح ورخاء البلاد فى عصر أسعد " (شرحه ص ، ٨٧) . وفى الواقع ، فى نفس ألفاظ جاردنر تختتم العبارة " المسياوية " " بالعودة إلى النظر فى آمال مصر المستقبلة " وعلى ذلك ففى النهاية " نلمس أرضا ثابته فى ثلاث جمل تشير بوضوح إلى المخلص المنتظر (وليس بالضرورة المتنبأ عنه) " اين هو اليوم ؟ هل ربما يكون قد أخذته سنة من نوم ؟ أنظروا ، إن قوته لا ترى " (شرحه ص : ٨٠) والقوسان قوسا جاردنر : وما يعنيه هو بطبيعة الحال أن "المخلص" يتطلع إليه ولكن ليس بالضرورة يتكهن به . إنه فقط هذا التصور غير المستوفى عن النبوة العبرية " كتكهن " هو الذى يجعل جاردنر يصل إلى النتيجة ، " إنه يوجد الكثير من عدم التيقن عن المسألة لكى تجعل الاساس لأية نتائج بعيدة المدى من حيث تأثير المصريين على الأدب العبرى ، (شرحه ص ١٥٢) . إن " عدم التيقن " كما يحدده هنا جاردنر ، يتعلق بتفسير لانجى للعبارة " المسياوية " على انها تكهنية ولو أنه ، طبقاً لجاردنر يتطلع الجزء الأخير من العبارة "المسياوية " إلى " مخلص " يتوقع مجيئه . إن رؤيا انتظار مسيا عند الانبياء العبرانيين لم تكن فى الكثير الغالب إلا رجاء عظيما يرتفع أحيانا إلى مرتبة العقيدة بأن الأمل يتحقق . إنها كانت الرؤيا التى رغبوا فى أن يضيفوا إلى ما يأتى بتحقيقها و لم تكن إلا صورة قديمة للمثل الأعلى الاجتماعى الذى بدأ فيما يتضح (إلى الحد الذى يصل إليه علمنا) فى مصر وظهر فى صورة عالية بين العبرانيين كذلك. إن انعزالا فريدا فى نوعه وقدرة على تأمل المجتمع ، ظهرتا لأول مرة فى التاريخ فى العصر الاقطاعى فى مصر ، إنتجتا هذه العجالات الاجتماعية التى أتينا على شرحها ، آنفاً و إذا كانت قصة الأخوين ، بعد قرون من ذيوعها فى مصر ، قد وصلت فلسطين لتجد كياناً لها فى قصة يوسف ، فإنه أكثر من المحتمل أن كتيبات ابورور ورجال طبقته دخلت فلسطين وأوحت إلى رجال المثل العليا فى ذلك المكان تصور الملك القويم والمخلص . وربما يجب أن أضيف بأن جاردنر – فى رسالة بعثها إلى – يتخلى عن التكهن كمكون " للنبوة " ولكن كان على أن أعالج دليله كما وجدته فى سفره الذى يدعو إلى الإعجاب .

وفى ذهن الحكيم ، تستدعى المقابلة المروعة بين حكم الملك المثالى وحكم فرعون العائش ، الذى يقف الآن فى حضرته ، أعنف استنكار لملكة وعلى غرار ناثان[1] ، بعبارته اللاذعة " إنك الرجل " ، فإنه يضع المسئولية عن كل ما أعاده للذاكرة فى مثل هذا الوضوح ، على عاتق الملك .

إنه يقول " الذوق والمعرفة والاستقامة لديك "، (ولكن) " إنه الصراع ذاك الذى تجلبه فى البلاد ومعه صوت الاضطراب . هاهو ذا الواحد يهاجم الآخر. إن الناس يسيرون وفق ذاك الذى أمرت به . و إذا سار ثلاثة رجال فى طريق ، يوجدون اثنين (لأن) أولئك الكثرة يذبحون القله . هل يوجد راعى قطيع يحب الموت (أى من أجل قطيعه)؟ لأى سبب تأمر بالاجابة: " إنه بسبب أن رجلا يحب (ولكن) آخر يكره"....(كلا ، إنى أقول) إنك فعلت (هكذا) لتجلب هذه الامور . لقد نطقت بالاكاذيب " (١٢،١٢-١٣،١٣) وبعد أن كذب الملك، على هذا النحو، رداً على إجابته المفترضة ، يعود الحكيم لحظة إلى وصف حالة المجتمع الكئيبة التى شغل بها فى اتهامة الطويل . ومع هذا ، فإن تقدم فكره يتجه صوب إصلاح الحال فى المستقبل الذى كان ينصح به بعد ختام الاتهام واستنكاره المرير للملك . والآن ، على هذا فإن التعاسة المسئول عنها تندمج فى صورة نهائية من " الفرح والرخا " (١٣،٩- ١٤،٥) فى ثمانية موشحات يبدأ كل منها بمصراع ذى معنى غير محقق إلى حد ما .

وقد أتم الحكيم خطابه الطويل . ويجيب الملك الآن فعلا ، ولو أننا لا نستطيع استخلاص اجابته من الشذرات المكسورة فى الصحيفة المهشمة التى تظهر فيها ، ويلى هذا رد موجز من أبوور يستهل بما يلى : " ذلك الذى قاله أبوور عندما رد على صاحب الجلالة " . إنه رد غامض جداً ولكن يظهر أنه أيذكر الملك فى تهكم بأنه لم يفعل إلا ماكان يرغب فيه خمود وعدم مبالاة جيل فاسد . وهنا ، كما يوضح جاردنر ، ربما ينتهى العجالة .

---

(١) إن جاردنر لحظ التشابه .

كلمة أخيرة ...



ايــزيــس ....

ايتها الام الرؤوم يارمز الحب والوفاء والخــير ....

تذرفــين الدمــع منـــذ قــرون ، تعــود إلى عهــود

سحيقة،لاتعيها الذاكرة.......فمتى تكفين عن البكاء

ونرى على محياك بسمة للحياه........

أ.ر.م

الجيزة ، مدينة المهندسين : خريف ١٩٩٧

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٣٥٨٩ / ١٩٩٧

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 235 - 946 - 4)

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٤٥٩٩ - ١٩٩٧ - ١٠١٤

المـؤلف :

الأستاذ الدكتور أحمد رشاد موسى ، أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة ، ورئيس لجنة الشئون المالية والاقتصادية بمجلس الشورى .

١ - تخرج من كلية الحقوق بجامعة القاهرة فى عام ١٩٥٤ ، ثم حصل على دبلومى الدراسات العليا فى الاقتصاد السياسى والاقتصاد التطبيقى من نفس الكلية ، فى عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، وعلى درجة الماجستير فى الاقتصاد (M.Sc Econs.) من مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية London School of Economics University of London ، وذلك فى عام ١٩٦٢ ، وعلى دكتوراه الفلسفة (اقتصاد) PH.D (Econs.) ، من جامعة ريدينج بالمملكة المتحدة University of Reading (U.K) ، فى عام ١٩٦٧ .

٢ - عين بعد تخرجه بالنيابة العامة ، ثم عمل مندوباً بمجلس الدولة ، ثم معيداً بقسم الاقتصاد بكلية الحقوق جامعة القاهرة ، ثم مدرساً ، ثم أستاذاً مساعداً ثم أستاذاً بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة .

٣ - عضو المجالس القومية المتخصصة ، والمجلس الأعلى للثقافة ، ومقرر لجنة الاقتصاد بالمجلس الأعلى للثقافة ، ومدير تنفيذى بالمصرف العربى للتنمية الاقتصادية فى أفريقيا .

٤ - سبق أن شغل منصب نائب ورئيس بنك التنمية الأفريقى A.D.B بابيدجان بدولة الكوت ديفوار ، كما عمل كمستشاراً وخبيراً اقتصادياً بمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة UNESCO ، ومنظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية UNIDO ، وبالجهاز المركزى للتدريب والجهاز المركزى للمحاسبات وبمركز التنمية الصناعية للدول العربية ، واستاذاً ببعض الجامعات العربية .


Bibliotheca Alexandrina
04477766